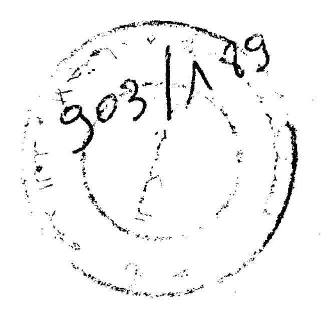

تغريبة بنى هلال
ورحيلهم
الى بلاد الغرب
وحروبهم مع الزناتى خليفة
عمر ابو النصر





تغريبـة بني هلال

عمر ابو النصر

تغريبة بني هلال

ورحيلهم الى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة

وما جرى لهم من الحوادث اللطيفة الظريفة والحروب الهائلة المخيفة ... وفيها قصة مفامس مع بنت عمه شاه الريم ، وقصة الدبيسي ، والبردويل ابن راشد ملك العريش ، وقصة جوهر الحبشي ، وقصة الملك الفرمند حاكم مصر القاهرة ، ونزول بني هلال ، ورحيل حسين الجعيزي الى ارض نجد ، وغرق بني هلال في ارض المخضة ، واسر الامير دياب ، وهروب بنو زغبة ، وقتل الامير حسن ، وقتل الامير ابو زيد وغير ذلك من الاخبار العجيبة .. والقصص الغريبة .

دار عمر ابو النصر وشركاه
للطباعة والنشر والتوزيع والصحافة
بيروت - لبنان

١٩٧١

الطبعة الاولى

\- ١ -

قصص البطولة والاحداث في ارض العرب

الحياة في الجزيرة

سوف تقرأ في هذه القصة نبأ هذه المجاعة التي تولت منطقة نجد في سالف الايام ، ومنذ الف سنة تقطعت من الاعوام .. وكيف اضطر بنو هلال وهم سكانها ، لمغادرتها الى ارض العرب الواسعة حيث الخصب والماء والثراء ..

وليعلم القارىء بعد هذا ان الحياة في الجزيرة العربية ، خصوصا للبدو من سكانها ، كانت صعبة شديدة قاسية ..

لقد فرضت الجزيرة العربية بحرّها وصحراواتها ورمالها وقلة مياهها على العرب من سكانها نوعا من الحياة ، كان من الصعب عليهم ان يتحرروا منه او يفرضوا لانفسهم نوعا غيره ..

والاكثرية الساحقة من سكان الجزيرة العربية مجبرة حتما على تكلف الحياة البدوية الخشنة الجافة ، لان الارض التي تصلح للزراعة قليلة جدا ، والمطر المتقطع الذي ينزل تارة هنا وتارة هناك ، يفرض على الرعاة التنقل من مكان الى آخر طلبا للكلاء . مع ما يستدعي ذلك من عراك وعناء مع الطبيعة للحصول على مقومات الحياة الاولى ..

واما سكان المدن في الجزيرة فانهم وان اختلفوا عن البدو بما تفرضه عليهم بيئتهم من طراز جديد في الحياة ، الا انهم في الواقع كانوا متأثرين بالحياة البدوية التي حولهم الى حد بعيد ، متأثرين بالتفكير البدوي نفسه في الشعر وغير الشعر من الوان الفنون الادبية التي كانت تجد ارضا خصبة في هذه الصحراء الملتهبة الجياشة ..

وكان على ابن الجزيرة وهو يحيا هذه الحياة الصعبة القاسية ان

يحرث ما لم يزرع ، وان يأكل ما ليس له ، وان لا يرى كبير امر في اغتصاب ما هو لغيره ، واستلاب ما هو لسواه .. فلا تعجب ان رأيته يغزو اطراف الجزيرة وقلب الجزيرة طلبا للحقول النضرة ، والمراعي الخصبة ، والماشية الوفيرة ..

وكان من المفروض على سكان المدن من اهل الجزيرة الاتفاق مع القبائل العربية الضاربة حولهم ، اذا ما ارادوا نقل تجارتهم من مكان الى آخر ، حتى تصل سالمة الى حيث يبادلون بها من هم بحاجة اليها ، وكانت هذه الاتفاقات كثيرة ،وعديدة ، وكان العربي البدوي يحافظ عليها كل المحافظة ويصدق في الوعد كل الصدق .

والصحراء العربية اقليم في الجنوب الغربي من اسيا ، تحده شمالا بادية الشام وشرقا الخليج الفارسي وبحر عمان ، وجنوبا المحيط الهندي، وغربا البحر الاحمر ..

وتقسم بلاد العرب وفاقا لطبيعتها الى اقسام خمسة :

تهامة ، والحجاز ، ونجد ، واليمن ، والعروض ، وفي الجزيرة مواطن خصبة خصوصا في اليمن وحضرموت والاحساء ، واما الساحل العربي فارضه وعرة تتخللها التلال والكثبان ولكنها تمتاز بمراعيها وخصبها ..

وفي الجزيرة جزآن صحراويان ، الاول في شمالي هضبة نجد واسمه (النفود) ويمتد من شمالي الهضبة حتى جنوب فلسطين ، وهو عبارة عن كثباب رملية يتخللها وديان عميقة لا يصل اليها الماء .. والصحراء الاخرى تقع في الجنوب الشرقي من جزيرة العرب شمالي حضرموت وهي (الدهناء) .. وهي اشق بكثير واجدب من صحراء الشمال ، وما عدا ذلك فان في بلاد العرب ارضا زراعية وواحات يمكن السكنى فيها ، وقد اكسبت طبيعة هذه الارض الشاقة اهلها النشاط والخفة خصوصا البدو منهم الذين لا يعتمدون كثيرا على الزراعة ، وانما جل اعتمادهم على اغنامهم يأكلون لحومها ويشربون البانها ويكتسون اوبارها ، وهي التي تحملهم وتحمل امتعتهم الى حيث ينتقلون من مكان الى آخر طلبا للكلاء والماء ..

شعب شبه الجزيرة

هذه الجزيرة العربية نزلها الساميون من العرب اول عهدها في

التاريخ ، فلما كثر عددهم نفروا عنها الى سواها من المدن القريبة المتحضرة القائمة على اطرافها كأشور وبابل وسوريا ، يجوسون ارضهـا وينتهكون معاقلها وينزلون فيها نزول الفاتح في ارضه ، ويمشون فيها مشية المليك في بستانه ، ويطبعون هذه الامم الجديدة بطابعهم السامي ، ويظـل هذا حالهم اجيالا وعصورا حتى عصر الجاهلية ، وقبل الاسلام ، واذا العرب فيه مثلهم قبله ، واذا هم لا يزالون جماعة تغلب عليهم البداوة ويعيشون عيشة القبائل الرحل ، فلا يتصلون بالارض اتصـال المزارع المقيم ، ولا يمكثون في البلد مكوث الرجل العامل ، بل نراهم يتربصون مواسم الفيث فيمشون اليها رجالا ونساء وشبابا وغلمانا وابلا ، وهذه الحياة على ما فيها من جهد ومشقة قلّ ان تسمح بقيام الجماعات المتحضرة ، وقل ان تمكن اصحابها من تأسيس حضارة وثقافة مستفيضة متينة .

ويعصم ربك الجزيرة فلا يكاد يهبطها غاصب او فاتح الا غرارا ، ثم ما شأن الفاتح في ارض ليس فيها من الخير ما يمكن لسكانها في الحياة.

وما شأنه في بلاد كلها قبائل وعشائر ، قلوبهـم اسيافهم ومنازلهم رواحلهم فان هو حاول ان يجوس ارضهم ، نفروا عنه واستقروا في مكان آخر من الجزيرة سحيق ، ثم يكرون عليه ، فما يبرحون به كرا وفرا حتى يضيق معهم صبرا فينصرف عنهم ... وقد اضناه التعب وبرّح به طول الشقة ، وعضه الجوع ولوّحته الشمس ، فلا تعجب بعد ذلك ان لا يقتحم الجزيرة الروم والفرس ابان سلطانهم ويوم كانوا ملء السمع وملء البصر وقد دوخوا في عهدهم بلادا ابعد منها ، وجماعات اشد مـن العرب قوة وعصبية وامضى سلاحا ..

وهي بعد بلاد قاحلة ما يتجه نظر احد للاستيلاء عليهـا ، وقبائـل وعشائر بدوية تعتمد في قوامها الاقتصادي على التجارة وبعض الثمرات والماشية وما تنضج به الماشية من البان وغيرها ، وهي بموقعها الجغرافي البديع بين آسيا وافريقيا طريق الامم المحيطة بها من اقصى الصين الى اقصى البحر المتوسط .

حياة الغزو

ثم لما كانت الثمرات والبان الماشية لا تكاد تسد مـن جوع ابنائها ، فقد كان من واجب البدوي ان يضرب الارض طلبا للرزق ، وان يطلبه في المدن القريبة القائمة في الجزيرة ، والتـي كانت وفيرة الحضـارة باسقة

العمران فكان ينزلها اما حاميا لقوافلها من غزو امثاله لهـا ، او صاحب رواحل تنقل المتاجر من مصادرها الى موردها ، او تاجرا ينقل للشام وغير الشام ماشية الجزيرة على ان يعتاض عنها بما هو في اشد الحاجة اليه من مأكل ومشرب وملبس .

كذلك كانوا يعيشون على ما تنتجه لهم ماشيتهم من لحوم والبان ، اما اصوافها فكانوا يلبسونها ويتخذونها مساكن لهم ، وكانوا يعتمدون في تغذية هذه الماشية على الطبيعة يخرجون بهـا في مواسم المطر الى منابت الكلاء لترعى ، حتى اذا انتهى الموسم كروا راجعين الى منازلهـم ينتظرون الموسم التالي ريثما يحول الحول ، ويتنزل الغيث ، وقـد لا يكفيهم هذا الغذاء ، فيعمدون الى الضب وغير الضب مـن حيوان البادية يزدردون لحمه ، وقد كان شهيا كما يقولون ..

ثم انهم اذا احتاجوا الى اكثر مما تنتجه ماشيتهم ورأوا ان لا مندوحة لهم عن طلب الغذاء او يهلكـون جوعا ، عمدوا الـى ماشيتهم كما قدمنا يستبدلونها بالتمر واللباس وغيرهما ، هذا الى ما يكسبون مـن الغزو والسلب وهو مركب صعب ، لان القبيلة المسلوبة تعود فتتربص الفرص للاخذ بثأرها فاذا كان لها ما تريد عمدت الى الخصم فاستردت ماشيتها منه ، واجتاحت ماشيته ، ومثل هذه الحالة كانت اكثر ما تكون وقوعا في الجاهلية وقبل الاسلام .

حياة قاسية

هذه الحياة في الجزيرة لم يكن بطوقهـا ان تنشىء حضارة ثابتـة الاركان باقية الاثر ، لان الحضارة لا تقوم الا على الماء وليس من ماء في الجزيرة ، وذلك ان الحضارة ثمرة الاجتماع فـي الحضر ، وهي لا تتفق والحالة هذه وحياة البادية في كيانها ، ثـم ان الحضارة فيض جديـد متواصل من عمل الانسانية عن حاجاتها المادية والمعنوية والادبية .

ولقد استقامت في مكة وغير مكة حركـة تجارية حسنة صالحة ، ولكنها لم تكن كافية لانشاء حضارة ثابتـة كما قدمنا ، وذلك ان طبيعـة الارض في الجزيرة نفسها لم تكن تساعد على قيـام الحضارة ، ولعـل اعجب ما في هذه الظاهرة ان لا يمتد تاريخ العرب في الجاهلية الى اكثر من مائتي سنة ، بينما تاريخ غيرهم من الامم يمتد الاف السنين ، ثم ان

تاريخهم في هذه المائتي سنة لا يزيد على انهم كانوا اهل بأس وقوة ونجدة وحياة معنوية فياضة .

واما الحضارة ومظاهرها من علوم وفنون ، واما هذا الفيض الذي اشرنا اليه ، والذي يجب ان يربو على حاجات الانسانية فلا يحدثنا تاريخ العرب قبل الاسلام عن شيء منه ابدا ، وسبب ذلك كله هذه الحياة التي كانت لا تقيم الركن المادي من اركان الحضارة ، والتي لا تنشىء لاصحابها حضارة واستبحارا في العمران .

ولعل امتع فصول التاريخ العربيهذا العراك الذي كانيدور بين العربي وبين الطبيعة وبين الحياة ، طبيعة قاسية قليلة الماء شديدة الحر كثيرة الرمال بعيدة الغور ، وحياة لا ترحم الضعيف ولا تستكين للفقير وابن السبيل ، طالمة لا تجود على ابنائها بشيء وتطلب منهم كل شيء ، ثم هي تنكر ابناءها اذا قعدت بهم الهمم وتخلفوا عن غيرهم من العاملين ، ما تعرف الرحمة الى قلبها سبيلا فاما عمل وسعي والا فموت وهلاك ، وكذلك كان شأن العربي ، بينما غيره يمشي بين الانهار والجنان وقد لا يمد يده الى مطعم وشراب بل يتنزل عليه الطعام والشراب عفوا وهو سائر في سبيله ..

واما العربي قد كان حتما عليه ان يركب الصحراء من ادناها الى اقصاها ليتبلغ الاقل من المشرب والاقل من الغذاء ، ثم ان حياته كانت نهبا مقسما للقوى ايان اردا وحين يشاء ، واذا لم يكن بميسوره ان يذود عن نفسه اضاعها في العراك الاول ، لذلك نراه وقد عودته هذه الحياة القاسية ان يكون غنيا في خياله وحياته المعنوية ، وانت فيما ترجع اليه من اشعار العرب قبل الاسلام لا تجد الا حديث الشاعر عن نفسه ، وحربه وغزواته وكرمه وامجاده ونسبه ، هذا كل ما كان يتغنى به في شعره ، وهذا كل ما كانت تنضح به نفسه من ثقافة وحياة ، واما غير هذا من الوان الفلسفة ونظم الحياة ، فقد تجدها عند الرومان والاغريق من الامم الغابرة ، واما عند العرب في جاهليتهم فانك لا تجد شيئا منها ، ولن تجدها الا عند افراد ارتبطت مصايرهم بمصاير بعض الامم المتحضرة فتعرفوا عندها على بعض الوان حياتها وما فيها من جمال وجدة وعمق (١).

ثم ان هذه الجماعات البدوية كانت تؤلف قبل الاسلام قبائل تنازع

---

(١) الدكتور محمد حسين هيكل .

بعضها الرئاسة والزعامة والحياة ، وقد انقسمت هذه القبائل بدورها الى جماعات خلقت لنفسها (انسابا) ، وتفاخر العرب بهذه الانساب وتناجزوا لاجلها حتى اصبحوا ولكل قبيلة منهم عصبية خاصة لها مختصة بها ..

والثابت اليوم انه لما جاء الاسلام كان العرب يرجعون بانسابهم الى اصول ثلاثة : مضر ، وربيعة ، واليمن ، وقد اخذ شعراء هذه القبائل وكل يفخر بنسبه وامجاد قبيلته ، يستغلون هذه الظاهرة السياسية والحزبية وينقلونها اينما ساروا والى اين ذهبوا ..

الحياة الاجتماعية

ولقد كان افراد القبيلة يتضامنون اشد ما كان التضامن ، ينصرون اخاهم ظالما او مظلوما ، ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم ، هذه حالة العربي مع اهله وابنه واخيه وابن عمه وافراد قبيلته ، فاذا تشعبت بطون القبيلة الواحدة تنافس افراد كل بطن في الشرف والثروة ، ووقفوا لبعضهم بعضا بالمرصاد ، وقد يبلغ العداء اشده وتراق الدماء بسبب هذه المنافسة ..

والبدوي شجاع كريم وشجاعته تتجلى في تاريخه الماضي وفي كثرة من نازلهم وقاتلهم من الناس ، واما كرمه فيتجلى في نحر الجزور للضيف واغاثة البائس الفقير ، وان يعطي اكثر مما يأخذ .. وان يغشي الوغى ويعف عند المغنم ..

ولقد دعاهم الكرم ان يأكلوا كثيرا ويشربوا كثيرا ، وبلادهم مجدية قليلة الانتاج ، فكان حقا عليهم ان يتصلوا باهل الشام والعراق واليمن وهم اهل حضارة وزراعة ورخاء ، يستعينون بهم على جدب ارضهم وقسوة اقليمهم ، اما المرأة البدوية فكانت تشارك الرجل في شؤون الحياة ، تحتطب وتجلب الماء ، وتحلب الماشية وتنسج المسكن والملبس ، ولما كانت ضعيفة ، وكانت اذا سبتها قبيلة مخاصمة انزلت العار بقبيلتها ولهذا سقط مقامها وانحطت منزلتها ، وكانت بعض القبائل تكره النساء فاذا بشروا احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم .

ولقد استقامت للعرب حضارة سالفة ، فشا امرها في اليمن وغير اليمن ، وحدثنا عنها (هيرودتس) المؤرخ اليوناني بشيء كثير من الدهشة والاعجاب ، وامكن لهؤلاء القوم الذين كانوا تجارا ينقلون متاجر المجاورين وغير المجاورين من الامم الى اقطار العالم حتى الهند ، والذين كانوا حماة

للتجارة من غزو المعتدين ، ان يلموا بطرف من حضارات الجماعات التي كانت تقوم حولهم فيما بين النهرين وفينيقيا ومصر والشام وغيرها من الامصار التي استقامت فيها حضارة سالفة بعيدة المدى في العمران ، رائعة المظاهر في سالفات الازمان . ومما لا جدال فيه ان الارض في الجزيرة العربية اليوم غيرها في ماضيات الايام ، وانها في الماضي كانت اكثر خصبا، ثم تناولتها النوازل الجغرافيةبكثير منالجفاف حتى اصبحت جرداء قاحلة ، والعمران انما يقوم في الارض الخصبة وعلى المياه وضفاف الانهر والبحار ، فلا يعجبن القارىء بعد ذلك اذا تبدلت الارض غير الارض، واذا تدنت الحضارة وانهار العمران فان هذه كلها من لوازم المواطن الخصبة والمياه الوفيرة .

اما اثر الحضارة في الادب العربي من نظيم ونثير قبل الاسلام فمن الثابت اليوم ان العرب كانوا ينعمون بحياة شعرية ادبية رائعة ، وليس ادل على ذلك من شعر الشعراء الذين ما نزال حتى اليوم نردد شعرهم ونحفظ قصيدهم ، ونتغنى بمدائحهم ووصفهم ، والشعر العربي في هذا العصر الجاهلي ينعم بصفة خاصة لا مثيل لها ، وهي هذا الصدق والاخلاص في تصوير الوان الحياة تصويرا اقل ما يقال فيه .. انه ما يزال حتى اليوم اساسا لدراسة التاريخ العربي قبل الاسلام ..

لقد كتبنا قصة عنتر باسلوبنا لاحياء هذا التراث العربي الغابر ، مرددين قصصه واخباره ومفاخره وبطولاته ، وانتفاضاته ، ليعلم هذا الجيل الجديد من ابناء العرب ما كان يفعل اجدادهم في كل الميادين ، يقرأون اخبارهم في الفتوح والغزوات كما يستلهمون حوادثهم في الشقاء والمجاعات (١) ..

وكذلك كتبت بعد هذا قصة الملك سيف وكيف حارب الجن والانس، بتأييد من الجن والسحرة طبعا حتى اجرى النيل وجمع البلاد ووحّد الاقطار ونشر دين الله الواحد ، وانا الان في صدد كتابة هذه القصة العجيبة اصف فيها مسيرة بني هلال من ارضهم في نجد الى مصر وغير مصر من ارض العرب ، هربا من المجاعة والجوع وما جرى لهم من الحوادث والاهوال وهم في طريقهم الى حيث لا يدرون ..

---

(١) طبعت قصة عنتر خمس مرات ، وهي الان في طريقها الى الطبعة السادسة .

لقد اشتهرت (الالياذة) للشاعر هوميروس بانها قصة البطولة والفداء عند اليونان ، تصف ابطالهم وتتغنى بامجادهم ، وتقص علينا الوانا من حياتهم وتاريخهم وكيف كانوا يعيشون ويحبون ويحاربون ويموتون .. دفاعا عن المثل العليا ، والشرف الرفيع .. في قصة متصلة متناسقة مرتبطة بعضها الى بعض بشيء من التاريخ واشياء من الخيال والملاحم كما هو الحال في قصة عنترة بن شداد تماما .

وكما وصفت الالياذة البطولات عند اليونان وصفت قصة عنتر وسيف وتغريبة بني هلال لنا البطولات عند العرب ، في العصر الذي استبق ظهور الاسلام .. وبعده ..

وكما كتبت الالياذة في اوقات متلاحقة ، ثم ضمت بعضها الى بعض ، فكذلك كتبت قصة عنتر وباقي القصص والملاحم في اوقات من الصعب تحديدها .

حتى استقامت على النحو الذي نعرفه اليوم والذي اصبح في صورته الحاضرة صورة من تاريخنا وتراثنا الماضي ..

وكما اختلف النقاد في الالياذة، وذهب بعضهم يقول ان (هوميروس) لم يكتب كل فصولها ، ولا جرى لسانه بجميع اناشيدها ، فكذلك اختلف نقاد العربية وادباؤها فقالوا ان قصة عنتر كتبها اكثر من شخص واحد ، كان الخلف منهم يزيد على السلف فصلاً بعد فصل ، حتى استقامت واستقرت على النحو الذي نعرفه .. وكذلك الحال في بقية القصص الاخرى .

انها جميعا قصص البطولة والحب والغرام والغزو والكرم ، والحقد والحسد والمكايد والحرب في الصحراء العربية ..

قصص اصبحت من تقاليدنا العربية ، وقطعة من تاريخنا القومي ورثناها عن آبائنا ، والفناها منذ طفولتنا ، فكم قراناها صغارا ، وكم استمتعنا باخبارها واحداثها شبابا وكهولا وشيوخا لا فرق في ذلك بين غني وفقير ، وكبير وصغير ..

ومن المؤكد ان صغارنا سيقرأونها ، كما قراناها ، وان شبابنا وكهولنا سيستمتعون بها في مقبلات الايام ، ما دامت العربية لغة قائمة ، وما ظلت هناك وفي صدر الوجود امة عربية حية مستقلة ناهضة ..

عمر ابو النصر

- ٢ -

المسيرة

الايام الاولى

كانت منازل بني هلال في ايامها الاولى وقبل ان تبدأ قصتنا هذه بسنوات عديدة ، وفي حوالي القرن الخامس الهجري غزيرة المياه ، كثيرة الاعشاب والخيرات حتى نزلت بها المجاعة ، فغاضت آبارها ويبست اعشابها، وذوت اشجارها، ولم يعد للحبوب فيها اثر ولا خبر، وظلت الحالة على هذا الحال سنوات لم يبق بعدها لبني هلال صبر ولا جلد ، فاجتمع مشايخ القبيلة وقصدوا مضارب الامير حسن ابن سرحان ، وتحدثوا اليه بما آلت اليه الاحوال ، وطلبوا منه مغادرة الارض الى مكان خصب تتوفر فيه المياه والخيرات قبل ان يموت افراد القبيلة من الفقر والحرمان ..

ولم يكن الامير حسن ذاهلا ولا جاهلا لخطورة الموقف ، وكان في الوقت نفسه يفكر في الرحيل ويتدارس مع رجاله المكان المقصود ، حين قصده اركان القبيلة ، وبسطوا له الموقف اليائس ، وطالبوه باتخاذ القرار الحاسم والانتقال السريع ..

كان عنده في مجلسه جماعة من كبار القبيلة وصناديدها ، ممن سوف يقرأ عنهم القارىء الكثير في الفصول التي تلي ..

كان عنده الامير ابو زيد الفارس المقدام والامير دياب بن غانم ، البطل المعروف ، والقاضي بدير فايد ، فلما حدثوه بخطورة الموقف بحث الامر مع رجاله فوافقوا جميعا على مغادرة الارض الى سواها ، وقرر الامير في الوقت نفسه ان لا يغادر الارض الا بعد ان يتخفى ويزور خيام القبيلة كلها

ليتأكد من خطورة الحالة ، واجماع النــاس على الهجرة في طلب العيش والارض المخضوضرة ..
طال طوافهم الى ايام ثلاثة .. فلم يجدوا الا جماعة قد عضهم الفقر واضعفتهم قلة التغذية فلما كان اليوم الرابع اشرفوا على سهل فيه عدة مضارب وخيام وجياد .. وخدام وامير اسمه مفرج بن نصير ، وكــان واقفا عند الابواب وهو في حالة الذل والاضطراب ، وعيناه تذرف الدموع من شدة الجــوع ، فحيوه بالسلام ووقروه بالكلام وقالــوا : ايها السيد الكريم اتقبل ضيوفا قصدوك من بعيد ..؟
فخجل من حديثهم وكلامهم ولم يجد بدا مــن اكرامهم فقال : اهلا وسهلا بالضيوف فشرفوا محلكم ولكم المعروف ، فأجابوه الى كلامه ونزلوا من ظهور الجمال ودخلوا الى خيامه وكان لمفرج زوجة يقال لها (بهى) وكانت من اجمل نساء الحي فقال لها : اذهبي واقصدي بيت ابيك شيبان لعلك تجدين شيئا من الطعام تأتين به الى ضيوفنا الكرام لانهــم قصدونا دون باقي العربان واتوا من ابعد مكان .
فسارت الى بهت ابيها وطلبت منه شيئا من الطعــام فقال : والله يا ابنتي ما دخل بيتنا طعام منذ ثلاث شهور ، فمعذرة مقبولة ..
فلما سمعت كلامه رجعت فــي الحال واعلمت زوجها بفشلها وعذر ابيها ، وطلبت منه بيع ابنته لاكرام ضيوفه ..
فقال لها : نعم الرأي والتدبير فقومي الان اصلحي شأنهــا والبسيها ثياب الحرير لادور في القبيلة جميعها وادلل عليها وابيعها .
فقامت والبستها احسن ثيابها وضمختها بافخر الاطياب فتعجب الامير حسن وابو زيد ودياب وقالوا : هذا امر غريب وحادث عجيب .. ولكنهم صبروا وهم متحيرون حتى ينظروا ماذا يجري ويكون .
اما الامير مفرج فانه نهض في الحال وطــاف بابنته انحاء بني هلال وهو ينادي ويقول يا اهل الفضل والمعروف من يشتري بنتي الثريا بعشاء اربعة ضيوف ... وكان كل من ينظر اليها ويتأمل فيها يتحسر على جمالها وحسن معانيها ويقول : اذا اشتريناها ماذا نطعمها ونسقيها .
ولما لم يجد ابوها من يشتريها اعادها الى المضارب وكان ذلك عليه من اشد المصائب فقالت زوجته : علامك ما بعتها يا امير ، فقال: لا يشتريها مني احد لا بقليل ولا بكثير .
فقالت له : اذهب بها الى الامير حسن امير القبيلة فانه يشتريها منك ولو بعشا ليلة ... فاخذها وسار وهو في قلق .

فعند ذلك خرج الامير حسن من المضرب وانفرد وسار الى صيوانه دون ان يراه احد من اهل الامير مفرج .

واما الامير مفرج وابنته فلما دخل سلم عليه وقبل يديه ... فطيب الامير حسن خاطره واحترمه غاية الاحترام وقال وحق رب الانام انه يصعب علي ان اسمع مثل هذا الكلام لانه يحرق قلوب السامعين فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .. ثم امر له بكيل من الطحين وان يرجع بابنته الى خيمته فشكره على ذلك الاحسان ، ورجع بالصبية وهو فرحان ولما ابتعد وغاب عن المضارب والقباب نهض الامير حسن بالعجل وتزيا بزيه الاول وركب مطيته وسار الى بيت مفرج فوصل قبلـه ، واعلم الامير ابو زيد بما فعله .

ولما وصل مفرج الى الخيام اعلم زوجته بما ناله من الانعام وبلوغ القصد والمرام ثم قال : قومي الان واصنعي العشا حتى تأكل ضيوفنا وتتعشى .. فبادرت في الحال وعجنت قرصا وخبزته في الحال وقدمه مفرج الى الضيوف وهو فرحان ملهوف وقال بسم الله .. تفضلوا وكلوا ولا تؤخذونا بالقصور فاني والله معذور .

فقال ابو زيد : لو جلست معنا كنا في غنا عن هذا التعب والعنا لانه يوجد معي من الزاد ما يسد بـه رمق الفؤاد .. ثم مد يـده الى الخرج افرغه على سفرة الطعام فشكره مفرج ... وجلس معهم يباسطهم بالكلام حتى حان وقت النوم فتركهم ورجع الى فراشه ونام .

ولما طلع النهار ركبوا مطاياهم وقصدوا جوانب القفـار ولما اقتربوا من وادي سلامة سمعوا صياحا وضجيجا عظيما فتقدموا لمعرفـة الخبر فوجدوا جمهورا من الرجال والشبان والنساء والصبيان وهم يصيحون في قلب موجوع من شدة الجوع... فتقدم الامير حسن اليهم وقد اشفق عليهم فطيب خاطرهم بالكلام وفرق عليهم جوايز الانعـام ... ثم ساروا الى المضارب والخيام واستدعى اليـه سادات القبيلة واكابر الجماعـة وجعلوا يتفاوضون في امر المجاعة فاتفق رايهم الاجماعي على الرحيـل من تلك الاطلال بالاهل والعيال ، وان يذهب ابو زيد الى بلاد المغرب وتلك الديار يبحث الاحوال ويأتيهم بحقيقة الاخبار ثم يرحلون باولادهم واثقالهم الى تلك الاقطار .

فقال ابو زيد للامير حسن كل ما استحسنتموه فهو جميل وحسن غير انه لا يخفاك اطال الله عمرك وابقاك ان المسافة بعيدة طويلة فيلزم ان يكون معي جماعة من سادات القبيلة .

فقال دياب : هذا الامر من اسهل الامور .. فخذ معك من تريد من الجمهور .

فقال ابو زيد متى طلع النهار يوفق الله ما يشاء ويختار .

ثم عاد الى الخيام وهو في قلق واهتمام فقامت له زوجته على الاقدام وقالت له بكلام الدلال ما لي اراك معبس الوجه فاعلمها بواقعة الحال وكيف اتفق رأيهم على ارساله لتونس ولا يوجد من يعتمد عليه ليأخذه معه على سبيل المعاونة والمؤانسة فقالت له انني ارشدك الى حيلة تجنبك هذا السفر الطويل وهو انك عند الصباح تدخل على الامير حسن وسادات القبيلة وتقول لهم بانك مستعد للذهاب الى تونس شرط ان يرسلوا معك مرعي ويحيي ويونس فانهم من ابناء الاعيان ولا تسمح بهم اهلهم ان يتغربوا عن الاوطان وبهذه الوسيلة يكون عذرك واضح عند سادات القبيلة .

فاستصوب منها هذا الكلام وفي اليوم التالي ذهب الى عند الامير حسن فالتقاه بالاكرام وقال : هل استعديت على الرحيل .

فقال : انني في غاية الاستعداد للذهاب الى تلك البلاد غير اني اريد ان يكون معي رفاق واصحاب من سادات الاعراب لان المسافة بعيدة ومشقات الطريق شديدة، فقال الامير حسن: خذ معكمن تريد منالفرسان الصناديد .

فقال اريد ان آخذ معي يونس ويحيي ومرعي فهم ممن يعتمد المرء عليهم في الطريق ..

فاستعظم الامير حسن هذا الطلب خوفا عليهم من العطب لكنه سمح له اخيرا ان يأخذهممعه وفي اليوم الثالث تجهزوا للسفر وركب الامير حسن في سادات القبيلة واكابر الاعيان وساروا لوداعهم مدة ثلاث ايام .

ثم رجعوا الى بلادهم وسار الامير ابو زيد يقطع البراري والقفار ويوصل سير الليل بسير النهار قاصدا تونس وتلك الديار .

وكانت جميع النساء والبنات والامراء والسادات تدعو لرب السموات في اكثر الاوقات وتطلب منه نجاح ابو زيد في تونس ورجوعه سالما الى الديار مع مرعي ويحيي ويونس .. اما ابو زيد فانه بعد رحيله من الوطن ما زال مجدا في المسير حتى اشرف على بلاد حزوة والنير .. وهي بلاد كثيرة الخيرات واسعة الاراضي والجهات وكان الحاكم عليها في ذلك الزمان عظيم الشأن صاحب ابطال وفرسان واسمه الدبيسي بن مزيد

فقصده ابو زيد دون كل انسان فدخل وسلم عليه وتمثل بين يديه ووقف مرعي ويحيي ويونس حواليه وقال :

اطال الله عمرك ورفع مقامك وقدرك فانك وحيد العصر واولى بالمديح والشكر ..

فلما سمع منه هذا الكلام رد عليه السلام وسأله من اي بلاد انت ؟ فقال : نحن شعراء حجازية نطوف في البريـــة فنقصد الامراء الاجاويد ونمدح الملوك الاماجيد فنأخذ عطاهم وننقل ثناهم ...

العجيب اننا مرونا على نجد وتلك الاوطان ومدحنا اميرها حسن بن سرحان فاجازنا بالجوائز السنية وخلع علينا الخلع الملوكية وتلك البـلاد الان في غاية الضيق من شدة المحن وعدم وجود القوت والدقيق .

(قال الراوي) فلما سمع الدبيسي هذا الكلام .. كرمهم غاية الاكرام وقال لهم مرحبا يا وجوه العرب ثم انزلهم في احسن الخيام واقاموا مدة عشرة ايام وكان ابو زيد في هذه المدة قد عرف احوال البلاد وما فيها من العساكر والاجناد وميز مراكزها وجميع ضواحيها .. وبعـد ذلك ودع الدبيسي ، ورحل من ذلك البلد قاصدا بلاد المغرب وقد جدوا واسرعوا فسبقوا بمسيرهم الطير الذي يطير وما زالوا يقطعون البراري والآكام مدة تسعة ايام على التمام .. وكانوا يستريحون بالنهار ويقطعون الفلاة تحت ظلام الاعتكار حتى وصلوا الى بلاد العميق وهي بلاد الامير مغامس ، وكان دخولهم في اليـوم الخامس ولما اقتربوا مـــن الابيات سمعـوا اصوات المولدات ودق طبول وزمور تدل على فرح وسرور فقال ابو زيد لاصحابه : ابشروا بالخير فان اهل الحي مشتغلون بعرس لهـــم ومن الصواب ان نقصدهم ونصرف هذه الليلة عندهم ...

وكان السبب في ذلك ان اخان اميران من اكابر الاعيان اسم الواحد عامر والثاني ابو الوجود وكان للامير عامر ولد اسمه مغامس جميل المنظر كانه القمر فصيح الكلام معتدل القوام ، وكـــان لابي الجود بنت اسمها شاه الريم وكانت في الحسن على جانب عظيم فصيحة اللسـان وبها كـان يضرب المثل في ذلك الزمان .. فاتفق ابو الجود على ان يزوجها بمغامس ابن اخيه لانه يحبه وتم الاتفاق وصار تقديم المهر وكـان لهذين الاميرين عدو من ملوك العربان يقال له (نبهان) اغار بجنوده ذات يوم على ارضهم فالتقاه ابو الجود والامير عامر بالابطـال والعساكر وجرت بينهـم حروب تشيب الاطفال انجرح فيها الامير عامر وقتل ابو الجود .. وكان للامير عامر عبد من الشجعان الصناديد يقال له سعيد .. وكـان يرعى الجمال

بين الروابي والتلال فلما راى تلك الحال وما حصل بمولاه من الوبال ركب ظهر الحصان وهجم على نبهان وتبعته الابطال والفرسان بقلوب اقوى من الصوان .. ولم يكن غير ساعة من الزمان حتى استطال عليه وطعنه بالرمح بين بزيه فالقاه قتيلا على الارض يتخبط بعضه بعض ثم انصب على جيش الاعداء فهزمه في تلك البيدا ، وبعد ذلك رجع الى القبيلة بغنائم جزيلة فالتقته النساء بالاناشيد والمدح الزائد وشكرته الرجال على تلك الفعال واكرموه غاية الاكرام ورفعوا منزلته الى اعلى مقام .

وفي اليوم الثالث اشتد على الامير عامر الالم حتى صار في حالة الخطر والعدم فاستقر رأيه على ان يقيم عبده سعيد مكانه حتى يكبر ابنه مغامس ويرتفع بين الناس قدره وشأنه ... فجمع اكابر الديوان وقواد الفرسان واعلمهم بذلك الشان ثم احضر سعيدا وقال له بحضور السادات الاماجيد :

اعلم ايها الفارس الصنديد اني قد اقمتك مكاني ملكا على هذا الاقاليم حتى يكبر ابني مغامس .. فتزوجه بابنة عمه شاة الريم ويصير هو الامير وتكون انت له من جملة الوزراء والاعوان .

فلما انتهى الامير عامر من كلامه بكى من كان حاضرا من السادات الكرام وقال سعيد لمولاه : سأفعل ما امرت فانا عبدك وفي نعمتك قد انتشيت وكبرت .

ثم تفرقت العرب الى المضارب والخيام وبعد ثلاثة ايام شرب كاس الحمام فغسلوه ودفنوه بالوقار والاحترام وبكى عليه الخاص والعام .

وفي اليوم الثاني جلس سعيد على الكرسي مكان مولاه الامير عامر واطاعته الاكابر والاصاغر وقواد الجيوش والعساكر فكان يحكم في القبيلة ويفعل ما يريد ولا يعترضه احد من السادات والعبيد فلما تمكن غاية التمكين واشتهر وانتشر بين الناس ذكره داخله الطمع على اختلاس المملكة والقاء بن مولاه مغامس في مهاوي التهلكة ، فجمع الاعيان والابطال والفرسان وقال لهم على رؤوس الاشهاد : اعلموا ايها السادة اني صممت الان على طرد مغامس بن سيدكم من الاوطان وارساله الى ابعد مكان فلا عدتم من الان فصاعدا تعاملوه بشيء مهما كان ، وكل من خالف ولم يمتثل الى امري هذا قطعت راسه واخمدت انفاسه فماذا تقولون وماذا تجاوبون .

فقالوا : سمعا والف طاعة فما عدنا نعامله ولا نتكلم معه من هذه الساعة ، وفي هذه الاثناء دخل الامير مغامس عليهم فحياهم فلم يجسر

احدهم ان يرد عليه الجواب خوفا من القصاص والعقاب فتأثر من ذلك الامر واحترق قلبه بلهيب الجمر وعلم ان العبد يريد حكم القبيلة بالقوة الجبرية ، فعاد راجعا على الاثر واعلم امه بالخبر فرثت امه لحاله وقالت : الله يكون معنا يا ولدي فاني خائفة من غدر هذا العبد فانه انكر الجميل والمعروف وبدأنا بالشر بعد ان كان راعي جمالنا وعبدنا وخدامنا ، فما انتهت من هذا الكلام حتى اقبل عليها بعض الخدم يخبرها : ان لم تذهب بابنها من الديار يحل بها الهلاك وقد ارسل اليك العبد هذه الناقة الجربانة وهذه الشاة والشقة المزقة على سبيل الاحسان والصدقة فاذهبي في الحال قبل حلول الوبال .

فبكت ام مغامس من هذا الكلام وتذكرت ايام زوجها وما كانت عليه من العز والانعام وعلو الجاه ورفعة المقام ، ورحلت بابنها من تلك الساعة الى ان اشرفت الى واد عميق بقرب الطريق فاقامت هي وولدها هناك وهما في حالة الخوف والارتباك ثم نصبا خيمة من القش واغصان الشجر لتقيمها من حرارة الشمس وضوء القمر وجلسا في ذلك المكان تحت مشيئة الرحمن ...

***

اما ما كان من سعيد العبد الخائن اللئيم فانه ارسل يطلب شاة الريم وامر امها ان تجهزها تلك الليلة وتصلح حالها حتى يدخل عليها ويحظى بحسنها وجمالها . فلما سمعت شاة الريم ذلك الكلام كان عليها اشد من ضرب الحسام وجعلت تبكي هي وأمها على مغامس ابن عمها لانها كانت تحبه وترغب قربه ولما زاد عليها الحال قالت لها امها :

اعلمي ان الصبر مفتاح الفرج ولا بد ان اجد لهذا الضيق من خلاص ومخرج فاصبري على حكم الله وعلى قدره وقضاه .. وهذا العبد سعيد جبار عنيد وشيطان مريد ، وقد ذلت له الفرسان الصناديد وابن عمك مغامس ، فقير الحال ليس له مال ولا رجال ، وان خالفنا له امرا اخذك غصبا وقهرا فمن الواجب ان نسمع كلامه ونمتثل اوامره واحكامه ، فلما سمعت شاة الريم من امها هذا الكلام صبرت على احكام رب الانام وكان العبد سعيد قد صنع في تلك الليلة وليمة جمع فيها بعض الاعيان واكابر الديوان فدقت الطبول ونفخت الزمور وقام في القبيلة الفرح والسرور ودقت المولدات بالدفوف ولعبت الفرسان بالرمح والسيوف ، فلما سمع

مغامس اصوات الطبول وصهيل الخيول قصد الحي تحت ظلام الليـــل وعندما وقف على حقيقة الخبر طار من عينيه الشرر من شدة الوجـــد والغرام وزواج ابنة عمه بدر التمام بذلك العبد ابن اللئام فعاد الى امه بواقعة الحال فبكت شفقة عليه .. وجعلت تتلطف بخاطره وتقول : الله كريم فلا بد ان تكون من نصيبك شاة الريم ... ثم جعلت تتوسل الى الله وتطلب منه المعونة والنجدة والخلاص من تلك الشدة ، وكان في هذه اللحظة مرور ابي زيد ومن معه فسمع قولهما وبكائهما فوقـــف يسأل عـــن السبب ، فاعلماه بما جرى من العبد سعيد .. فقال في سره : لا بد ان انصرهم .. وجلس عندهم ... فقام مغامس وذبح ناقته التي ليس له غيرها وقدمها لهم فأكلوا وشربوا .. واخذ ابو زيد يغني على الرباب فسمعه راع فقد دابة من دوابه ومضى يبحث عنهـــا ... فذهب واخبر العبـــد سعيـد بما رآه ... فارسل في طلبهم فحضروا اليه فوجدوا عنده جمـاعة مـن السادات الاماجيد وهو متكىء على ظهره ينتظر قدوم العروس ، فسلم ابو زيد عليه ووقف بين يديه فلم يرد عليه جواب ولا اكترث بكلامه ولكن رفع له رجليه وبحلق عينيه فتأثر ابو زيد من فعله وصمم على قتله لكنه صبر الى النهاية ، ثم التفت سعيد الى ابو زيد واصحابه وقال لهم كيف تكونون من شعراء العرب واصحاب الفضل والادب وتتركون زيـارة الامير وتقصدون عجوزا لا قدر ولا شأن لها .

فقال ابو زيد : طال عمرك وزيد في مقامك وقدرك اننا ما اتينا الى هذه القبيلة الا لنمدح جنابك ونتشرف بساحة اعتابك غير ان وصولنا كان في الظلام وكنا سنزور حضرتك في اليوم التالي الى ان ارسلت في طلبنا فحضرنا امتثالا لامرك العالي فلا زالت ايامك في سرور وافراح على طول الايام والليالي .. فلما انتهى ابو زيد من مقاله جلس علـى يمينه وجلس مرعي ويحيي ويونس عن شماله وكان عند جلوسه التقى ساعده على فخذ سعيد بقوة وعزم شديد فتألم سعيد من تلك الحركة وقال :

لا مرحبا بك ولا حلت علينا البركة قاتل الله اباك وامك ، فما أثقل دمك .. فقال ابو زيد : لا تؤاخذنا كتر الله خيرك ومعروفك .

فلما انتهى ابو زيد من كلامه .. اغتاظ منه سعيد وقال له :

ــ ما هذا الكلام الغليظ الشديد يا أخس العبيد فلولا سواد لونك كنت قطعت راسك واخمدت انفاسك فاجلس مكانك واكفنا شرك ولسانك ودع غيرك يطربنا بالكلام يا ابن اللئام .

فعند ذلك التفت مرعي اليه وقال : لا تؤاخذه ولا تغضب عليه فانه

من جملة العبيد الذين لا يعرفون مقام الملوك ولا لهم خبرة بحسن التصرف والسلوك ، فان كنت تريد غنيتك الان بما يستحق الانعـام ومزيد الاكرام فتزيل اكدارك وتنتبه افكارك ... فقال سعيد : هات ما عندك ..
والقى مرعي قصيدة هدده فيها وتوعده ..

فاغتاظ سعيد الغيظ الشديد وصاح بالجلاد ليقطع رأسه ويخمد انفاسه .. فاعتذر يحيي امام الحاضرين وكبار السادات المقدمين ، وقال:
لا تؤاخذهم ايها الملك الجليل فانهم اناس بها ليل لا يعرفون مضمون الكلام ولا يميزون بين النور والظلام، فأنا امدحك بابيات حسان ما سمعها احد الا وزال عنه الهم والأحزان لانها تشرح الصدور وتجلب السرور.. فقال له: هات ما عندك لعن الله اباك وجدك .

ولكن يحيي فعل مثل رفاقه فتوعده وهدده لخيانته في شعره وكلامه.
فزاد بسعيد الغضب وصاح بالجلاد ليقطع رأس الثلاثة شعراء قصاصا لهم على ذلك الافتراء ، فنهض يونس على الاقدام واعتذر اليه بالكلام وقال :
ان هؤلاء الشعراء من اوباش العربان لانهم تكلموا بحضرتك بما لا يليق من الكلام فان اردت انشدتك ابياتا ما سمعها قط انسان الا استحسنها غاية الاحسان .

فقال : بارك الله فيك انشد وخذ مني ما يرضيك فان صدري ضاق وقلبي يحدثني بالفراق .

لم يكن (يونس) بالتأكيد ارفق بالعبد من اصحابه ، فقد هجاه بكلمات قاسية ، وتوعده وهدده، فضاق صدر سعيد ، وعظم غضبه، وامر الجلاد بقطع رؤوس الاربعة الاصدقاء ، ولكن (ابو زيد) كان اسرع اليه من جلاده، فضربه بسيفه على رأسه فقطعه ثم لحق هو ورفاقه بعبيده فافنوهم ...
فلما انتهى منهم جمع افراد القبيلة وقال لهم :

ـ لقد قتلت العبد الغدار ، وقضيت على جماعته ، واريد الان أن اعيد الحق الى نصابه ، ومغامس الى كرسيه فما تقولون .. فوافقوا جميعا ، وهللوا وكبروا ، فعندئذ ركب ابو زيد الحصان وركبت معه الابطال والفرسان والسادات والاعيان وقصدوا الامير مغامس ... ومعهم الطبول الرفوف وهم يمشون صفوفا حتى وصلوا اليه فسلموا ومثلوا بين يديه واعلمه ابو زيد بواقعة الحال ، وكيف انه قتل ذلك العبد المحتال ففرح مغامس بهذا الخبر وزال عنه القلق والضجر ثم مضى الى الحلة مع امه بموكب عظيم ، وزفوا عليه ابنة عمه شاة الريم وجلس على

الكرسي مكان ابيه ، وصارت العرب تمدحه وتهاديه لانه كان ميتا فعاش وتخلص من ايدي اولئك العبيد الاوباش فشكروا ابو زيد ومرعي ويحيي ويونس على ذلك الصنيع وتعجب الجميع من ذلك الاتفاق الذي لم يسمع مثله في التواريخ والمجامع واراد مغامس ان يمنعهم عن السفر الى تونس وان يبقوا عنده فيزيد فرحه بهم ويستأنس فقال ابو زيد لا بد من سفرنا وها انت امنت من الخطر، ثم قام ابو زيد في هذه الحالة ثلاثة ايام في فرح وسرور وغبطة وحبور وبعد ذلك ودع الامير مغامس وسار مع مرعي ويحيي ويونس قاصدين مدينة تونس وهم يجدون في قطع الروابي والتلال .

لا يدركون الاخطار التي سوف يتعرضون لها ..

ولا المتاعب التي سوف يرونها في طريقهم المحفوف بالمخاطر والآلام ...

- ٣ -

الفرسان الاربعة في تونس

وصل ابو زيد ورفاقه اخيرا الى مكة فصلوا في المسجد الحرام ، وداروا حول الكعبة ، ثم غادروها الى العراق ، حيث مثلوا بين يدي الحاكم ومدحوه ، فاجزل لهم العطاء واكرمهم غاية الاكرام ومضوا في مسيرتهم حتى بلغوا دمشق الشام فاقاموا فيها اياما ، ثم توجهوا الى بيت المقدس حيث اقاموا يومين كاملين ، ومنهـا ساروا الى غزة .. ثم الى مدينـة العريش ، وكان يحكمها البردويل بن راشد .. فمدحوه بالاشعار والقصايد واقاموا عنده ثلاث ايام في الاكرام ثم ودعوه وجدوا في قطع البرية حتى وصلوا الى مصر .. فقصدوا ملكها الفرمند بن متوج ودخلوا عليه ومثلوا بين يديه ، ومدحوه بالاشعار فالتقاهم بالترحيب والوقار ، واقاموا عنده ثلاثة ايام وساروا قاصدين بلاد الصعيد وبـلاد المغارب حتى وصلوا الى عند القاضي بن يقرب ودخلوا وسلموا عليه ، ومثلوا بين يديه ومدحوه بالاشعار فاعتبرهم غاية الاعتبار واقاموا عنده في اعزاز واكرام وكان هذا الرجل من اعلى الناس واوفاهم عهودا وذمما واندرهم جودا يكرم الضيوف ويجود بالالوف وهو الذي ذكره العالم النحرير المؤرخ الشهير صاحب العلوم والفنون عبد الرحمن بن خلدون في كتابه العبر وديـوان المبتدأ والخبر وقال انه كان في الجود اسخى من جعفر وحاتم .

(قال الراوي) وفي الحادي عشر تأهب ابو زيد للسفر فودع القاضي وكل من كان حاضرا وسار يجد السير في طريقه الى المغرب .

واتفق ان جماعة من شعراء العربان كانوا قصدوا بلاد نجد ومدحوا الامير حسن بن سرحان بالاشعار الحسان كما جرت العادة في ذلك الزمان فأجزاهم بالعطايا الجميلة والمواهب الجزيلة ، وكان من جملتها جارية من

بنات الحي اسمها مي فشكروه على هذا الجميل والاحسان ، ثم ساروا قاصدين بلاد العرب وتلك الاوطان حتى وصلوا الى تونس الخضراء ومدحوا الزناتي خليفة وباقي الوزراء فأحسنوا اليهم وانعموا عليهم ، ثم باعوا تلك الجارية الظريفة الى سعده ابنة الزناتي خليفة وكانت سعده من أجمل البنات ... قد اتصفت بالانس والمحاسن وشاع ذكرها في جميع الاماكن تحير الادباء وتنادم الملوك والامراء ذات ادب وفضل ولها معرفة بضرب الرمل ، فاتفق انها سألت تلك الجارية ذات يوم عن سبب وقوعها في ايدي اولئك القوم فاخبرتها بالقصة وكيف ان الامير حسن وهبها لهم على سيبل الهدية فقالت : وهل يوجد نظير لي بين نساء العرب في الحسن والادب ؟

فقالت لها: نعم يا صاحبة الجود والكرم يوجد بين الامم من يشبهك في الظرف والجمال ومكارم الشيم وحسن الخصال وهو بطل من الابطال وزينة الرجال الامير مرعي ابن مولاي حسن امير بني هلال ، فلما سمعت سعدا هذا الكلام تعلق قلبها في مرعي وهام ، لان الاذن تعشق احيانا قبل العين ... فقالت لها سعده : اذا كان كلامك صحيح .. قومي بنا نتنزه في البستان وانا اضرب في ألرمل وانظر احوال الذين ذكرتهم الى الان فان قلبي تعلق جدا بأحدهم ... ومرادي ان اعرف اخبارهم على التحقيق.

ثم اخذتهما معها الى البستان وكان من احسن المنتزهات وهناك ضربت الرمل وعرفت الامور التي سوف تجري ، وبينما هم في الحديث والكلام أقبل عليهما (العلام) وكان هذا الرجل من سادات الانام وابن عم الزناتي خليفة ونائبه في معاطاة الاحكام صاحب معرفة وعقل من الناس في ضرب الرمل ، وكان يتردد على سعدة في غالب الايام لانه من جملة الاهل وبني الاعمام فسلم عليهما فردت عليه السلام واستقبلته بالترحاب والاكرام فجلس بقربها وكان قد عرف ما في قلبها وكان قد ضرب الرمل في ذلك النهار وظهرت له حقيقة الاخبار فأعلمها بأفكاره وكشف لها اسرارها، فطلبت منه ان يكتم ذلك الخبر لا يبوح بهلاحد من البشر، خوفا عليها من الضرر، وقالت له اريد من فضلك يا ابن عمي ومن هو كشف همي وغمي ان تعلمني متى يحضر هؤلاء القوم فاني بانتظارهم في كل يوم، فأجابها الى ذلك الطلب ووعدها بالمساعدة على بلوغ الارب، ثم ودعها وصار طالبا الصيد والقنص وبقي ثلاثة ايام ثم رجع الى داره بالسلام .

• • •

هذا ما كان من سعدة وابن عمها العلام وما وقع بينهما من الحديث والكلام ، واما ما كان من البطل الهمام ابو زيد ومن معه من السادات الكرام فهم كانوا قد جدوا في قطع الروابي والآكام مدة عشرة ايام حتى وصلوا الى تونس وقت الظلام فباتوا خارج المدينة ، وفي اليوم التالي صاروا يتأملون مبانيها فوجدوها متينة وأبراجها حصينة كثيرة القلاع قوية الدفاع انهارها غزيرة وخيراتها كثيرة فجعلوا يدورون حولها ، ويتبصرون كيف يكون الهجوم عليها فاتفق انهم دخلوا في بعض الايام الى بستان وكان كفردوس الجنان واستمروا تحت اغصان الشجر وكانوا يقطعون ويأكلون الثمر ، فبينما هم على تلك الحال اذ اقبل عليهم جماعة قد ارسلهم الزناتي ليقبضوا عليهم ويقيدوهم بالاغلال حيث كان بلغه خبرهم من بعض الفرسان بأنهم في ذلك البستان ، فدار بهم ابو زيد من اليمين والشمال فلما شاهدهم استعد للحرب والقتال وهجم عليهم كالسبع وضرب بالسيف في ذلك الجمع ... فقتل منهم عدة رجال ومددهم على الرمال‌ثم تكاثرت عليهم العساكر والجنود وأحاطوا بهم احاطة من كل مكان وقبضوا على مرعي ويحيي ويونس في الحال وأوثقوهم بالقيود والاغلال ، ولم يقدروا على ابو زيد في الحرب والقتال فعند ذلك تقدم اليه (العلام) على انفراد وقال له: من تكون من السادة وما هو سبب مجيئكم الى هذه البلاد ؟

فقال ابو زيد : اننا شعراء من بلاد الشرق وعادتنا ان نمدح الامراء وأكابر الخلق وسمعنا بكرم الزناتي خليفة وما خصه الله به من الشمائل اللطيفة فقصدناه من بلاد بعيدة لاجل هذه الغاية الوحيدة وكان وصولنا مساء امس فبتنا في هذا المكان من حيث اننا غرباء ولا نعرف احد الى ان اشرفتم بجمعكم علينا واوصلتم اذاكم الينا بدون ان نعلم المقصود وانا اسمي محمود واسم جماعتي شداد وجماد ومسعود ..

فقال له العلام : لقد كذبت في المقال وتكلمت بكلام المحال ما انت الا الامير ابو زيد صاحب المكر والكيد ، وأما رفاقك فهم مرعي ويحيى ويونس وقد اتيتم الى البلاد لتدرسوا احوالها وقوتها قبل الهجوم عليها، ثم صاح: امسكوه ولا تؤذوه . فانطبقت الفرسان على ابو زيد من اليمين والشمال حتى قبضوا عليه وأخذوه مع باقي اصحابه الى عند الزناتي المشار اليه وصحبهم العلام المذكور ، ولما دخلوا عليه ومثلوا بين يديه قالوا : اعلم يا مولانا ان هذا العبد الذي حاربنا ودهانا قتل منا ابطالا

وفرسانا . فاغتاظ الزناتي وتكدر من هذا الخبر وقال لابو زيد : من تكون من العربان يا أخس السودان ؟

قال : نحن شعراء نقصد الملوك والامراء فنمدحهم ونأخذ الانعام ونحصل على بلوغ المرام . . هذا هو دأبنا في كل عام وقد سمعنا بكرمك ومحاسن شيمك فقصدناك من بلاد العرب طمعا بالفضة والذهب وحيث اننا من الاعراب ليس لنا في هذه الناحية اصدقاء ولا احباب وكنا في تعب وضيق من مشقات الطريق فدخلنا الى ذلك البستان لنأخذ لانفسنا راحة يا ملك الزمان ثم نقصد جنابك العالي وباقي السادات والموالي فاحاطت بنا العساكر مع الاهالي وداروا علينا يا مولانا قاصدين قتلنا وأذانا ، فقد دافعنا عن انفسنا الى ان وقعنا في الاسر والهوان ، وقد عرضنا قصتنا عليك وفوضنا امرنا اليك فأمر بما تشاء وتريد ايها الملك السعيد .

فلما سمع الزناتي هذا الكلام بدا الضحك والابتسام وقال لهم : يا مناجيس ما انتم الا جواسيس اتيتم لتدوروا البلاد وتعرفوا احوال العباد ثم تذهبوا وتأتوا بالعساكر والجند الوافر فتملكون بلادنا وأراضينا وتتحكمون بجموعكم فينا ، هذا هو السبب الذي قادكم الينا وحملكم على القدوم والهجوم علينا فلا بد من قتلكم يا أوغاد على رؤوس الاشهاد جزاء على هذا وتكونوا مأكلا للوحوش الكاسرة .

***

وكان الزناتي قد وقف على الخبر اليقين من المنجمين والرمالين . وبعد مفاوضات طويلة مع ارباب المجلس استقر الرأي على شنق ابو زيد ومرعي ويحيى ويونس ، فأخذ العسكر الاربعة وكانت الناس مجتمعة ولاجل التقادير مروا بهم من تحت قصر الاميرة سعدة وكانت في ذلك الوقت جالسة تتغدى ، فلما سمعت ضجيج العسكر قامت مع جاريتها لتعلم ما الخبر فأطلت الجارية رأسها من الشباك وهي في حيرة وارتباك فلما امعنت فيهم النظر اعتراها الهم والكدر وقالت لمولاتها :

ـ اعلمي يا زينة الدنيا ان هؤلاء الثلاثة مرعي ويحيى ويونس وأما هذا العبد الرابع فهو ليث الوقائع الامير ابو زيد فارس المعامع .

فلما سمعت سعدة هذا الكلام تبدل نهارها بالظلام لانها كانت تعلقت بحب مرعي دون باقي الانام فصاحت على الجلادين والعساكر المحافظين وقالت : ارجعوا الى عند ابي بهؤلاء العرب واياكم ان تقتلوهم فيحل بكم

العطب واني سأتبعكم على الاثر لاقف على حقيقة الخبر ..

فلما سمعوا كلامها وفهموا قصدها ومرامها اجابوا امرها بالطوع والامتثال ورجعوا في عاجل الحال وذلك لما يعهدون من علو منزلتها ونفوذ كلمتها، ثم ان سعدة بعد ذلك الخطاب لبست افخر الثياب وتعطرت بالاطايب وسارت عند ابيها في جماعة من حواشيها وكان ابوها جالسا في الديوان ومن حوله الوزراء والاعيان فدخلت وسلمت عليه وقبّلت يديه فنهض لها على الاقدام واحترمها غاية الاحترام وأجلسها بجانبه في صدر المقام ثم سألها عن احوالها وعن السبب الذي اوجب انزعاج بالها فقالت :

ـ قد بلغني من الاعوان بأنك امرت بشنق جماعة من شعراء العربان اتوا قاصدين جنابك من ابعد مكان طمعا بالانعام والحصول على بلوغ المرام فما كان جزاهم الا القتل والاعدام عوض الانعام والاكرام ، فلما سمعت الكلام انزعج بالي وتغيرت احوالي لاني اعلم ان هذا الحال يكون سببا للقيل والقال بين سادات الرجال وينسبوك الى البخل والغدر ويتكلم فيك زيد وعمرو فأمرت العساكر والمحافظين ان يتوقفوا عن قتل هؤلاء المساكين فبينما آتي واقص هذا الحديث عليك .

فلما سمع ابوها هذا اعلمها بواقعة الحال وقال لها: ان هؤلاء الرجال ما قصدوا هذه الديار والاطلال الا ليرودوا البلاد ويقفوا على اخبار العباد ثم ليذهبوا ويأتوا بالعساكر والاجناد ويستخلصوا بلادنا بالحراب والجلاد وهذا هو السبب يا منتهى الارب وصاحبة الفضل والادب فما فعلت الا الصواب لانهم يستخفون القتل والعذاب .

فقالت : اذا فعلت ذلك انتقدتك جميع دول الممالك لانه لم يثبت عليهم ذنب حتى الان ولا يوجد برهان كما ترى يا ملك الزمان، وأنا اشور عليك بحسب فكري ان تحبس هؤلاء الثلاثة شبان في قصري ويكونوا تحت طوعي وأمري وترسل ذلك العبد الى بلاده بلا اهمال في طلب الفدا والمال، فان حضر ذلك نجا من الاعتقال وتكون انت معذور عند جميع الرجال .

فقال: وحق الاله الرحيم اني خائف من هذا العبد اللئيم لانه فارس شديد وبطل صنديد .. ومع هذا فخذيهم اليك وافعلي ما تريدين ..

فأخذت الاربعة وسجنتهم عندها في الدار ثم اخذت من الطعام ما يكفيهم جميعا ونزلت اليهم سريعا فاجتمعت بمرعي في اول الامر وقالت له : كل ولا تخبر احد بل احفظ ذلك السر ... ثم فعلت بيحيى ويونس مثل ذلك وقالت ليونس ان يرسل لها ابو زيد فلما حضر قدمت

له شيئا من الطعام فشكرها على هذا الاهتمام ثم انه قسمه على سبعة اقسام فسألته عن سبب ذلك فقال لها : اعلمي يا زينة المالك وبدر الليل الحالك انا وجماعتي اربعة وانت والجارية اثنين على التمام، والحصة السابعة سأحزمها بحزام وأرسلها الى ابنة عمي عاليا في الظلام . وكان ابو زيد يقول هذا الكلام وهو متوقف عن اكل الطعام، فقالت له سعدة: لماذا لا تتغدى ؟ فتنهد من فؤاد متبول .

فضحكت سعدة من كلامه واعجبها حديثه ، واخرجتهم من الحبس واحضرتهم لعندها وقدمت لهم الطعام واخذت تحادثهم بالكلام وتسألهم عن احوالهم وعن بلادهم واخبارها فقال ابو زيد : نحن من جملة الشعراء نقصد الملوك والامراء فنمدحهم بنفائس الاشعار ونرجع الى الديار بالدرهم والدينار .

فقالت : انكم لم تعلموني بالحقيقة مع انني عارفة باحوالكم على التحقيق .

اخذت تعلمهم بسفرهم وما جرى لهم في الطريق والسبب في قدومهم الى هذه الديار ..

فلما فرغت سعدا من حديثها وقصيدها دهش ابو زيد وجماعته لمعرفتها بامرهم ولكنهم اطمأنوا الى سلامتهم عندما ادركوا حبها لهم واهتمامها بمصيرهم ..

فلما فرغت سعدة من كلامها شكرها الامير ابو زيد وجماعته على اهتمامها وباتوا تلك الليلة في سرور وانشراح ، ولما اصبح الصباح واشرق بنوره ولاح امر الزناتي باحضارهم فلما حضروا قال لابي زيد :

ـ اذا اطلقناك الى ان تأتي جماعتك من الاوطان فكم يوم تغيب عنا؟

قال : اغيب ثلاث شهور وأجيب لك الف مدرع مشهور .

فقال : وما هو مرادك من المدرع ايها البطل الصيمدع ؟

فأخرج الامير ابو زيد من جيبه قطعة من الفضة الخاص وانقى من الفضة الروباض وقال : هذا هو المدرع يا زينة المالك .

ففرح الزناتي بذلك وقال :

ـ اذهب بأمان الى الاوطان .

فقال : اعطني عدة الحرب والحصان لان الطريق مخطرة والاراضي موعرة ... فأعطاه ما طلب، وبعد ذلك ودع الزناتي وذهب وجعل يدور في البلاد ويطوف في المدائن حتى اشرف الى وادي الفباين وتلك الاماكن فوجدها كثيرة المياه والنبات متسعة البراري والفلوات تصلح للحرب

والقتال ومرعى النوق والجمال .. ثم سار من هناك الى قابس ومنها الى دوس فوجدها احسن محل لامتلاك تونس وقد تعجب من خيرات البلاد وكثرة ما فيها من الموارد والمشاهد الكثيرة ... والمياه والبساتين الغزيرة ، فانشرح خاطره وطابت نفسه .

***

ومضى ابو زيد في طريقه حتى وصل الى ضواحي حلب فجلس تحت شجرة مخضوضرة ليأخذ لنفسه بعض الراحة ، فبينما هو في هذه الحال اقبل عليه احد التجار وحياه وسلم عليه وقال له :

ـ اني تاجر اقصد بلاد المغرب ..

فقال ابو زيد : وانا شاعر اطوّف في الارض ، هل تعرف الامير علام ..

قال : هو صديق لي ..

قال ابو زيد : اريد ان اعطيك كتابا اليه ، تسلمه له بيدك ..

قال التاجر : سأفعل انشاء الله ..

فكتب له ابو زيد كتابا ، وذهب التاجر ، حتى اشرف على تونس ، وسلمه الى (العلام) ..

واما ابو زيد فقد مضى يجد السير من حلب في طريقه الى نجد ، حتى وصلها بعد خمسين يوما .. وتوجه توا الى صيوان الامير حسن حيث اجتمع عليه الناس من كل جانب ..

وبعد ان اخذ لنفسه بعض الراحة ، راح يقص على الجميع ما جرى له من الحوادث ، وكيف انه ترك الاولاد في تونس عند سعده ، وطمأن الجميع الى سلامتهم ، ووصف لهم الارض ومن فيها من القوم ، وما تحويه من الخيرات ...

وعندئذ بكى الامير حسن ومن حضر من السادات لاسيما اهل الاولاد فقد تفطرت منهم الاكباد وقالوا لابو زيد بلسان واحد :

ـ اعلم يا فارس الفرسان اننا لا ننفك عنك ولا نعرف اولادنا الا منك.

فقال : كونوا براحة بال فاني قد اخذتهم من الاطلال وسأرجع بهم على احسن حال وأنعم بال .

ولما انتهى من هذا المقال التفت الامير حسن الى الحاضرين والسادات المعتبرين وقال لهم :

مرادي الرحيل الى بلاد المغرب واقيم هناك الحرب واخلص الامراء بالطعن والضرب .

فاستحسنوا هذا الخطاب وقال ابو زيد : هذا هو الرأي الصواب ولكن قبل الرحيل من هذه الاطلال بالفرسان والاطفال والنساء والعيال يجب ان ترسل ايها الامير المؤيد بعض الرجال ليأتوا بالجازية لتركب امام ظعون بني هلال وبباقي نسائنا المتفرقات هنا وهناك ليتقدمن الجيش ويحمسن الابطال .. لانه اذا اشتعلت نيران الحرب ووقع الطعن والضرب تكون الجازية وباقي السيدات امام الابطال في العماريات لان الجازية من النساء الشهيرات وهيذات رأي وتدبير، وهكذا تمالرأي بينالامراء والاعيان وارسلوا اربعة وعشرين فارسا من الشجعان لجلب الجازية وتأهبوا للطعن والضرب والسير الى تونس الغرب ، وأمر الامير حسن بدق طبل النفير العام فدق الطبل في الحال واجتمعت الفرسان والابطال وسادات الرجال ودخلوا على الامير حسن بن سرحان وهو في الديوان فاخبرهم بما جرى ، وقال لهم : استقر رأينا ان نرحل من الاوطان ونقصد بلاد الغرب بعد ستة ايام فكونوا في الاستعداد التام لان ارضنا قد امحلت ووقع بنا الفلا وأولادنا في اسر الزناتي خليفة يقاسون العنا ..

. . .

وفي اليوم السابع تجهز الابطال للمسير والارتحال فهدت المضارب والخيام وانتشرت الرايات والاعلام ودقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلوا بالسيوف والنصول ، وركبت الحريم والعيال والاولاد والاطفال ونساء الامراء العمد والجازية ام محمد ، وكان الامير ابو زيد في مقدمة الفرسان وساروا عدة ايام حتى نزلوا بأرض يملكها الدبيسي بن مزيد وكان من صناديد الابطال وشجعان الرجال لا يقدر العواقب ولا يخشى حلول المصائب وكانمن الشجاعة والفروسية في طبقةعالية يفتخر بنفسه ويفضل ذاته على جميع الفرسان في ساحة الميدان ويقول انه اذا ركب الجواد لا يوجد من يقاومه في الحرب والطراد ، ولو كان ابو الفوارس عنتر بن شداد .

وكان له اربعة وزراء يركن اليهم ويعتمد في اموره عليهم وهو (مقلد) و(همام) و(راشد) و(سلام) وله ولدا اسمه مزيد قد سماه على اسم جده وكان يحبه كثيرا ومن شدة محبته له اراد ان يزوجه بأبنة اخيه، فجمع

وزرائه واخبرهم بما قد صمم عليه فأجابوه الى ذلك المرام ما عدا الوزير همام فانه كان صاحب رأي وتدبير فنهاه عن ذلك في الوقت الحاضر واعلمه بقدوم بني هلال الى تلك البلاد ومعها العساكر ، فانذهل الدبيسي وحار في امره . وبينما هو في مجلسه دخل عليه الرعيان واخبروه بقدوم بني هلال وانهم ملأوا الارض برجالهم ، استشار الدبيسي وزراءه فأشاروا عليه بان يرسل من يستطلع عددهم فأرسل العبد راشد الى مضارب بني هلال ، فانذهل مما رأى هناك من كثرة الرجال والابطال والفرسان ورجع الى الدبيسي واخبره بما رأى .

فلما فرغ راشد من كلامه وفهم الدبيسي مقاله زاد خوفه وفزعه فاستدعى اليه الوزراء وأخبرهم بذلك الكلام فلم يجبه احد بكلام فقال لهم : ما بالكم لا تتكلمون ولا تجيبوني على خطابي .

فقال الوزير راشد : انه من الواجب ان نرسل لهم كتابا نأمرهم بدفع عشر المال مع النوق والجمال فان امتنعوا عن ذلك نقاتلهم في الحال ونشتتهم في البراري والتلال فاكتب لهم كتابا بهذا الصدد وأنا آخذه اليهم وآتيك بالجواب .

فاستصوب الملك رأيه وكتب لهم كتابا يطلب فيه منهم عشر المال مع النوق والجمال وان لم يرضخوا لطلبه كان مصيرهم الفناء . وختمه واعطاه للوزير راشد فأخذه وجدّ في قطع القفار حتى اشرف على حي بني هلال وعند وصوله الى صيوان الامير حسن بن سرحان نزل من على الحصان فسلم عليه وعلى باقي الامراء الذين حواليه فردوا عليه السلام والتقوه بالترحاب والاكرام وأمر له بالجلوس فجلس بقربه ثم سأله عن اسمه وغرضه فاعلمه بواقعة الحال وعن سبب حضوره الى تلك الاطلال .

ثم اعطاه الكتاب فأخذه الامير وقرأه ولما وقف على حقيقة فحواه غضب الغضب الشديد لكنه اخفى الكمد وأظهر الصبر والجلد ثم امر الغلمان ان يأخذوا الوزير الى دار الضيافة. ولما خرج من الديوان التفت الى الامراء والاعيان وأطلعهم على خطاب الدبيسي الذي يطلب فيه عشر المال . وقال جمعهم ان هذا الطلب لا نوافق عليه . وقال ابو زيد : انه من الصواب ان ترسل تقول للدبيسي ان يمهلنا عشرة ايام حتى نرسل له طلبه بالتمام ومتى انقضت المدة وألحّ في الطلب نقول له ليس عندنا مال ولا ذهب سوى الحرب والقتال في ساحة الوغى بينما ابطالنا وفرساننا تكون قد استراحت من تعب الطريق . فوافق الامير على ذلك وكتب

الكتاب وارسله مع الرسول الذي جدّ في قطع الهضاب حتى وصل الى عند الدبيسي فدخل وسلم عليه واعطاه الكتاب ففتحه وقراه وعرف ما حواه ففرح واستبشر وايقن بالنجاح وبلوغ المراد. ولما انتهت الايام العشرة ولم ترسل بنو هلال الاموال قال للوزير : ها قد مضت المدة المعينة ولم نحصل على شيء ولا وردت الاموال فيجب ان تسير اليهم وتطلب منهم ان يبادروا بارسالها في عاجل الحال والا حاربناهم وأنزلنا بهم الوبال ... فامتثل الوزير امره وركب من وقته وساعته الى منازل بني هلال حتى وصل الى صيوان الامير حسن فنزل عن ظهر الحصان ودخل وسلم عليه ثم جلس قليلا وبعد ذلك طالبه بالمال ولامه على ذلك الاهمال فقال السادات والامارة : ارجع الى مولاك قبل ان تحل بك الخسارة وقل له انه ليس عندنا مال ولا نوق ولا جمال غير طعن السيف والنصال .

فاغتاظ الوزير من هذا الكلام وخرج من ذلك المقام ورجع الى مولاه بالعجل وأخبره بما سمعه فاغتاظ وأمر الرؤساء والقواد بجمع العساكر والاجناد فعند ذلك دقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلت بالرماح وخفقت الرايات وركبت الابطال وهم كثيرون ...

***

والتقى الجمعان ..

وبرز احد فرسان الدبيسي الى الساحة التي تفصل بين الجيشين وطلب المبارزة ، فنزل له الامير دياب من بني هلال ، فجالا في الميدان حتى تغلب دياب على خصمه فأرداه قتيلا ..

وكذلك فعل بمن برز له من الخصوم بعده حتى قتل الكثير من رجال الدبيسي ، قبل ان تغيب الشمس ويتفرق الجيشان .

فلما كان الغد نزل الوزير الى الساحة فقتله دياب ايضا ، وعندئذ امر الدبيسي رجاله بالهجوم العام ، فصمدت لهم بنو هلال وردتهم ، واحدثت في جنودهم الكثير من الخسائر .. واقبل الظلام وتوقف القتال ، وعاد الدبيسي الى مضاربه حانقا غاضبا لعظم الخسائر التي نزلت برجاله ، وقرر النزول بنفسه في اليوم التالي لمنازلة الامير دياب بن غانم ..

تبارز الخصمان طوال النهار دون ان يظفر احدهما من الاخر بطائل،

واخيرا عاد كل واحد الى مضاربه ...

واقبل صباح الغد ، والوزير على اشد ما يكون من الحنق والغيظ، فاشتد على (دياب) .. وارسل له كثيرا من الطعنات الصائبات ، ولكن الامير دياب كان يردها جميعها ، واشتد اخيرا بينهما القتال في ساحة البراز ، واختلفت بين الاثنين ضربتين قاطعتين وكان السابق الوزير محمود فغطس دياب تحت الخضرا فراحت الضربة خائبة بعد ما كانت صائبة ، ثم انصب الامير دياب وهجم عليه وضربه بالسيف على هامته فقطعه نصفين والقاه على وجه الارض قطعتين ...

وكان للوزير اخ يدعى الهداف فلما رأى اخاه قد مات زادت عليه الحسرات فهجم على الامير دياب ليأخذ بثأر اخيه فشتمه وصاح فيه ، فالتقاه الامير دياب في الميدان بقلب اقوى من الصوان وجرى بينهما حروب واهوال تشيب رؤوس الاطفال ، واستمروا على تلك الحال وهما في اشد قتال الى ان ولى النهار وارتحل واقبل الليل .. فأوقفوا الحرب ، وتوقفوا عن الطعن والضرب ...

ولما اصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح دقت طبول الحرب والكفاح وبرز الهداف الى الميدان وطلب براز الفرسان فبرز له دياب وكان الهداف من الفرسان المشاهير والابطال المغاوير قد تعود الحرب من صباه فاقتتل مع دياب اشد قتال وكان يجول معه في ساحة القتال ويهجم عليه هجوم الاسد . وما زال الفارسان في اشد قتال وطعان يذهل عقول الشجعان الى ان انتصف النهار ، وكان دياب قد استظهر عليه كل الاستظهار وضربه على عنقه بالسيف البتار فقطعه والقاه في الساحة . فلما رأت جموع الدبيسي ما حل بوزيرها هجمت على دياب قاصدة قتله وهي تذمه وتشتمه فعند ذلك هجمت بنو هلال من اليمين والشمال ، والتقت الرجال بالرجال والابطال وجرى الدم وسال من شدة الحرب والقتال ، وما زالوا على تلك الحال الى وقت الزوال فدقت طبول الانفصال وباتت بنو هلال ، في سرور وبات الدبيسي في قلق وضجر لما تعرض له من الخسائر .

ولما اصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ركبت الفرسان الى الحرب والكفاح ، وكان اول من برز الى الميدان وطلب قتال الشجعان الملك الدبيسي نفسه فصال وجال في ساحة القتال ونادى : اين فرسان بني

هلال فلتبرز الان الى ساحة القتال . فما أتم كلامه حتى صار الامير دياب قدامه وهو راكب على فرسه وكل العيون تنظر اليه .
واطبق الفارسان الواحد على الاخر وفعل الدبيسي مثل ما فعل واخذا في الحرب والقتال وجرى بينهما عجائب وأهوال وما زالا على تلك الحالة الى ان ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار فانفصلا عن بعضهما البعض ونزلت كل فرقة في ناحية من الارض. وعند رجوع الامير دياب من حلبة الصدام التقاه الامير حسن باعزاز واكرام وشكره على ما فعل وقال له : لله درك في القتال وملاقاة الابطال فأريد منك ان لا تنزل غدا الى الميدان لان لك عدة ايام وانت في الحرب والصدام والدبيسي مرتاح لم يشارك في حرب ولا قتال ..
فقال دياب : دعني يا مولاي له .. لا تمنعني عن هذا الطلب، وان قتلت فروحي فداك ، فاني لا اخشى الموت في قتال اعدائك . فشكره الامير حسن وقبله في صدره وقال له : انا ما تفوهت بهذا الكلام الا لما وجدتك تعبان وما دام الامر كذلك فابرز نهار غدا وقاتل خصمك واتكل على الله فلعلك تكفينا شره وأذاه .

***

ثم باتوا تلك الليلة في سرور وانشراح ولما اصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح دقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلوا بالرماح والنصول وتقدموا الى ساحة الميدان وكان اسبقهم الامير دياب . ولما صار في معركة القتال طلب الدبيسي فالتقاه دياب واخذ معه في الحرب والصدام واشتد بين البطلين القتال وعظمت الاهوال وكانا تارة يتقدمان وتارة يتأخران وكانت عيون الفرسان شاخصة اليهما وما زالا على تلك الحال الى وقت الزوال فدقت طبول الانفصال فافترقا عن بعضهما على سلامة ورجعا الى الخيام. ولما اصبح الصباح ركب الامير دياب فتقدمت اليه ابنته وطفا وهي تبكي بدموع غزار فتعجب وقال لها : اعلميني بما اصابك .
قالت : مرادي ان تتوقف هذا اليوم عن قتال القوم فقد رأيت مناما اخافني ..
فقال لها : لا تخافي من هذا المنام فانه اضغاث احلام فلا بد لي من

الحرب والصدام فاذهبي الى خيامك ولا تخافي عليّ من اعدائك .

فرجعت الى الخيام وتقدم دياب الى معركة الصدام فوجد الدبيسي بانتظاره ، فصالا وجالا في ساحة الميدان وأخذا بالضرب والطعن حتى حيّرا جميع الحاضرين .. فلما كان العصر اختلفت بين الاثنين ضربتين قاطعتين وكان السابق الامير دياب فردها الدبيسي بمعرفته ثم هجم على دياب وطعنه بالرمح طعنة قوية فجاء الرمح في فخذه فسالت دماه وآيس من الحياة . وأراد الدبيسي ان يمثل به واذا بفارس من بني هلال قد اقبل كأنه قطعة من جبل وهو يهدر كالاسد فخلص دياب من يد الدبيسي بن مزيد ورجع به حتى وضعه في المضارب ، ثم اقتحم الصفوف والمواكب وهو يصيح على الاعادي وينادي : اتاكم ابو زيد ليث الاعادي .

وجعل يقوي بني هلال على الحرب والقتال فأجابته الى ما طلب وحملوا على جيش العدا من كل جانب ، فعند ذلك حملت العساكر على العساكر وتقاتلوا بالسيوف والخناجر . وحمل الامير حسن بن سرحان وتبعته السادات والاعيان ولم تكن الا ساعة من الزمان حتى اشتدت الاهوال وتمددت الابطال على وجه الرمال وما زالوا في اشد قتال الى وقت الزوال . وكانت عساكر الدبيسي قد استظهرت في ذلك النهار وأسرت عشرين فارسا من بني هلال الاخيار من جملتهم الامير عرندس والرياشي ومفرج والهدار فلما شاهد حسن تلك الاهوال خاف على بني هلال من الهلاك والوبال فلما نزل في المضارب جمع قواد المواكب وسألهم رايهم .. فنصح ابو زيد بطلب النجدة ثم الهجوم العام على العدو ... فوافق الامير حسن وأيد الجميع هذا الرأي ..

واما الدبيسي فانه عند رجوعه من القتال كبرت نفسه وأحضر الاسرى وتهددهم بالقتل والدمار فوجدهم لا يبالون بالاخطار فأرسلهم الى الحبس.. ولما اصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح اصطفت المواكب وترتبت الكتائب ولما تقابل العسكران برز القاضي بدير الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز اليه فارس وكان من الابطال فحمل الواحد على الاخر وتجاولا في الطول والعرض وتضاربا بالسيوف والقواضب وتطاعنا بالرماح والكواعب ولم يزالا في حرب وقتل وطعن يشيب الاطفال الى قريب الزوال، وكان القاضي قد استظهر على (جاسر) وهجم عليه كالاسد الكاسر وطعنه بالرمح في صدره فخرج يلمع من ظهره فوقع على الارض يتخبط

بعضه ببعض ثم هجم عليه اخر فقتله وأرداه ... فعنـــــد ذلك دقت طبول الانفصال فرجع القاضي من المعركة فالتقته بنو هلال بالاكـــرام والاجلال وهنأته بالسلامة وباتوا تلك الليلة الى ان أصبح الصباح فتواثبوا الى الحرب والكفاح فبرز من قوم الدبيسي فارس وطلب قتال الفرسان فبرز الامير عقيل وهو أخو ابو زيد وصدمهصدمة جبارة وقتله بعد ساعة، فنزل له اخر فارسله الى الآخرة، وكان الوقت قريب الزوال فدقت طبول الانفصال ورجع عقيل الى بني هلال فالتقاه قومه بالكرامة وهنأوه بالسلامة وشكروه على فعاله وزادوا في اكرامه واجلاله .

واما الدبيسي بـن مزيد ... فقد تنغص عيشـــه ونكد ... فاجتمعت الاكابر والعمد ودخلوا على اميرهم وتمثلوا بين يديه وقالوا : الى متى هذا الحال فجعل يوعدهم في الانتصار .

وفي اليوم التالي برز الدبيسي الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز اليه غنيم ابن مفلج وكان غلاما جميلا ، فقال له الدبيسي : من تكون يا غلام حتى تبرز في معركة الصدام فسوف اقطع رأسك بحد السيف . ثم صدمه بقوة واهتمام .

وما زالا في قتال شديد وحرب ما عليهما من مزيد حتـــى صارت الشمس في رابعةالنهار وكان الدبيسي قد ظهر علىخصمه غاية الاستظهار فاقتلعه من سرجه مثل العصفور وسلمه الى اصحابه فأوثقوه بالكتاف.. ثم صال الدبيسي وجال وطلب براز الابطال فبرز اليـــه الامير زيدان وصدمه بقلب اقوى من الصوان فالتقاه الدبيسي وأخذا يتضاربـــان ويتحاربان واستمرا على ذلك الشأن نحو ثلاث ساعات من الزمن ثـــم افترقا بالسلامة والامان . وبينما كان الامير زيدان راجعا من الميدان ضرب الدبيسي حصانه فرماه على بساط الفلاة، فانقضت عليه رجال الدبيسي فأخذوه في الحال وكتفوه وأوثقوهم وأما بنو هلال فهاجوا وماجـــوا واستعظموا تلك الاحوال وذهبت منهم جماعة من الاعيان الى عند ابو زيد فارس الفرسان فوقعوا عليه وفوضوا امرهم اليه وطلبوا منه ان يسعى لتخليص الفرسان والابطال من الاسر والاعتقال فطيب قلوبهم ووعدهـــم بانه سيبذل المجهود ثم انه غيَّر زيه وتنكر ولبس حلة من الحرير الاخضر ووضع طيلسانا على رأسه حتى لم يعد يعرفه احد ، وقصد الملكالدبيسي ودعا له بالعز والانعام وكان كلامه معه باللغة الفارسيـــة ... فلما رآه الدبيسي على تلك الصفة ظن انه من دراويش الاعجام فاحترمه غايـــة

الاحترام وقال له : من اين اتيت يا ابن الاجواد ؟

قال : من مدينة بغداد واني من فقراء عبد القادر رب الفضائل والمآثر .

فقال : ادعوا لنا يا دراويش الاعجام بالنجاح والانتصار وان الله يرزقنا بابي زيد الخادع والماكر حتى نقتله على رؤوس الاشهاد فهو الذي كان السبب في قدوم بني هلال الى هذه المنازل والاطلال فاذا اجاب الله طلبك بلغناك اربك ..

فتعجب ابو زيد من هذا الكلام وقال له: الله يبلغك مرادك بجاه مولاي عبد القادر وباق الاولياء العظام ... كما اريد منك ان تسمح لي بالذهاب الى البلد فسمح له بالذهاب وأمر الحجَّاب ان يفتحوا له الابواب وعند دخوله الى البلد قصد باب الحديد وهو المكان الذي كانت مسجونة فيه فرسان بني هلال ووجد هناك جماعة العبيد وهم يطوفون من خلف وقدام وتحت جنح الظلام فسلم عليهم فردوا السلام وقالوا: من تكون من الناس؟ فقال قد ارسلني الدبيسي بن مزيد لادعو له في جامع عبد الصمد بان الله يبلغه المراد وينتصر على ابي زيد وانتم من تكونوا من الناس ؟

فقالوا : اننا من جملة الحراس قد امرنا الملك بالمحافظة على اسرى بني هلال خوفا من ابو زيد لئلا يأتي علينا بالمكر والاحتيال ... ثم ان ابو زيد بعد هذا الحديث اخرج من جيبه شمعة مبنجة فأضاءها عند فرك مناخيره فلما اشتعلت فاح منها رائحة البنج وكانت رائحة زكية ولم تكن الا برهة يسيرة حتى سقط الحراس كالاموات وبعد ذلك اخرج حجر المغناطيس ووضعه على الاقفال فتساقطت في الحال فرأى فرسان بني هلال في القيود والاغلال وهم يقاسون الاهوال فاعلمهم بالامر وفكهم من الاسر ثم اعطاهم اسلحة الجماعة وقال لهم : اتبعوني حتى اكون فتحت لكم ابواب المدينة لتخرجوا سالمين .

ثم مضوا حتى وصلوا الى الباب فوجدوا الحراس جالسين وفي ايديهم السيوف والحراب فردوا عليهم السلام وقاموا على الاقدام واجلسوه بجانبهم وجعلوا يخاطبوه ويخاطبهم وكان كثيرا ما يمد يده الى جرابه ويأخذ قطعا من السكر ويأكلها امامهم فقالوا ما هذا الذي تأكله ؟ قال : هذا ملبس حلبي .

فقالوا : اطعمنا ونحن ندعو لك بالتوفيق والخير .

فأعطاهم قبضة كبيرة وكانت مبنجة فأكلوها فما استقرت في

بطونهم حتى سقطوا ومضى الاسرى يقطعون البراري والبطاح فوصلوا لاهلهم عند الصباح فقامت الافراح وكثر الصياح واشتدت ظهور الابطال وشكروا ابو زيد على تلك الفعال .

واهل البلدة حل عليهم الويل والنكد لما رأوا الحراس راقدين والاسرى غير موجدين ولما بلغ الدبيسي هذا الخبر طار من عينيه الشرر وتأكد عنده بعد التحقيق والتفتيش ان اصل البلا من الدرويش وما هو الا ابو زيد صاحب المكر والكيد ولكنه اخفى الكمد والجلد وزحف بالعساكر والابطال لقتال بني هلال فالتقته فرسان القوم في ذلك اليوم وكان اول من برز للدبيسي سرور ابن فايد فالتقاه الدبيسي بقلب كالصوان، ولم تكن الا ساعة حتى اخذه اسيرا وقاده ذليلا حقيرا فبرز اليه نعيم الزحلان من صناديد الشجعان فأسره في الحال واوثقه بالقيود وما زال على تلك الحالة وهو يأسر الفرسان والابطال حتى اسر خمسين فارسا من بني هلال وفقد منها عدد من الابطال وقد اشرفت على الوبال من هول القتال .

فلما كان اليوم الرابع هجم الدبيسي بالمواكب والطلائع قاصدا قتال بني هلال وانطبق عليهم من اليمين والشمال وقاتلهم اشد قتال فكانت موقعة عظيمة لم يسمع بمثلها في الايام القديمة كثر الصياح وجرى الدم وساح ، فما كنت ترى الا رؤوسا طائرة ودماء سائرة وفرسانا غائرة ودارت على بني هلال الدائرة واستمر القتال على هذا المنوال حتى كثرت الاهوال على بني هلال فلم يعد لهم ثبات فتأخروا الى الوراء وتفرقوا الى جانب الصحراء وقد قتل من الفريقين في ذلك نحو عشرين الف بطل كرار ولما اظلم الظلام اجتمعت بنو هلال في الخيام وهم في حالة الذل والانكسار مما اصابهم في ذلك النهار وعقدوا ديوانا مع الامير حسن وطلبوا منه ان يقرر موقفه من الحالة التي وصلوا اليها ..

فقال الامير حسن :

ـ ليس ينجينا الا الصمود والحرب حتى الموت ، فالموت مع الحرية خير من العبودية ..

فاشتدت عزائم القوم وقرروا ان يحاربوا حتى الموت ، وفي اليوم التالي ثبتوا في وجه رجال الدبيسي ثبات الابطال ، وحاربوه حرب من يفضل الموت على الحياة ، فكسروا شوكة رجاله ، حتى خرج بنفسه يطلب من (ابو زيد) الحرب والقتال ..

نزل له ابو زيد الهلالي ، وحاربه حربا لم يشاهد الدبيسي مثلها في

حياته ، واخيرا تغلب ابو زيد عليه وقتله بطعنة رمح نفذ من صدره الى ظهره ، فلما شاهد رجاله ما حل بمليكهم اسرعوا الى الهرب ، والى المدينة توجهوا ، فتبعهم بنو هلال يضربون فيهم ويقتلون .. حتى القى جماعة الدبيسي السلاح واستسلموا للمنتصرين بدون قيد ولا شرط ..

كما تمكن بنو هلال طبعا من تحرير اسراهم ، وجلسوا بعد ذلك في مضاربهم يشربون القهوة ، ويسمعون اناشيد المغنين ، ومدائح الشعراء البارزين ...

***

احس وزير الدبيسي ويدعى همام بان الدائرة قد دارت على جماعته، وان عليه ان يحاول اصلاح البين قبل فوات الفرصة ..

ولما استقرت هذه الفكرة في رأسه ، اخذ الامير مزيد بن الدبيسي ، وامه بدرا ، وذهب بهما الى مضارب الامير حسن ، زعيم بني هلال وطلب منه العفو والامان ، وان يعامل القوم بعد انتصاره بالعفو والغفران ، واخبره كيف انه نصح الدبيسي بعدم محاربة بني هلال فلم ينتصح وكان ما كان ..

وكان الامير حسن عند حسن الظن والامل فعفا وصفح ، وقرب الامير الصغير اليه ، بل وزوجه بابنة عمه ، حين عرف من الوزير بجمالها وحضر حفلة الزفاف بنفسه ، ثم امر جماعته بالاستعداد لمغادرة البلد ، الى حيث يمضون في مسيرتهم الطويلة التي قرروا القيام بها عندما غادروا ارض الوطن لشهور خلت ..

---

(١) اعتبرنا اسم (ابو زيد) اسم علم فلم نجريه في بعض الاحايين على قواعد النحو ، وان اجريناه في البعض الاخر ..

— ٤ —

بنو هلال في الحرب والقتال

في بلاد العجم

كانت الغنائم التي ربحها بنو هلال في معاركهم الاخيرة عظيمة جدا ، فلما صدر امر الامير حسن بالاستعداد للرحيل ، جمعوا كل هذه الغنائم وكانت شيئا عظيما ، ومضوا في سبيلهم تجللهم الرايات وتستبق زحفهم الطبول والسناجق ..

وكان يحكم بلاد الاعاجم في تلك الايام سبعة ملوك عظام ، وهم خرمند ، وعلي شاه ، والصلصيل ، والمغل ، ومنذر المنذر والنعمان . ولما نزل بنو هلال في ارض هؤلاء واطلقوا مواشيهم في المراعي ، وكانت كثيرة الخيرات والاشجار والازهار ، وكلها على كثرتها وخيراتها ، لم تكن لتكفي القبيلة الظافرة ، فضاق صدر اصحاب الارض واجتمعوا عند (الخرمند) يتداولون ويتدارسون ما يجب ان يفعلوه مع بني هلال ..

فقال احدهم : الرأي عندنا ان نبادرهم بالقتال ونسبي حريمهم والعيال وننهب نوقهم والجمال قبل ان تكثر جموعهم وتصل اذيتهم الينا.

وكان الملك النعمان حاضرا في الديوان فصعب عليه ذلك الامر لان اصله من بلاد العرب فقال للملك الخرمند: ان كان لا بد من حرب بني‌هلال طمعا بالغنائم والاموال فارسل اطلب منهم عشر المال فان امتثلوا امرك الشريف واجابوك لطلبك تكون قد بلغت منهم المرغوب ، وان امتنعوا عن ذلك فحينئذ تبادرهم بالقتال وتنهب اموالهم ومواشيهم وتطفي اثرهم وتلاشيهم .

فلما سمع منه هذا الكلام رآه عين الصواب كما صادقت عليه

سادات الاعاجم ثم ان خرمند بعد هذا الكلام استدعى بقلم وقرطاس وكتب الى بني هلال يطلب منهم عشر المال او يرحلوا من بلاده ..

فلما فرغ الخرمند من كلامه طوى الكتاب واعطاه الى النجاب وأمره ان يسير الى مكان بني هلال ويدفع الكتاب الى نائب السلطان حسن بن سرحان ، وكان الامير حسن قد ذهب الى نجد لبعض الاعمال...

فامتثل النجاب امره ومضى حتى وصل تلك الديار فسأل عن نائب الامير حسن فأرشدوه الى مضارب ابي زيد فدخل وسلم عليه وتمثل بين يديه واعطاه الكتاب وطلب منه سرعة الجواب فلما فتحه وقرأه عرف رموزه ومعناه ومزقه ورماه وكتب الى الخرمند الجواب .

وكان رفضا تاما ، وتهديدا بالحرب والقتال ..

ولما وقف الخرمند على الجواب سار الضياء ظلاما في عينيه وقال :

هل بلغ من قدر بني هلال ان يخاطبوني بمثل هذا الكلام وانا ملك بلاد العجم وذكري شائع في جميع الامم .

ثم انه استدعى من قواد العساكر من يعتمد عليهم في الحروب والمخاطر وأمرهم ان يستعدوا للقتال ويجمعوا الفرسان والابطال فامتثلوا امره في الحال ، وجمعوا الابطال والفرسان .

وارسل الى بلاد خراسان تمده بالجيوش والعساكر ثم ركب في اليوم التالي للحرب والصدام ...

ولما بلغ ابو زيد هذا الخبر ركب في جموع بني هلال واشتبك بين الفريقين القتال واشتدت قلوب الرجال وماجت بنو الزحلان وبنو هلال وارتدوا على طوائف الاعجام كليوث الآجام ، وقدامهم ابو زيد يهدر كالاسد ولا يبالي بالاهوال والمخاطر ... وقد فتك ابطال بني هلال بالعجم فتك الذئاب بالغنم واوردتها مورد العدم ، وكانت ساعة من اعظم الساعات فيها ارتفعت الضجات وتمكنت الصوارم في رؤوس الفرسان والسادات وعندئذ ولت الاعجام هاربة والى النجاة طالبة وخلص ابو زيد من ايديهم النساء والبنات ورجع بالنصر والاقبال الى المضارب والخيام مع باقي الامراء والسادات .

اما المارية ابنة عم الامير غنيم فكانت في هودج على جمل اهوج فلما اشتد القتال انهزم بها الجمل وسار بها على عجل فرأت نفسها بقرب الحلة والكوفة ... والصلصيل وراء هودجها يطلب اسرها فصاحت تنادي ابن عمها وكان بالقرب منها فلما سمع نداءها ترك القتال واتاها فجعل يطعن

الابطال ويمدد الفرسان على وجه الرمال حتـــى اقترب منها وصـــار يناديها ويقول لبيك يا ابنة عمي ...

ولكن الصلصيل تمكن منه وضربه من خلف ظهره بالرمح فخرج من صدره .. فأخذ الصلصيل الهودج ، واتى بمارية اسيرة خاسرة ..

واتى خبر مقتله الى ابي زيد فعظم الامـــر عليه وكتب الى الامير دياب يطلب مساعدته ، فاعتذر ، فكتب الى الامير حسن سيد بني هلال ، فاهتاج واهتم ، وعاتب الامير دياب على تأخره ، عن نجدة الامير (ابو زيد)، ثم ذهب الجميع يجدون السير الى حيث كان الامير ابـو زيد بانتظارهـم ففرح بهم فرحا عظيما .

***

وكان امراء العجم بعد تراجعهم امام الامير ابو زيد ، واسرهم مارية، قد اختلفوا فيما بينهم حول ايهم تكون الاسيرة من حصته ، ثم اتفقوا على اعطائها للشاه خرمند لانه من اكابر الملوك وقرروا مهـاجمة بني هلال مرة ثانية وكل من يكسب امرأة تكون له.. وفيثاني يوم ركبت الاعجام لمحاربة بني هلال فركب الامير حسن واستقبلهم في ساحة الميدان ما عدا ابو زيد فانه لم يركب معهم وتمارض ، ولما نشب القتال وعظمت بين الفريقـين الاهوال وقاتلت الاعجـام اشد قتال وجعلت ترميهـم بالنشاب وتطعنهم بالحرب بدون خوف ولا ارتباك فلما رأت بنو هلال تلك الاحوال وهجوم العجم عليهم من اليمين والشمال خافوا من الهلاك والوبال فارتدوا خلفـا وتبعهم فرسان العجم حتى دخلوا الى الخيام ثـم داروا ينهبون البيوت ويسبون النساء والبنات فوقع البكاء والنواح وزادوا في الصيـاح فلما سمع ابو زيد عويل النساء والاصوات التي ترتعش مـن سماعها الاذان عظم عليه الحال وعصفت في رأسه نخوة الرجال فهاجم العدو والتقـى بعسكر الاعجام وردهم عن المال والحريم باذن الملك العظيـــم ، فارتدوا منهزمين والى الخيام طالبين وهو وقومه وراهممثل الشواهين الى ان بلغ منهم المراد وقتل عددا كبيرا منهم ... ثم ارتد منتصرا وعنـد وصوله الصيوان التقاه الامير حسن بن سرحان وشكره على تلك الفعال وقال له: مثلك تكون الابطال يا زينة الرجال فلولاك لكنا في اسوأ حال وصرنا معيرة بين سائر العربان على طول الزمان ، وكذلك القاضي بدير اثنى عليه وكان

متأسفا على فقد ابنته مارية فقال ابو زيد له امام الحاضرين :
ـ كن مطمئنا من هذا القبيل فلا بد لي من انقاذ ابنتك ايها القاضي الجليل واشفي من عساكر العجم الغليل .

ثم ان ابو زيد صبر الى وقت الظلام فنهض وتزيا بزي الاعجام حتى وصل الى مدينة الكوفة حيث كان الاعاجم وفي صحبته عبده ابو القمصان وبدر بن غانم وعند وصوله اليها وجدوا ابوابها مغلقة فدار من جميع الجهات فلم يجد منفذا فبينما هو يتفرج ويتأمل رأى دهليزا صغيرا فنزل فيه فأوصله الى البلد فالفى جماعته بانتظاره واخذ يطوف من زقاق الى زقاق ويجول بين الحارات والاسواق وهو يتجسس الاحوال ويقف على الاخبار وكان كلما نظر اليه انسان يكلمه في لغة الاعجام بافصح لسان ... وما زال سائرا من مكان الى مكان حتى وصل الى حارة عظيمة البنيان ذات اربعة عمدان وفوقها قصر جميل الهندام من الرخام وشبابيكه مصفحة بالذهب واذا به يسمع آلات الطرب فقال ابو زيد في نفسه : ان صدقني حذري هذا قصر الملك خرمند لا محالة لما عليه من الهيبة والجمال ونظر ايضا الى شجرة من السرو وصلت اغصانها لشباك القصر، فصعد عليها حتى وصل الى اغصانها ولما صار عند الشباك ... نظر الى تلك الغرفة فوجدها من احسن الغرف مزينة بالفرش الفاخرة ووجد سبعة ملوك من العجم جالسين على كراسي من الذهب ومارية جالسة بينهم كأنها القمر وهي لابسة ثيابا تذهل البصر ، وكان ملوك العجم تشرب المدام والمغاني تغني لهم بانواع الانغام فبينما هم كذلك واذا بخرمند التفت الى مارية وقدم لها كأسا وقال لها خذي واشربي يا بنت الكرام وغني لنا بافصح كلام حتى يزيد انشراحنا ويكمل سرورنا ، فامتنعت عن الشرب وزادت في البكاء والانتحاب فلم يهن ذلك على الملك النعمان فنهض من وسط الديوان وكان اصله من العربان وكان الملك خرمند قد تزوج ابنته هند فقال : دعوها ولا تكلموها فانها من بيت كبير وابوها قاض وامير وهذا لا يفعله حقير ولا صعلوك فكم بالحري الملوك ولكن من جهة الغنا فهذا ليس فيه عيب ولا تعب ولا عناء ... ثم التمس منها ان تغني فلما سمعت هذا الكلام مضت تغني وتطلب من ابي زيد انقاذها ...

فلما فرغت المارية من هذا الشعر الجميل طربت ملوك الاعاجم وشرب خرمند كأسها ثم اعطاه الى الساقي طالبا المزيد .. فلما فرغ قال الخرمند الى الساقي : املأ كأس المدام وناوله الى مارية بدر التمام حتى

تفرح وتطرب ويزول عنها الحزن والكرب .. فخجلت مارية من الناس وقالت للنعمان : اني لا اشرب من هذا الكأس لانك تعلم ايها السيد ان مشروبنا هو حليب النوق والغنم ، ولا اشرب غيره من المشروبات لاسيما النساء والبنات فان ذلك عندنا من اعظم العار ، فاعتذر النعمان عنها الى خرمند امام الناس ، وقال له: اعفها من هذا الكأس لانها غير معتادة وليس في التكرار فائدة فتناوله الخرمند من الساقي وشربه ..

نهض النعمان وأراد انيأخذ المارية الى بيته فاعترضه الصلصيلوقال:

اني كسوتها بالثياب الفاخرة والحلل وانا احق بها من كل احد ..

فقال النعمان : اني لا امكنك من ذلك حتى ترى ماذا ينتهي الحال بيننا وبين بني هلال وانا من رأيي ان تطلق سبيلها فتذهب الى اهلها خوفا من القيل والقال .

فقال الصلصيل : هذا لا يكون وانا مرادي السهر معها وتناشد الاشعار ..

• وكانت مارية حين غنت قد تعرضت (للصلصيل) في غناها ، وهو الذي اسرها فقامت اخت الملك خرمند ولطمت مارية فادمتها .. فلما شاهد ابو زيد ما جرى كاد يدخل على الجماعة بسيفه لولا وجود الحديد على النوافذ والمداخل ، ولكن النعمان تدخل حالا ، وسحب سيفه وهدد من يسيء الى مارية ، فخشي (خرمند) عواقب هذا الخلاف ، وهم في حالة الحرب مع بني هلال ، وطلب من النعمان ان يحفظ مارية في بيته ريثما يفرغوا من العرب ... ومضى يقول :

ومتى ظفرنا بهؤلاء العرب فحينئذ نبلغ منها الارب ، فاخذها النعمان من يدها وقال لها : انهضي ايتها الاميرة الى بيتي، فنهضت وسارت معه من بين الاعجام ، ولم يعترض احد منهم ، فلما شاهد ابو زيد افعالالنعمان شكره في قلبه على ذلك الشأن وقال : والله ان هذا الرجل يستحق كل جميل .

ثم نزل من اعلى الشجرة وتبع آثار النعمان حتى وصل الى منزله وهو من وراه فسمعه يقول لابنته خذي هذه الاميرة وافرشي لها في غرفتك فانها من بيت شريف .

فرحبت بها واخذتها الى عندها ثم رجع النعمان ليصرف باقي ليلته عند الاعاجم ورجع ابو زيد لبني هلال وعند وصوله الى الخيام سمع اصوات البكاء والصياح والعويل والنواح لانهم كانوا يظنون انه مات فلما

دخل على الامير حسن وهو في الصيوان سلم عليه فنهض على قدميه وشكر الله على سلامته وكذلك فعل باقي الساداتوسأله القاضي بدير عن المارية ابنته وهل وقف على اخبارها في اثناء غيابه فقص عليه ما شاهد وسمع..

وكتب الامير حسن الى الخرمند لاعادة مارية والا فالحرب والقتل الذريع .. ولما وصل الكتاب للملك الخرمند وفتحه وقرأه وعرف معناه مزقه في الحال واغتاظ من هذا الامر وامر الجنود ان تستعد للقتال وخرج بجيوش الاعجام لقتال بني هلال ... فلما وصلهم هذا الخبر استعدوا للحرب والطعن والضرب وفي اوائلهم الامير ابو زيد والامير دياب وغيرهم من الفرسان والسادات الكرام والتقوا بالاعجام بقلوب كالجبال وقاتلوا اشد قتال ، وفعل الامير ابو زيد فعالا تشيب لها الاطفال وكان يطعن الاعداء من اليمين والشمال ولله در الامير دياب فانه قاتل في ذلك اليوم قتالا شديدا والقى نفسه على الهلاك حتى فرق الصفوف وطعن فيهم طعن اللحم وهو ينخي الابطال ويقول دونكم وهؤلاء الانذال وما زال يشق صفوف الاعجام حتى وصل الى الملك القمقام وهو تحت البيارق والاعلام وضربه بالسيف على عاتقه فخرج يلمع من علائقه، ثم مال على القوم وباقي الامراء والنواب وغلبهم بضرب السيف وقتل منهم عدة رجال فلما رات العساكر والاعجام تلك الاحوال هاجت من اليمين والشمال وارتدوا راجعين الى الوراء وانقلبوا منهزمين في تلك الصحراء وقطع دياب رأس القمقام وعلقه على رأس السنان وحمله الى عند الامير حسن وباقي السادات ورجعت بنو هلال ذلك النهار بالعز والانتصار وباتوا في فرح واستبشار .

***

ولما اصبح الصباح واشرق بنوره ولاح دقت طبول الحرب وتقدم الفرسان الى مقام الطعن والضرب وكان اول من برز الى القتال من ابطال بني هلال ابو زيد الفارس العظيم فصال وجال في ساحة المجال ، فبرز من الاعجام الملك المنذر فالتقاه ابو زيد وانطبق على المنذر بسرعة فلم تمض ساعة حتى ضربه ابو زيد بالسيف على هامته فقطعه نصفين والقاه على وجه الارض قطعتين فوقع على الارض يختبط بعضه ببعض ، فلما رات الاعجام تلك الحال ضجت الفرسان والابطال وبرز لابي زيد على الاثر اخوه الامير بندر ليأخذ ثأر اخيه فالتقاه ابو زيد بقلب كالحديد ثم هجم عليه وضربه بالسيف فالحقه باخيه فلما وقع وانقلب هجمت الاعجام من شدة الغيظ والغضب فالتقتها بنو هلال واحكمت فيها السيوف والنصول وقتلت منها

اكثر من عشرة آلاف من صناديد الابطال فانهزمت وارتدت .

وفي اليوم التالي دقت الاعجام طبولهـا وركبت خيولها وبرزت الى القتال وهي تهدر كالجمال طالبة اخذ الثأر وكشف العار فالتقتها بنو هلال وكان اول من برز الى الميدان الامير ابو زيد فبرز اليه المغل بن ولدل ..

فلما التقيا في ساحة الميدان اخذا يتضاربان ويتطاعنان، وكان المغل المذكور من افرس الفرسان فقاتل ابو زيد اشد قتال وما زالا علـى تلك الحال حتى تحيرت من قتالهما جميع الابطال واختلف من الاثنين ضربتين وكان السـابق ابو زيد فمال عنها المغل فراحت خائبة بعدما كانت صايبة ، واما ضربة المغل فاستلقاها ابو زيد في الترس فقطعته نصفين ونزلت على رقبةالجواد فابرتها كما يبري الكاتب القلم، فوقعابو زيد علىالارض فاراد المغل ان يكمل عليه فبادر الامير دياب اليه وخلصه في اسرع من لمح العين لانه كان يراقب قتال الاثنين واشار ابو زيد الى عبده ابو القمصان ... وفي الحال اتوه بجواد جديـد ركبه وهجم هو ودياب على صفـــوف الاعجام وتبعهم باقي ابطال بني هلال وضربوهم من اليمين والشمال وكانت ساعة مهولة قتل فيها خلايق كثيرة ، وكان من جملة المقتولين المغل وغيره من سادات العجم والمقدمين وانهزمت العجم في ذلك اليوم اقبح هزيمـة وقتل منهم مقتلة عظيمة ورجعت بنو هلال بقلوب كالجبال ،

وفجأة برز من عساكر العجم الملك الصلصيل وهو راكب على جواد مثل الفيل وطلب قتال بنو هلال ولما صار في ساحة النزال برز له الامير دياب وهو راكب على فرسه الخضراء ، فالتقـاه الصلصيل واشتد بـين الفارسين القتال وعظمت الاهوال وما زالا على تلك الحال الى وقت الظهر وكان الصلصيل قد اعتراه التعب واسترخت منه المفاصل والركب فأيقن بالهلاك والعطب ، فولى وطلب لنفسه الهرب فلما رأت عساكر العجم ان سيدها قد انهزم خافت من العواقب وحلول النوائب فارتدت الى الوزراء حتى وصلت الى الخلة فدخلت اليها واغلقت الابواب ولما كان الليل جمع الملك خرمند الملوك وقواد الخيل وقال لهم مرادي ان اخرج في ثاني الايام الى قتال بني هلال فاريد ان تشجعوا انفسكم وتقاتلوا والا انهتكت امورنا وصرنا معيرة وفضيحة عند ملوك الزمان ، فوعدوه بانهم سيبذلون غاية المجهود ويقاتلون معه قتال الاسود ...

ولما اصبح الصباح واشرق بنوره ولاح ركب الملك خرمند في جميع الجند وخرج من المدينة يريد القتال فالتقاه في الحال جمع من الفرسان

والابطال من بني هلال .. ولما تقاتل الجمعان برز ابو زيد الى حومة الميدان فاطبق الخرمند عليه واخذ في حربه وصدامه فالتقاه ابو زيد بقلب كالجبل فتطاعنا بالرماح وتضاربا بالسيوف وما زال على تلك الحال من الصباح الى وقت الزوال ولم يقدر احد على خصمه .. فافترقا وبات كل فريق في ناحية من الارض .

***

كان حاكم بلاد التركمان في ذلك الزمان رجل عظيم الشأن اسمه الغطريف ويلقب بالغضبان وله عدة وزراء واعوان ومن جملتهم الوزير والنعمان وهو عنده من اعظم الرجال لانه صاحب معرفة وتدبير وفي امور السياسة عليهم خبير وله ابن اخت وكان ولي عهده ونائبه على التخت (تمر الجارح) وكان فارسا عظيما وكان الملك الغضبان يركن اليه ويعتمده ولما وصلت جموع بني هلال وخيمت في تلك الارض وبلغ الغضبان هذا الخبر تطير من عينه الشرر فاجتمع الى وزرائه وباقي الاعوان وعقد معهم مجلسا ... فقال له الوزير النعمان : الرأي عندي ان ترسل لملكهم بعض الابطال تطلب منه المال فان اجاب الطلب بلغنا القصد وان ابى وامتنع ركبنا عليه بكل فارس صميدع فننهب اموالهم ونسبي حريمهم وعيالهم ونقتل شبانهم ورجالهم ...

فاستحسن الغضبان هذا الرأي وفي الحال استدعى بعض رجاله، وكتب كتابا الى الامير حسن امير بني هلال ليرسل الى الضريبة التي قررها ..

ذهب الرسول بالرسالة وما زال يقطع الارض وينتقل من قفر الى واد ، حتى وصل الى حيث كان بنو هلال ينزلون فنزل عن ظهر جواده ، ودخل على الامير حسن من ساعته فسلم عليه وقبل يديه ثم ناوله الكتاب ووقف مع الحجاب ينتظر الجواب ... فلما فتحه وقراه واطلع على ما حواه انشغل باله وتغيرت احواله فقال له ابو زيد :

ــ ما لك يا امير حسن فاني اراك في غم وتكدير .

فناوله الكتاب ليقراه فلما قرأ الكتاب وفهم ما تضمنه في الخطاب ابدى الضحك والابتسام من ذلك التهديد والكلام وقال: انا ارد الجواب. ثم التفت للعبد وقال : قل لسيدك ان سيوفنا سوف تفصل بيننا ..

فلما وصل الجواب الى الغضبان زاد حزنه وبلاه واغتاظ الغيظ الشديد من ذلك الكلام القاسي وامر ابن اخته وزيره نمر الجرح وابن عمه

الملك النعمان ان يجمعا العساكر والابطال لمحاربة بني هلال فأجاباه بالسمع والطاعة . ودقت طبول الحروب من تلك الساعة فاجتمعت الفرسان من كل جهة ومكان وكانوا نحو مائة الف بطل فركبوا بالعجل وهم معتقلون بالسلاح وفي ايديهم الرماح وركب نمر الجارح الاسد الكاسر في مقدمة العساكر وجدّوا بالمسير كالطيور التي تطير قاصدين بني هلال حتى اقتربوا اليهم ...

فلما علم بنو هلال بقدومهم عليهم استعدوا لحربهم ونزولهم فدقوا طبولهم بالعجل فاجتمع كل فارس وبطل ودخلوا على اميرهم حسن بن سرحان وهو جالس في الديوان واعلموه بما جرى فأمرهم ان يسيروا لقتال عساكر الغضبان فركب الشبان وفي مقدمتهم الامير ابو زيد وساروا مدة ثلاثة ايام وثلاث ليال حتى التقت العساكر بعضها ببعض ... وهجم بنو هلال بقلوب كالصوان ، وانقضوا على عساكر الغضبان ككواسر العقبان واحاطوا بهم من اليمين والشمال ... وكانت وقعة تشيب لها الاطفال وتذعر قلوب الفرسان كثر فيها القتل والجراح وجرى الدم وساح . وفعل ابو زيد في ذلك النهار فعالا تذكر مدى الدهر ، وكذلك فعل الامير دياب وباقي الفرسان الانجاب ، فانهم ثبتوا وقاتلوا وما قصروا واستمر القتال على هذا المنوال الى ان صار وقت العصر وكان الامير دياب قد التقى بالامير نمر الجارح وزير الغضبان وهو ينخي رجاله فتقدم دياب يريد قتاله فصدمه نمر في الحال واشتد بينهما القتال في الميدان نحو ساعة من الزمن وكان نمر قد طعن خصمه بالسنان وقال : خذها من يد فارس الفرسان ففطس دياب تحت بطن الخضرا فراحت الضربة خائبة بعد ما كانت صائبة ثم ضربه بالدبوس الحديد فخاب امله ولم يستفد ...

وهجم دياب على خصمه هجوم القضاء المنزل وضربه بالدبوس على الخوذة فتألم وصار في حالة العدم فارتد راجعا الى الوراء وندم على ما جرى وفي الحال هجم ابطال بني هلال على الاعداء من اليمين والشمال واذاقوهم الاهوال وقتلوا منهم كثيرا وربحوا غنائم جسيمة .. وكان النهار قد مضى وزال واقبل الليل بالانسدال فانفصلت العساكر عن بعضها البعض ونزلت كل طائفة ناحية من الارض .

ورجع الامير دياب من ساحة الميدان وقد امتلأت ثيابه بالدماء ودخل على الامير حسن في الصيوان وهو مسرور فرحان فالتقاه بالبشاشة والاكرام ولاطفه بالكلام وقال له : كيف وجدت خصمك نمر الجارح ؟

فأجاب: من الجحاجح ولكنني نهار غد سوف اقصر عمره وأكفيك شره . فشكره على ذلك المقال وباتوا على احسن حال . هذا ما كان من بني هلال ...

وأما ما كان من عساكر الغضبان فانهم لما رجعوا من ساحة الميدان وهم في قلق واضطراب من قتال ابو زيد والامير دياب ، وكان نمر قد جمع الامراء ومن يعتمد عليهم من السادات والكبراء وأخذ يستشيرهم في امر الحرب والطعان فقالوا له :

ـ اعلم يا سيد الفرسان انه من الصواب ان ترسل الان وتعلم خالك الملك الغضبان بما جرى وكان وتطلب منه نجدة والا وقعنا في الشدة...

فاستصوب رأيهم وفي الحال كتب الى خاله يعلمه بواقعة احواله ويطلب منه المعونة .

فلما وصل الكتاب الى الغضبان اشتد غضبه على بني هلال ، واقسم ليمحونهم من الوجود وامر جنوده بالمسير للحرب والقتال ..

***

هذا ما كان من هؤلاء وأما ما كان من نمر الجارح فانه بعد ارسال الرسالة ركب في اليوم التالي بجميع فرسانه وابطاله وتقدم نحو بني هلال قاصدا الحرب .. فتقابل الفريقان في ساحة الميدان وتقدم الامير نمر الى ساحة الطعان وطلب براز الفرسان فالتقاه الامير دياب وهجم عليه هجوم ليث الغاب وحالا اشتبكا بالحرب وأخذا في الطعن والضرب حتى غطاهما الغبار وحجبهما عن اعين النظار فللّه درهما من بطلين وفارسين عظيمين وما زالا على ذلك الى ان قرب الليل فكان دياب أشجع من نمر واقدر وأعلم منه بمواقع الطعن ، وأخبر فطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره فوقع على الارض قتيلا فذعر جنوده وأيقنوا بالهلاك والدمار وطلبوا الهزيمة والفرار وتبعهم جموع بني هلال .

فلما نظرت عساكر الغضبان ما جرى وكيف زادت عليهم المصائب والبليات وحكم بنو هلال فيهم السيوف والنصال وقتلوا منهم عددا كثيرا واغتنموا اموالا لا تعد . اسرعوا الى الفلا هاربين واذا بغبار قد ظهر عليهم من جوانب القفار ومن خلفه جيوش وعساكر كثيرة فلما اقتربوا منهم وتأملوها بالعيان واذا هم بعساكر الغضبان وكانوا قد حضروا من الاوطان لمعونة نمر كما شرحنا قبلا.. فلما رات العساكر المنهزمة ملكها

الغضبان وهو في المقدمة تقدموا اليه وقبّلوا يديه واعلموه بما حل فيهم من المصائب وكيف ان بني هلال قتلت نمر الجارح .

فلما سمع الملك الغضبان منهم هذا الكلام خرج عن دائرة الصواب فشخر ونخر وطغى وتجبر وقال : وحق ديني ومعبودي لا بد من قتل جميع بني هلال وأسر الحريم والعيال ثم انه جدّ في قطع القفار وقلبه يتوقد نارا من جراء هذه الاخبار ، ومقتل نمر الاسد الكرار لانه كان يحبه اكثر من الغير ويتمنى له كل نجاح وخير وما زال يجدّ السير حتى التقى بالقوم في ثالث يوم فأمر الفرسان بالهجوم فهجمت في الحال والتقتها بنو هلال بقلوب قوية وهجمت عليهم وفي مقدمتها السادات والاعيان والامير حسن بن سرحان واشتبك الطعان بين الفرسان والتقى الضرغام بالامير حسن وهو ينخي العساكر فالتقاه الامير بقلب اقوى من الصوان وأخذا يتضاربان نحو ساعة من الزمان وكان الامير حسن قد طعن الضرغام لعله يسقيه كأس الحمام فراحت الضربة خائبة . ثم استقل الضرغام على ظهر حصانه وطعن الامير حسن بقوة جنانه فالتقاه بترس البولاد فانكسر ووقع وراح اربع قطع ، وما زالا في عراك وصدام الى وقت المساء فعند ذلك دقت طبول الانفصال ورجعت العساكر من ساحة القتال ...

***

ولما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح ركبت الفرسان ظهور الخيل واعتقلت بالسيوف والنصول وتقدمت الى ساحة الميدان للبراز والطعان فتقدم الامير ضرغام وطلب البراز والصدام فبرز اليه الامير عقل وكان صاحب ادب وفضل ، وهجم الضرغام بقلب شديد فالتقاه عقل بقوة وأخذا في الحرب وما زالا على ذلك نحو اربع ساعات من النهار ، وكان الامير عقل قد استظهر على خصمه وهجم عليه وطعنه بالرمح في صدره فخرج يلمع من ظهره فوقع الضرغام قتيلا وفي دماه جزيلا .

فلما نظر الغضبان لما جرى استعظم الامر وهجم على عقل وفاجأه وطعنه بالرمح يريد قتله فحاد عقل فراحت الضربة خائبة وما زالا في اشد قتال الى ان قرب الزوال فرجعت بنو هلال في السرور والافراح وعساكر الغضبان بالهم والاتراح وأخذوا جثة الضرغام واقاموا عليها النواح وكسروا السيوف والرماح ثم كفنوه وبعد ذلك دفنوه. ولما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح ركبت بني هلال للحرب والكفاح وشهرت في

يديها السلاح فالتقتها عساكر الغضبان في ساحة الميدان وطلب الغضبان براز الفرسان ونادى : اين الشجعان ابن جبابرة الضرب والطعان .. فما اتم كلامه حتى صار الامير دياب امامه وصدمه صدمة تزعزع الجبال وترتعد منها قلوب الفرسان فالتقاه الغضبان وضربه بالسيف فالتقاه دياب بدرقة البولاد فانكسر السيف، ثم ان الامير دياب طعن الغضبان فهجم هذا على الامير دياب هجوم الصناديد ، ودياب يتوعده بالقصيد والشعر ..

فلما فرغ الامير دياب من كلامه التقى الفارسـان كأنهما جبلان او أسدان كاسران وتضاربا وتطاعنا بالرماح واشتد بينهما الحـرب والكفاح وتمايلا في ساحة الميدان وتعلمت منهما الفرسان حقيقة الضرب والطعان وما زالا في حرب وقتال تشيب رؤوس الاطفال الى ان اختلف بين الاثنين ضربتين قاطعتين وكان السابق الملك الغضبان وقال له : خذها من يـد فارس الميدان وليث المعارك والطعان ، فغطس دياب تحت بطن الخضرا فراحت الضربة خائبة. ثم طعنه دياب بالرمح من قلب ملآن فراحت الضربة خائبة . وما زالا على ذلك وهما في اشد حرب الى المساء ... فدقت طبول الانفصال فرجعت الفرسان من ساحة الميدان وباتا يتحارسان تحت مشيئة الرحمن .

وعند الصباح برز الغضبان الى ساحة الكفاح وطلب براز الفرسان فبرز اليه ابو زيد ليث الميدان واقتتلا طول النهار ، وفعلا افعالا تذهل الابصار ثم افترقا على سلام الى المضارب والخيام واستمر القتال بـين عساكر الغضبان وبني هلا ستة عشر يوما على التمام .

وكان قد قتل من عسكر الغضبان عشرون الف فارس ومن بني هلال خمسة آلاف ، وفي اليوم السابع عشر استعدوا للقتال فدقت طبـول الحرب وبرزت الفرسان للطعن والضرب ، وكان اول من برز الى الميدان الملك الغضبان وقال : هل من مبارز هل من مناجز فلا يبرز لي كسلان ولا عاجز ، اليوم يوم الهزاهز .

فما أتم كلامه حتى صار الامير ابو زيد قدامه فالتقاه الغضبان بقلب شديد وأخذ معه في عراك وصدام وجرى بينهما في ذلك النهار قتال يذهل كل صنديد وكان الغضبان من اشد الفرسان واقدرهم في ساحة الميدان يعد نفسه في ساعة الطراد من طبقة عنتر بن شداد فلما رأى ابو زيد قوة حربة تأخر من قدامه فصاح الغضبان على الفرسان بالهجوم على بني هلال فهجموا فالتقتهم بنو هلال واشتبك القتال فما كنت ترى الا رؤوسـا

طائرة وفرسانا غائرة ودماء فائرة .

وكان بنو هلال قد قصروا في القتال وانكسروا اشد انكسار وانسدت في وجوههم ابواب الانهيار وأيقنوا بالهلاك والدمار فتأخروا ثلاثة ايام الى الوراء وعساكر الغضبان تتبعهم في تلك الصحراء . وفي اليوم الرابع اجتمع ابو زيد وسادات بني هلال وقال لهم : قد سلبت اموالنا وفقدت ابطالنا ورجالنا فما هو رأيكم ايها الاعيان في قتل الملك الغضبان ؟

فقالوا : الراي هو عندك يا امير فما فينا من خالفك حتى ولا الامير حسن . فقال : الراي عندي ان نقسم بني هلال الى اربعة اقسام ونهجم على الاعداء من اربع جهات ونسد عليهم جميع الطرقات وتكون (الجازية) في اول العماريات مع باقي النساء والبنات ، واهجم انا من جهة الشمال والامير زيدان والامير حسن والقاضي بدير من جهة الجنوب بباقي الابطال ونقاتلهم اشد قتال والا حل بنا الوبال ، فاستصوبوا هذا الكلام لانهم رأوه عين الصواب .

***

ولما اصبح الصباح ركبت الفرسان للحرب والكفاح وانقسم بنو هلال اربع فرق واعتقلوا بالسلاح وهجموا على عساكر الغضبان كليوث الغاب وكان السابق الامير دياب فصاح وزعق على الفرسان وانطبق، وحكم سيفه في الهامات والصدور وتبعه اخوه زيدان بكل فارس مشهور وحملوا على الفرسان بقلوب اقوى من الصوان وجندلوا الابطال في ساحة الميدان ، ولما رأى الغضبان ما حل بقومه من الهوان استعظم ذلك الشأن فجعل ينخي الابطال وتقدم هو بنفسه وقد هانت عليه المنية في بلوغ الآمال وضرب فيهم بالحسام وتبعه الفرسان من خلف وقدام وازدحم الميدان وثبت الشجاع وفر الجبان وقطرت الدماء وحجب الغبار وجه السماء .

بينما هم على ذلك واذا بغبار قد ظهر وبان من تحته جيوش وعساكر وامام الجميع الامير حسن بن سرحان وهو راكب ببني دريد وأبو زيد ببني زحلان والقاضي بدير بباقي الرجال والشجعان ومن حوله السادات بالبيارق والرايات . ولما اقتربوا الى الميدان هجموا على عساكر الغضبان من كل جهة ومكان واشتد قلب هياب بقدوم القوم وأمل بالنصر في ذلك

اليوم فقاتل اشد قتال ، وهكذا فعل بنو هلال هذا وقد التفت الرجال وجرى الدم وسال ، وكان يوما شديدا لم يسمع مثله في سالف الاجيال فلله در بني هلال فانها ثبتت ثبوت الاسد ، وكان الملك الغضبان قد برز الى الامير دياب وهو غائب من الصواب وكان دياب يدور حوله مثل الدولاب وهو ثابت على الحرب والجلاد كأنه طود من الاطواد ، فعند ذلك تقدم الامير حسن والامير ابو زيد والامير زيدان وهجموا هجمة رجل واحد على الغضبان وأحاطوا به من جميع الجهات ونزلوا عليه بضربات قاطعات تهد الجبال الراسيات وبهذه الفعال هان على دياب القتال فقدم السنان وهجم على الملك الغضبان كأنه قضاء الرحمن وقال له : خذ هذه الطعنة من يد الامير دياب ..

وطعنه بالرمح في صدره فخرج يلمع من ظهره فوقع على الارض قتيلا فلما رآه الرجال استبشروا بالسعد والاقبال ... وقالوا : لله درك من فارس فتاك فلا شلت يداك و لاشمت بك اعداؤك ، وقد تهللت النساء والبنات واظهروا الافراح والمسرات ... وصاحت الجازية مع البنات والنساء:لاعدمناك يا فارس الخضرا فقد خلصتنا هذا النهار واكتسبت بفعالك الشرف والفخار ... ثم انحط على الابطال ففرقها مع اليمين والشمال وتبعه بنو زغبي والشجعان وبنو زحلان وهجموا على عساكر الملك الغضبان بقلب اقوى من الصوان وكانت العساكر لما رات ملكها الغضبان قد مات وحلت بها الآفات ، ضعفت عزيمتها وقلت همتها وايقنت بالهلاك والبوار فولوا الادبار وتنادوا للهزيمة والفرار ، فتبعهم فرسان بني هلال وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وكسبوا غنائم ذات قدر وقيمة وكانوا قد تبعوهم الى البلد وحكموا في أجسامهم الصارم المهند فنهبوا الاموال وسبوا الحريم والعيال وبعد ذلك رجعوا الى الخيام وقد بلغوا المرام وزالت عنهم الاوهام ثم انه حضر بن الملك الهضام وكان اسمه عبد المدان الى عند الامير حسن بن سرحان وبمعيته الاكابر والاعيان وطلبوا منه الامان فاجابهم الى ذلك وعاملهم باللطف والاحسان وخلع عليهم الخلع الحسان وبعد ذلك ولوا بالامير عبد المدان حاكما على تلك الاوطان مكان ابيه وقام بنو هلال في الاوطان خمسة ايام على التمام وفي اليوم السادس دقت طبول الارتحال فركبت الفرسان والابطال والنساء وصاروا يقطعون الآفاق نحو الفرات حتى وصلوا الى بلاد العراق ...

- ٥ -

معارك وحروب في طريق بني هلال

كان على قبائل بني هلال ان تمضي في سبيلها .. الى حيث تستقر في الارض المخضوضرة .. وحول الانهار الجارية ..

وكان عليهم ان يحاربوا من يجدونه في طريقهم من الامراء والملـوك الذين كانوا يسألونهم دفع الرسوم المقررة كلما دخلوا بلدا او اقبلوا على ارض جديدة ..

كذلك كان حالهم في الفصول السابقة ، وهكذا سيكون حالهم في الفصول التي تلي ..

فقد اشرف بنو هلال على ارض العراق ، بعد ان قتلوا الامـير الغضبان وولوا ابنه مكانه ..

وكان في العراق حاكم يدعى الخفاجي عامر ، فبينما هو في ديوانه ذات يوم اذ اقبل عليه الرعيان يقولون :

ـ يا ملك الزمان ، لقد دخل بنو هلال ارضنا وهم كالجراد المنتشر واكلوا ثمارنا ، وقد هربت من امامهم الرعيان، وتركوا النوق والحملان..

فغضب الخفاجي والتفت الى من حوله يسألهم الرأي في هـذه المصيبة الجديدة ، فاشاروا عليه ان يطلب منهم مبلغا من المال ، فوافق الامير على ذلك ، وارسل الى بني هلال يطالبهم بارسال عشر ما عندهم من الاموال والنوق والجمال ..

ذهب بالرسالة الوزير ، فغضب الامير حسن لهذه الضريبة الجديدة تفرض على قومه ، ولكنه امر باكرام الوزير ، وكتب الى الخفاجـي ردا لطيفا يقول فيه انهم لم يكونوا ينتظرون مثل هذا الاستقبال من الحاكم

المعروف بالنبل والكرم ..

وانهم لا يريدون الاستقرار هنا ، وانما هم في طريقهم الى ارض اخرى .. ولهذا فلا موجب للضريبة ، ولا سبب يدعو الى الخلاف والعدوان ..

ولقد صادفت هذه الرسالة اللطيفة هوى في نفس جماعة الخفاجي، فقالوا : انهم في سبيلهم الى غيرنا فلماذا نحاول ازعاجهم .. وقرروا دعوتهم وتناول الطعام معهم .. وسألوا الخفاجي نفسه ان يذهب ويدعوهم الى مائدته ..

ومضى الخفاجي ومعه والده الى مضارب بني هلال ، حيث استقبل استقبالا حسنا ، وحيث ركب بنو هلال مطاياهم ومعهم الخفاجي عامر ودخلوا البلد في فرح وسرور ... وتفرق عرب بني هلال في تلك الاراضي ..

وأما الامير حسن والسادات فبقوا عند الخفاجي عامر على اكل طعام وشرب مدام وفرح وسرور مدة ثلاثة شهور وهم على احسن حال.. حتى اتفق يوما ان الخفاجي اولم وليمة عظيمة دعا اليها الامير حسن وسادات بنو هلال الاكابر وحضرتها النساء والبنات وجميع السادات . وبعد ان اكلوا وشربوا وطربوا ودارت كاسات المدام على من حضر في ذلك المقام، وكانت البنات والنساء الحراير يشربن على اسم الخفاجي الى ان انتهت النوبة على الجازية .. وكانت بديعة الجمال فصيحة المقال فتقدمت الى الخفاجي تصف له محاسن بني هلال وما خصهم الله من اللطف والكمال والظرف والجمال .

فلما فرغت الجازية من هذا الشرح والوصف شكرها الخفاجي على شعرها ونظامها فلما فرغوا من الطعام وشرب المدام نهض الامير حسن على الاقدام وشكر الخفاجي على ذلك الاكرام وقال له في اخر الكلام : وأريد من افضالك ان تشرفني نهار غد بجميع رجالك لتناول الطعام وشرب المدام ... فأجابه الى ذلك ... ووعده بالمسير في اليوم التالي وقد أولم الامير حسن وليمة عظيمة لها قدر وقيمة ذبح فيها الف رأس من الاغنام فكانت من اعظم الولائم لم يسمع مثلها في الاعراب والاعجام حضرها الخفاجي عامر وقومه وسادات العشائر فتلقاه الامير حسن بالترحاب. وبعد ذلك جلسوا على مائدة الطعام ، ودارت بينهم كاسات المدام فطرب الامراء والسادات والبنات بأصوات ورقص المغنيات ولما

فرغوا من الطعام جلسوا للحديث والكلام والحديث شجون ..

***

بعد ثلاثة ايام امر الامير حسن بالرحيل فقال الخفاجي : لا بد من مسيري معكم الى تونس وابذل معكم المجهود في استخلاص مرعي ويحيى ويونس .

فلما سمع ابوه الضرغام منه هذا الكلام لم يهن عليه ذلك ... واشتغل قلبه بلهيب الجمر لانه كان يحبه محبة زائدة وليس له صبر على فراقه ساعة واحدة فرفض الخفاجي وطلب من ابنه وزوجته ان يذهبا معه الى تلك الديار ويتركا الحي فامتنعا عن المسير وبكيا بدمع غزير ... فابكيا الجميع ...

وبعد ذلك حضر جميع الولاة وسادات العشائر لوداع الخفاجي عامر فودعوه بالبكاء والنواح ودعوا له بالتوفيق والنجاح .

وبعد هذا الحديث والكلام بثلاثة ايام امر الامير حسن بدق طبل الحرب والاستعداد والسفر من تلك البلاد ... فعند ذلك هدت المضارب وركب الفرسان ظهور الجياد واعتقلوا بالسيوف والنصول ، وقد ملأوا بكثرتهم تلك السهول .. وركبت النساء والبنات في الهوادج قاصدين بلاد المغرب وتلك الجهات وأمام الجميع زوجة الخفاجي وابنته والجازية ونساء الامراء والسادات وكان الخفاجي منشرح الصدر راضيا من هذه الرحلة ...

لما قتل بنو هلال ملوك العجم كان (الخرمند) صهر التمرلنك حاكم بلاد الموصل ، فلما قتل الخرمند ارسلت زهرة لابيها كتابا وأعلمته بقتل زوجها.. فلما سمع التمرلنك ذلك الكلام صار الضياء فيوجهه ظلاما.. وغضب غضبا شديدا ولبس كل شيء احمر ... وطلع الى الديوان وهو غاضب حزين وكان له وزير من جملة وزرائه اسمه اسكندر فلما تكامل الديوان سأل الملم عن غضبه ، فأخبره بجلية الخبر وما كان من قتل خرمند وما كان من بني هلال بالتمام والكمال .

فلما انتهى الملك من كلامه والوزير والقوم يسمعونه ... قام من بين الوزراء وزير وقال له : يا ملك الزمان ارسل للبلاد واجمع العساكر ودعنا نلاقي بنو هلال . فأمره التمرلنك ان يأخذ معه مائتي الف مقاتل وقال

له : سر بالعساكر واحفظوا حالكم وكونوا رجالا .

فسار الوزير اسكندر بالعساكر الى ان بلغ مكانا يقال له القصر فوجد فيه تجارا آتين من بلاد العجم فسألهم من اين اتيتم والى ايـن متجهين ؟ فقالوا : من بلاد العجم الى هذا المكان ... فاستدعى كبير التجار وكان اسمه كمال الدين وقال له : ماذا سمعت لنا عن بنو هلال فأخذ يصفهم له .

فلما فرغ من كلامه قال الوزير : الرأي عندنا ارسال مائتي فارس الى بلاد الزهار يكشفون لنا الخبر ونحن نبقى هنا حتى يأتي الملك ، واذا قال لنا لماذا لم تذهبوا .. نخبره بانه اتانا علم بان بنو هلال قادمون الى البلاد ونحن أرسلنا لهم روادا يكشفون لنا خبرهم وبقينا ننتظرهم ... فقال الجميع : هذا هو الرأي الصواب اما التمرلنك فانه بعث الكتب الى جميع البلاد بجمع العساكر وضبط عددهم وجابوا معهم المدافع واحضر ابن اخته شروان وقال له احكم موضعي حتى احضر لكوطفا بنت دياب.. فقال له : على الرأس والعين .

ثم انه سار بالعسكر والجيوش يقطع البراري والقفار والسهول والاوغار حتى وصلوا الى بلاد الفرس التي نزل فيها الوزير اسكندر ولما وصل الملك لملاقاة الوزير وسلم عليه سأله : لماذا لم تلحق ببني هلال ، فحكى له ما صار معه فعند ذلك غضب الملك غضبا شديدا وزاد فيه الهم والتنكيد وأمر بقتله فتشفع فيه ملوك العجم فصفح عنه ...

***

واما الامير حسن فقد رأى مناما هائلا فاستدعى ابو زيد والقاضي لتفسيره ، ففسراه بان امام بني هلال مصاعب ومتاعب كثيرة ، وحذر ابو زيد الجميع من الغدر وان يكونوا دائما على حذر واستعداد ...

وتابع ابو زيد كلامه قائلا :

ـ خذ من قومك الف مقاتل .. ومن بني زغبي الف مقاتل ، ومن عرب القاضي مثل ذلك ومن جماعة الامير حسن الف مقاتل ، ومن بني هلال اثني عشر الف ايضا ، وسلمهم الظعن .. واقسمهم الى اربع فرق كل فرقة مؤلفة من اربعة آلاف ففعل دياب ذلك ، ثم اجتمعوا عند الامير حسن وقرروا ارسال كتاب الى التمرلنك يقولون فيه انهم لا يريدون حربه

ولا قتاله ، وانهم انما يمرون في ارضه في سبيلهم الى ارض اخرى ..

ولكن التمرلنك كان قد قرر التعدي والعدوان ، فرد على بني هلال طالبا عشر اموالهم وعشر بناتهم ونسائهم ايضا ...

وكان عند التمرلنك عبد اسمه الماس شديد البأس صعب المراس فقال له :

ـ يا الماس خذ هذا الكتاب الى حسن ابن سرحان امير العربان وقل له يرسل نصف مال بني هلال فأخذ العبد الكتاب وسار حتى وصل الى عند الامير حسن ودخل عليه وقبل يديه واعطاه الكتاب فأخذه وقرأه وعرف رموزه ومعناه فغضب غضبا شديدا وقال الى قومه : كيف يكون الرأي عندكم يا امارة فتقدم الامير ابو زيد واخذ الكتاب وقرأه ورماه في الأرض وأشار يقول :

يقول ابو زيد الهلالي سلامة	لي دمع جرى فوق الخدود سكيبا
من اجل كلامي فاضت مدامعي	وعدت اقاسي من كلامه نحيبا
ارسل يريد المال منا غصيبة	جموع هلال سوف تأتيه قريبا

وكان جواب ابي زيد الرد والحرب .

فلما فرغ ابو زيد من كلامه طوى الكتاب وختمه واعطاه الى العبد فأخذه وسار حتى وصل الى عند التمرلنك ودخل عليه وقبل يديه وأعطاه الكتاب فأخذه وقرأه وعرف رموزه ومعناه وغضب غضبا شديدا وزاد به الغم والنكد ، ثم استدعى الوزير اسكندر وقال : كيف اعمل بالعربان ما لم يعطونا طلبنا فهم وحيات رأسي لاحصدهم حصيدا وأجعلهم بالبراري مشردين ..

قال الوزير : ما هو الجواب يا ملك الزمان ؟

فقرأه عليهم ثم قام الوزير اسكندر وقال : دعني يا ملك الزمان اكتب الجواب الى الامير ابو زيد .

فقال الملك : لا يلزم الجواب وباكر نصلي عليهم نار الحرب ونسقيهم كاس الكرب .

واصبح الصباح ، وركب ابو زيد فرسه وخرج يراقب البر امامه، فشاهد من بعيد جنود العدو يقبلون كالجراد ، فلما وصلوا الى الميدان خرج من العدو وزير يدعى (دخان) طلب ملاقاة فرسان بني هلال ، فخرج

له منهم القاضي بدير ، ونازله وساجله ، فلم يوفق احدهما على الاخر ، حتى تمكن الوزير من جرح جواد القاضي ، فسقط ارضا واراد الوزير الاكمال عليه ، فاسرع الرياشي فرج فاركبه جوادا جديدا ، وعندئذ دقت طبول الانفصال فتوقف القتال .

فلما كان اليوم التالي نزل الوزير دخان الى ساحة المبارزة ، فنزل له الامير دياب وبدات المعركة والتقى الفارسان وحاول دخان ضرب دياب بالسيف فأخذها دياب بترس البولاد فراحت خائبة بعد ما كانت صائبة، ثم ان دياب انحدف على دخان وكان قد علّم الخضرة اذا صاح فيهالفارس وكان من وراه تضربه الخضرة بالجوز فلما انحرف على دخان وأراد ان يضربه، التف دخان من وراء دياب يريد ضربه واذا بالخضرا تضربه بالجوز فترميه هو والجواد على الارض فنزل دياب وشد كتافه واخذه اسيرا يجره من ورائه الى ان وصل لعند الامير حسن فقال : ما هذا يا امـــير دياب فقال : هذا (دخان) الذي قتل جواد خالي القاضي بدير وقتل من بني هلال ستة عشر فارسا .

قال حسن : احسنت ثم ان حسن امر له بخلعة سنية . والتفت الى دخان وقال له :

ــ لا تخف وعليك الامان ان رحت عند التمرلنك مع السلامة ، وان بقيت عندنا حلت البركة .

فقال الوزير : يا ملوك الزمان اذا رحت الى عند التمرلنك ما اعود اقدر انزل اليكم وان نزلت اليكم يقتلني التمرلنك والان انا بقيت واحدا منكم . فقال حسن : حلت البركة عليك . فقال : يا ملك الزمان لي ولد عند التمرلنك .

فقال دياب : ابشر انا آتيك به . فبقـــي دخان عند بني هلال . واما ما كان من جند التمرلنك فانهم ركبوا لما اصبح الصباح وركب بن دخان معهم وكان اسمه سكران فنزل الى الميدان وطلب بـراز الفرسان فنزل اليه دياب وقال له : من انت. فقال : سكران بن الوزير دخان وانت اسرت ابـوي .

قال دياب : سوف الحقك به ...

وبدأت المعركة ، شديدة حارة ، ودياب يبارز خصمه ولا يريد قتله اكراما لابيه ويحاول ما استطاع ان يأسره ولا يؤذيه ..

ولكنه لم يطق صبرا في اليوم التالي فما كاد يبدأ المعركة معه حتى

اشتد عليه ، والقاه ارضا ، ثم نزل اليه وقيده ، واخذه الى ابيه الوزير الذي عظم فرحه به وبعودته سالما له ..

وحدثه باكرام بني هلال له ، فسر (سكران) بذلك وبقي الاب والابن عند بني هلال يعيشان عندهم ..

***

هذا ما كان من الوزير وابنه ، واما الموقف عند العدو فقد كان صعبا قاسيا بعد ان فقدوا الوزير وابنه ..

واما التمرلنك فغضب غضبا شديدا واشتد به الحال ، ولما اصبح الصباح نزل وزير يدعى شاهين للميدان ، فبرز له من بني هلال فارس يدعى (طوى) ما لبث ان تغلب عليه وقتله ، فهجمت الاعاجم على بني هلال للانتقام من مقتل فرسانها .. فثبت لهم بنو هلال ثباتا عظيما وما زالوا في حرب وقتال حتى اقبل الليل وتوقف القتال ..

في صباح اليوم التالي نزل ابو زيد الى الميدان ، فنزل له الوزير اسكندر ، وحاول اكثر من مرة ان يصيبه بضرباته فلم يوفق ، حتى تمكن منه ابو زيد بضربة شديدة من سيفه قطعت رأسه وازهقت انفاسه ..

فلما قتل الوزير حملت العجم على العرب والعرب على العجم وانحطت منهم الهمم ولله در ابو زيد ودياب وباقي الشباب بما فعلوا من الفعال وما فرق بينهم الا الظلام ودقت طبول الانفصال وافترقوا على الحرب والقتال وقد قتل من العجم خلق كثير ، وعاد بنو هلال على خيل شاردة كثيرة للعدو الى الخيال ثم باتوا الى الصباح حين برز لهم التمرلنك نفسه.

فلما راى بنو هلال التمرلنك تعجبوا من همته وكأنه البرج الحصين فقال حسن : يا ابو زيد ماذا تقول في هذا الفارس .

فقال ابو زيد : العلم عند الله انه عفريت من عفاريت سيدنا سليمان ..

فقال حسن: نادوا الوزير دخان فهو يعرفه فنادوه فحضر فسأله حسن:

— يا دخان من يكون هذا الفارس الذي في الميدان .

فقال له : يا ملك الزمان هذا التمرلنك .

فقال حسن : لا احد ينزل اليه لانه جبار عنيد .

فقال دياب : انا انزل اليه وعلى الله الاتكال .

ثم انه نزل الى الميدان وصدم تمرلنك فالتقاه وقال : من تكون من الفرسان . قال : اسمي دياب ولقبي القصاب وقطاع الرقاب .

فلما سمع التمرلنك هذا الكلام صار الضياء في عينيه ظلاما وانطبق عليه والتقى البطلان كأنهما جبلان والتطما كأنهما بحران حتى كلّ منهما الساعدان وتعبت من تحتهما الجياد ولم يزالا على تلك الحال الى المساء ودقت طبول الانفصال ورجعا عن القتال الى ان اصبح الصباح .. ودقت طبول الكفاح فنزل التمرلنك الى الميدان وطلب الفرسان فتقدم اليـــه فارس من بني زغبة فضربه التمرلنك على هامته طيَّر رأسه أمامه .

ثم نزل اليه فارس ثان قتله، وثالث جندله ، ورابع ما امهله، ولم يزل على ذلك حتى قتل منهم سبعة وعشرين فارسا ..

اثناء الليل وبعد وقف القتال جمع الامير حسن انصاره ونوابه ، وأخذ يحدثهم بالموقف، وما يجب عمله للنجاة من هذه الحرب ، وعرض الامير حسن عليهم ان يكتب للتمرلنك يقول له :

ـ نحن في طريقنا الى غير ارضك فلماذا اعتراضك سبيلنا .. انك ان فعلت سوف تكون من النادمين .. ولم يعترض انصاره على كتابـــه الكتاب فأرسله مع رسول ، فلما قرأه التمرلنك زاد به الغضب ، وقطع رأس الرسول ، فعظم الامر على الامير حسن واشتد برجالـــه الحقد ، واعتمدوا طريقة لانهاء المعركة ، بان يرسلوا جمالهم في اول المسيرة وان يدفعوها الىحيث يقف جنود العدو بالرماح فاذا اشتد بها الخوف ورامت الهرب ، فلا مفر لها من ان تدوس من في طريقها من الجنود والخيل ..

ونجحت الحيلة نجاحا عظيما ..

وثار الغبار من زحف الجمال حتـــى عمّ الارجاء وغطى نـــور الشمس ..

وعندئذ هجم الاعراب هجمة الاسود وراحـــوا يطعنون الصدور والكبود ... فلما نظر التمرلنك الى ما صار في قومــه اراد الهرب واذا بالامير صبره بن ابو زيد يعارضه في الطريق ويصيح به : الى اين يا بن الف قرنان .

فالتقاه التمرلنك بقلب كالصخر وتجاولا في الميدان وتكسرت بينهما العيدان ثم هجم التمرلنك على الامير صبره ورماه على الارض فتعلـــق (صبره) في صدره فوقعا فتعدل صبره على خصمه وسحب الخنجـــر وطعن به التمرلنك وشق بطنه ..

واذا الامير حسن يدركه وفي يده السيف ويقطع رأس التمرلنـك فعندها مال العرب على العجم وفتكوا بهم بالسيف فما سلم الا كل طويل

العمر واستولوا على خزائن التمرلنك وغنموا تلك الاموال ... وفرق الامير حسن اكثرها على العربان وأحضر رجال التمرلنك واحضر الوزير دخان وابنه سكران وجعله عليهم ، وقال حسن : كل من خالف كلامه رميت راسه واخمدت انفاسه .

قالوا : حاشا ان نخالف كلامه ... وبعد ان ارتاحوا اياما رحلوا الى ارض حلب .

***

ذهب بنو هلال من بلاد الخفاجي عامر الى حلب وكان حاكم حلب يقال له بدريس وكان صاحب مال وخيل وابطال وكان وصل له خبر بني هلال وكيف احتلوا الارض والبلاد ثم رحلوا عنها وما فعلوا في الملوك الذين حاربوهم وكيف ان الخفاجي عامر اضافهم وسافر معهم ، فلما سمع هذا الكلام جمع اكابر قومه وخابرهم بهذا الشأن وكان عنده وزير يقال له الخزاعي فقال : علامك يا ملك جمعت القوم والفرسان .

فأجابه : اريد ان اخبركم عن بني هلال الذين يقتلون ابطالنا ورجالنا واذا لم نعمل شيئا وقعنا في امر عسير ... فلما سمعوا هذا الكلام عادوا في امرهم متحيرين، عندئذ التفت الوزير الخزاعي وقال: ايها الملك العظيم عندي من الراي ان ترسل لهم رائدا الى ارض الكبيسة يرودها ويعد ما معهم من العساكر والابطال ، ويكشف لنا خبرهم ويعود بالحال حتى نحضر رجالنا لاجل حربهم وقتالهم . فلما سمع منهم هذا الكلام قال :

ــ هذا هو الرأي الحميد . ثم استدعى برجل كان شيطانا مريدا يسمى سابق وقال له : اعلم ان مرادي منك ان تذهب ترود لنا بني هلال وتنظر ما عندهم من الفرسان وترجع لنا بالخبر الشافي .

فقال : سمعا وطاعة .. وركب ناقة ومضى يقطع البراري والقفار حتى اشرق على نجوع بني هلال ، فرآهم بعدد الرمال ، وحار من كثرة ما شاهد من الفرسان ..

وبينما هو في هذه الحال ، شاهده ابو زيد ، وكان قادما من الصيد ، فعرف من يكون وسأله :

ــ اجئت لتدرس حالنا حتى تنقل اخبارنا الى مولاك ..؟

فأجابه : لم يخطىء ظنك .. ولكن من انت ؟

قال : انا ابو زيد ..

قال الجاسوس : لا عجب اذا عرفت سري ، اعطني الامان فأقص

عليك امري ..

فأعطاه ابو زيد الامان، واخذه لخبائه حيث اضافه، واكرمه غاية الاكرام.

ثم قال : قم بنا يا سابق الى عند الامير حسن نواجهك فيه .

فأجاب : اني اخاف ان يقتلني .

فقال : لا تخف بكفالتي .

فقام واخذه معه وسار لعند الامير حسن فدخل ابو زيد وسلّم فردوا عليه السلام ، وقاموا له على الاقدام فجلس عن يمين حسن وجلس سابق الى جانبه فقال له حسن : من ضيفك يا امير ابو زيد ؟

فقال له : من حلب ولكن اسأله عن كل ما تريد. فعندها ناداه حسن فقام سابق واقفا وتقدم اليه وقبّل يديه . فقال له حسن : اهلا وسهلا ومرحبا من اين اتيت والى اين تذهب يا سابق تكلم وعليك الامان .

فقال : يعيش رأسك يا ملك الزمان . وحكى له قصته على التمام ثم اقام عند ابو زيد عدة ايام وبعدها طلب السفر فأذن له وأعطاه الف دينار فسار وما هو مصدق بالنجاة الى ان وصل الى حلب وقصد سيده ووزيره واخبرهما بما شاهده ورآه من عدد القوم وكثرة فرسانهم ..

فلما فرغ سابق من كلامه تغيرت من الملك الاحوال والتفت الى الوزراء والقواد : ما هو رأيكم ايها الاعيان هل نبادرهم بالقتال والطعان ام ندعهم يجوزون بلادنا بالامان .

فقالوا : يا ملك الزمان نحن بين يديك ولا نبخل بارواحنا عليك والذي ترى فيه الصواب افعله .

فقال الملك : ما تقول يا وزير ؟

فقال : ارى ان نصبر حتى يصلوا الينا ونكون قد جمعنا قومنا وابطالنا حتى اذا وقع فيما بيننا القتال قصدناهم على أسنة الرماح لننهب ما لهم ونسبي عيالهم .

فقال الملك : هذا هو الرأي الموافق .

ثم انه بعث الاوامر الى جميع عماله بان يحضروا حالا بالفرسان والابطال وما مضى الا قليل من الايام حتى غصت حلب الشهباء من كثرة العساكر وأزدحام العساكر فسر الملك بهم وامر القواد ان يكونوا دائما متيقظين لقدوم بني هلال ، ومتى حضروا ضيقوا عليهم ولا تخلوهم يتفرقوا عن بعضهم البعض حتى تملكوا الجميع ولا يفلت منهم لا فطيم ولا رضيع .

وأما بنو هلال فانهم لم يزالوا سائرين حتى وصلوا الى مكان بعيد قليلا عن حلب الشهبا وكان كأنه فردوس الجنان وهو بين كاس وعينتاب فنزلوا فيه ، وامتدوا في نواحيه وأكلوا الاشجار والاثمار، وشربوا مياه الانهار فهرب الاهالي والسكان واعلموا الملك بهذا الشأن ، فلما سمع بهذا الخبر تطاير من عينيه الشرر ... وفي الحال امـــر بجمع الفرسان ثم استدعى اليه القواد وفرسان المعارك والطراد وأكابـــر الوزراء والاعوان واستشارهم بهذا الشأن فقالوا له : ارسل اطلب منهم عشر المال والنوق والجمال فان اجابوا الى هذا الطلب كان به وان امتنعوا فبادرهم بالقتال والحرب والنزال فاستصوب الملك هذا المقال وكتب الى بني هلال لارسال العشر من اموالهم اليه ..

ثم طوى الكتاب وختمه بختمه واستدعى بنجاب وقال له : خـــذ هذا الكتاب وسر في الحال وسلمه الى الامير حسن سيد بني هلال .

فأخذه وسار وجدّ في قطع القفار حتى وصل الى نجع بني هلال، ودخل على الامير حسن فتقدم وقبّل يديه وأيادي الامارة الذين حواليه ثم سلمه الكتاب وطلب الجواب ، فلما قرأه وفهم فحواه تغيرت منه الاحوال واعتراه العجب ولكنه اخفى الكمد وأظهر الصبر والجلد ، وأمر بـــان يأخذوا الساعي الى دار الضيافة فأخذوه وبعد ذلك التفت الامير حسن الى سادات الرجال واعلمهم بالقصة وما كتب اليه (بدريس) من التهديد والوعيد ..

فنصح ابو زيد بالحرب ، وأيده الامير دياب وكذلك فعل بقية الامراء والسادات ..

ولما استقر الرأي على ذلك ، كتب الامير حسن جوابه وسلمه الـــى رسول ملك حلب ، الذي اسودّ لما قرأ الجواب واستدعى وزيره الخزاعي فحضر بين يديه فأعلمه بواقعة الحال وأمره بجمع العساكـــر والابطال ، فامتثل امره بالعجل وجمع مائتين الف بطل فركبت الفرسان ظهور الخيل واعتقلوا بالرماح والنصول وركب الخزاعي بهذا الجيش الكثير وركب معه كل سيد وأمير وساروا الى خارج البلد لاستقبال بني هلال قبل وصولهم الى الاطلال .

وأما بنو هلال فانهم كانوا قد استعدوا للقتال واذا بالخزاعي قد برز الى ساحة الميدان وطلب براز الفرسان فبرز اليه الامير دياب وكأنه سبع الغاب فالتقاه الخزاعي بقلب كالحديد وصدمه صدمة الفرسان الصناديد.

وما زالا في كر وفر وطعن كلهيب الجمر من الصباح الى وقت الظهر ، وكان الخزاعي قد ضاقت به الحيل فطعن خصمه وهو على اخر نفس ، فانقلب دياب تحت بطن الفرس فراحت الطعنة خائبة بعد انكانت صائبة.

استوى دياب على ظهر الخضرا وضربخزاعي بالسيف شرار فالتقاه بدرقة البولاد فوقعت على رقبة الجواد فبرتها كما يبرى القلم فوقع الوزير على الارض .. واذا بقومه قد ادركوه ونشلوه من على وجه الارض وخلصوه فلما رأى دياب تلك الاحوال وهجوم الفرسان والابطال من اليمين والشمال صاح في بني زغبة وأمرهم بالهجوم والقتال وما زال وراء العدو فيالطلب حتى اوصلهم الىمدينة حلب فدخلوا المدينة وغلقوا الابواب وهم في حالة عظيمة من الخوف والاضطراب .. وعاد الامير دياب وهو مثل شقيقة الارجوان مما سال عليه من دماء الفرسان .

قصد حسن في الصيوان فدخل وسلم عليه فقبَّله حسن بين عينيه وشكره وخلع عليه اثمن الخلع . وعندئذ اخبره بما جرى له في ذلكاليوم في قتال القوم وقال له في آن الكلام : لا بد للملك بدريس ان يقصدنا في اليوم التالي ويخرج بنفسه الى ميدان القتال فأذيقه الوبال واستخلص منه الغنائم والاموال .

هذا ما كان من بني هلال واما الخزاعي فانه رجع الى حلب وهو في حالة من العناء والكرب ودخل على الملك بدريس وأعلمه بفشله وما جرى عليه وكيف قتلت الرجال وفقدت الاموال وظفر بهم بنو هلال ، فلما سمع منه هذا المقال ذهل وخرج عن اعتداله وبات تلك الليلة على غير هدى وقد صمم ان يخرج في اليوم التالي لقتال العدو .

ولما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح امر بخروج الابطال للحرب فاستعدت في الحال وركب على رأس جنده وخفقت على رأسه الرايات ومن حوله الوزراء والسادات ، وخرج بموكب عظيم. فلما علم بنو هلال بقدوم الملك بدريس للقتال استعدت وركب الامير حسن في الفرسان والابطال ، فاصطفت الصفوف وترتبت المئات والالوف وبرز الملك بدريس الى ساحة الميدان طالبا براز الفرسان وقال : لا يبرز لي سوى الامير حسن بن سرحان لاني ملك فمن قتل خصمه حصل على طلبه وبلغ غاية قصده ومأربه .

فما أتم كلامه حتى صار الامير حسن أمامه وصدمه صدمة تزعزع

الجبال فالتقاه بدريس وقال :

قال الفتى بدريس الهمام الماجد   اسمع كلامي يا حسن يا فايد
لا بد لي من قتل كل رجالكم   في حد سيفي يا امير العلايد
واقتل ابو زيد الامير سلامة   ودياب والقاضي بدير الفايد
قال الملك بدير هذا يومكم   يا من يودع قومه ويعايد

فلما فرغ الملك بدريس من كلامه اجابه الامير حسن على شعره ونظمه يقول :

قال الفتى حسن الهلالي ابو علي   نيران قلبي زايدات وقايد
لا بد من قتلك ونهب اموالك   مع قتل ابطالك وكل معاند
لو ان قومك الف الف ومثلهم   لا بد ان يبقوا الجميع فقايد
قومي انا تسعين الف ومثلها   تسعين في تسعين الف معاضد
افعالهم يا امير هي طعن القنا   فترى الفتى منهن كصخر جامد
فيهم ابو زيد الامير سلامه   ودياب والقاضي بدير الفايد
هل ما رايت دياب فلّ جموعكم   وكسر عسكركم بغير مساعد
واليوم تبقى يا امير مجندلا   وممدا بين الفوارس فاقد

فلما فرغ الامير حسن من كلامه وفهم بدريس فحوى شعره ونظامه زاد حمقه وعظم غيظه فهجم عليه وحمل عليه كأنه قطعة فصلت من جبل فالتقاه الامير حسن في الحال واشتبكا في قتال عنيف وكانا تارة يتقدمان وتارة يتأخران كأنهما اسدان كاسران ، وبحران زاخران وما زالا يتجاولان في ساحة الميدان حتى قصر من تحتهما الجوادان ، وكلت منهما الزندان وتعجب من قتالهما الفرسان وقد اختلف بينهما طعنتان وكان السابق بدريس فراحت خائبة بعد ان كانت صائبة ، فارتد اليه حسن وهجم عليه وضربه بالسيف فاستتر في دوقة البولاد فبرى السيف رقبة الجواد فوقع على المهاد كأنه طود من الاطواد ، فأراد حسن ان يضربه بالسيف ويسقيه كأس الحمام فأدركه قومه في الحال وخطفوه من ساحة القتال وأركبوه على ظهر الجواد ، وفي الحال اشتبك القتال والطراد والتفت الاجناد بالاجناد وتضاربوا بالسيوف الحداد والرماح المداد وتحكمت السيوف في الجماجم والاكباد ، فما كنت ترى في ذلك اليوم المهول الا ضرب السيوف وطعن النصول وهذا مجروح وهذا مقتول .

وما زالوا على تلك الحال وهم في اشد قتال الى وقت الزوال فدقت

طبول الانفصال فرجع بنو هلال الى المضارب والخيام ولاقوا الامير حسن بالترحاب والاكرام ، ودعوا له بطول العمر والدوام فشكرهم على ذلك الاهتمام واما بدريس فانه رجع غاضبا كثير الهموم وقد خاف من العواقب وحلول المصائب وفي الحال كتب الرسائل وأرسلها الى ولاة المدن والقبائل يطلب منهم المساعدة والامداد بارسال المؤونة والسلاح والسيوف والعساكر والاجناد لقتال بني هلال الاوغاد وان يبادروا اليهم بالقتال ويحملوا عليهم من اربع اركان المجال لينهي الحال وتنقضي الاشغال ، وبقي هو داخل البلد بالجند والعدد. فلما وصلت هذه الرسائل والاخبار الى ولاة الاقطار امتثلوا امره في الحال ، وجمعوا الفرسان والابطال وقصدوا بني هلال من حدود البحر الاسود في جمع كبير العدد وكان بنو هلالا يؤملون بالفوز والنجاح ، واذا بالموكب والكتّاب اقبلت عليهم من اليمين والشمال من اربع جهات الميدان وهم كعدد الرمل فهجموا عليهم من الابيات وسبوا النساء والبنات، فعلت الضجات وتكاثرت الصيحات وتضايق بنو هلال اشد الضيق وعدموا السعادة والتوفيق وأيقنوا بالهلاك والدمار .

وقاتلوا في ذلك اليوم قتالا يذهل الابصار والقوا نفوسهم على الاخطار وما زالت الحرب تعمل والدم يبذل ، والرجال تقتل حتى صار وقت الزوال فدقت طبول الانفصال فافترقت العساكر عن بعضها ورجعت الجيوش كل الى ارضها ، وبات بوريس في سرور وانشراح على ذلك الانتصار والنجاح ، وبات بنو هلال في اسوأ حال مما اصابهم من الذل والوبال .

ولما اصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح جمع بدريس اكابر دولته وأرباب دويانه وقال لهم : اعلموا ايها الرجال ان بني هلال قد حل بهم النكال وتضعضعت منهم الاحوال ومرادي الان ان اطلب منهم عشر المال فان ابوا وامتنعوا وما دفعوا فحينئذ نقاتلهم في هذا النهار ونستخلص منهم المال قوة واقتدار ونبليهم بالويل والدمار . فلما سمع الخزاعي وأكابر الديوان هذا الكلام قالوا : افعل ما تريد ايها الملك الهمام فعند ذلك سلمه الكتاب الذي يحمل التهديد والوعيد او الدفع والاستسلام السريع..

وصل الخطاب الى بني هلال قبل الزوال فدخل الرسول على الامير حسن وسلمه الكتاب وطلب منه الجواب. فلما فتحه وقراه وعرف فحواه انشغل باله وعرض الامر على رجاله فنصح ابو زيد بطلب مهلة عشرة ايام يغادرون الارض في اثنائها فلا يستطيع احد اللحاق بهم ..

وافق بدريس على المهلة ، وامر بتحضير المخازن لوضع المال الذي سوف تقدمه بنو هلال اليه ..

واخذ بنو هلال على الاثر يدخلون الى حلب ، ويبيعون اهلها ما حملوه معهم من البضائع والاقمشة التي استولوا عليها في طريقهم .. ولما اقترب اليوم العاشر ، قرر الامير حسن ورجاله الاستعداد للرحيل ، والهرب من حلب ..

وكان الملك بدريس لما لم يشاهد جماعة العرب في حلب في اليوم التاسع ، قد احس بالقلق ، فارسل جاسوسا الى مكانهم يبحث له عن الخبر ، فذهب الجاسوس اليهم وعرف من هنا وهناك انهم يتأهبون للرحيل ، فعاد الى بدريس بالخبر ، فجمع رجاله واخبرهم بما ينوي بنو هلال عمله فنصحه وزيره الخزاعي وقال :

ـ الراي عندي يا ملك الزمان ان اسير بالجنود والكتائب وأكمن لبني هلال في سهل مراقب لانه لا بد لهم من العبور من ذلك المكان ، ثم تدركني انت بباقي الابطال والفرسان وتبادرهم بالحرب والصدام من خلف وأمام ، ونبلغ منهم القصد والمرام .

فاستصوب بدريس هذا الكلام ... وركب الوزير خزاعي بما تيسر من العسكر وقصد السهل المذكور وكمن لبني هلال في تلك السباسب ، وكان الملك بدريس قد كتب الى ولاة المدن والبلدان يطلب منهم ان ينجدوه بالابطال والفرسان فأرسلوا له ما طلب ففرح واستبشر وأمل ببلوغ الوطن ثم دقت الطبول ونفخت الزمور وتقلدت الرجال بالرماح والنصول وعليت الفرسان وعلى ظهور الخيول وساروا بالعساكر والشجعان الى ذلك المكان .

هذا ما كانمن الخزاعي وبدريس وما جرى لهما منالكلام والحديث، واما ما كان من بني هلال فانهم لما اظلم الظلام امر ابو زيد العرب ان تضرم النار امام المضارب والخيام حتى لا يشعر بهم احد من الانام ، وان يركب الحريم والعيال على ظهور الهوادج والجمال ويسيروا امام الابطال ففعلوا كما امر وتجهزوا للسفر وسار الخفاجي عامر بخمسة آلاف من الفرسان الشجعان مع البنات والنسوان خوفا من نكبات الزمان وطوارق الحدثان حتى وصل بالقرب من (سراقب) وتلك السباسب. وعند وصوله الى ذلك المكان ادركه الخزاعي بالابطال والشجعان وهجم عليه من كل جانب ومكان ، فلما شاهد تلك الحال وهجوم العساكر والابطال الى اليمين

والشمال اعترى الخفاجي عامر الذهول وخاف علـــى الحريم والاطفال فحمل هو ومن معه من الابطال والتقوا الاعداء بقلوب كالجبال وفي الحال انتشب القتال وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال. وكان الخفاجي كما تقدم في الكلام من اشد فرسان الصدام فبذل في الحرب غاية المجهود غير ان عساكر الاعداء كانوا اكثر فانصبوا عليه فظفر الخزاعي واستظهر وذلك بعد قتال شديد وهجمات تشيب الطفل الوليد ..

وبينما كان الخفاجي في اشد الاهوال ... وعساكر الاعداء محيطة من اليمين والشمال واذا بفرسان بني هلال قد اقبلت الى ذلك المكان ... وأمامهم الامير ابو زيد وهو راكب على فرسه الحمرا وكان قد بلغه الخبر بما حصل للخفاجي فاسرع في الحال بالفرسان والابطال حتى وصلوا الى المكان وتبعته العساكر والجنود وقاتلوا قتال الاسود وبعد معركة عظيمة ومذبحة جسيمة خلصوا البنات والنسوان من الاسر والهوان ، وما زالوا على تلك الحال وهم يجندلون الفرسان والابطال واذا بغبار يظهر مـــن خلفهم وبعد ساعة انكشف للابصار وبان عن عسكر كبـير يقوده بدريس ملك حلب وقد حضر لقتال بني هلال، وما زال يقطع الروابي والقفار حتى وصل الى ذلك المكان فبادرهم بالقتال من اليمين واليسار. وفي الحـال انتشب القتال وعظمت الاهوال واستمرت الحرب الى وقت الزوال حيث دقت طبول الانفصال فتوقف القتال وعاد كل جند الى خيامه .

- ٦ -

الأمير دياب في الأسر

كان على بني هلال ان تحارب عدوا اكثر منها عددا واكثر سلاحا ..
وكان عليها بعد هذا ان تحارب هذا العدو الغاضب الناقم الذي كان ينتظر عشر اموالهم فلما عملوا على تهريبها ، ضاق صدره ، ولحق بهم وهو ينتوي القضاء عليهم ، والاستيلاء على كل ما يملكون ..
وكان اول من خرج في اليوم التالي لمواجهة بدريس الوزير الخزاعي فبرز له ابو زيد الماكر المحتال كما وصفه ، وانطبق الواحد على الاخر فتمكن الخزاعي من اصابة جواد ابو زيد فقط فوقع ابو زيد ارضا ، فاسرع الامير دياب لملاقاة الخزاعي حتى يعطي زميله فرصة لركوب جواد اخر .. وقد جال الفارسان عدة جولات في الميدان تمكن دياب في آخرها من اصابة الخزاعي بضربة قاضية قضت عليه ، وازهقت نفسه ..
عندئذ هجم جنود العدو على بني هلال وهم ينادون «يا تارات الوزير» فتلقاهم عرب بني هلال بالصمود والثبات وقتلوا منهم عددا كبيرا ، وخسر بنو هلال عددا من رجالهم ، وما زالوا في قتال شديد حتى آذنت الشمس بالمغيب فتوقف القتال ، وعادت كل جماعة الى مضاربها وخيامها ...
ولما اصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح استعد الفرسان للحرب والكفاح ، فدقت الطبول وركب الابطال ظهور الخيول واعتقلوا بالرماح والنصول ، وترتبت الميامن والمياسر واصطف الجنود ، وركب بدريس ظهر الحصان وقلبه يقدح النيران على ما جرى له وكان من الانتكاس والخذلان ، وبرز الى ساحة الميدان وطلب براز الفرسان وقال: من عرفني

فقد اكتفى ومن لا يعرفني فأنا بدريس ملك حلب فابرزوا لي يا امـــراء العرب .

ولم يكد يتم كلامه حتى صار دياب امامه فراح بدريس يتهـــدده بالكلام ويتوعده ..

فرد عليه دياب بالمثل وهجم على الملك بدريس في الميمنة وأبو زيد على الميسرة وكان دياب يدور بالخضرا عليه بضربات قاطعات تهد الجبال الراسيات وكان قد اختلفت بينهما طعنتان قاتلتان ، وكان السابق دياب فطعنه في صدره طعنة خرجت تلمع من ظهره فوقع بدريس على الارض قتيلا ، فلما رأى رجال العدو ما حل بملكهم ايقنوا بهلاكهم وهجموا كليوث الأكام من اليمين واليسار فالتقاهم بنو هلال في الحال واشتبك الفريقان وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال ، وتقطعت الاوصال وتزلزلت الارض بالزلزال من ضجيج الابطال وقعقعة النصال وما زالوا في عراك وقتـــال يشيب الاطفال الى وقت الزوال .. حين تأخرت عساكر بدريس وقصدت مدينة حلب خوفا من الهلاك والعطب فتبعها ابو زيد والابطال والفرسان فلما رأت ما حل بها من الهوان طلبت الامان ... وعندما عرف اهـــل المدينة بما جرى خرج الاكابر والاعيان والتمسوا من ابي زيد ان يعفو عنهم ويعاملهم بالفضل والاحسان فأجابهم الى ذلك الشأن بعد ان استشار الامير حسن وبمقتل بدريس ملك حلب زال عن بني هلال العنا والكرب وطابت لهم الاوقات وحصلوا على الافراح والمسرات .

وكان لبدريس ولد حميد الخصال ممدوح من خير الرجال اسمــه جمال، فلما قتل بدريس وحصل ما حصل خرج الامير جمال في جماعة من الابطال ووقع على الامير حسن سيد بني هلال فأجابه الامير حسن ومال قلبه اليه واشفق عليه فأقامه ملكا مكان ابيه وأمر اهل المدينة ان تطيع اوامره واقام بنو هلال في تلك الارض نحو عشرة ايام في اكل وطعـــام وشرب ومدام وسماع اصوات وانغام . وفي اليوم الحادي عشر تجهزت للرحيل ودق طبل الرجوع تنبيها للجند وفي الحال هدت الخيام وركب فرسان الصدام وسارت النساء والبنات في الهوادج والعماريات ، وركب الامير حسن وباقي السادات ورفعت على رؤوسهم الاعـــلام والرايات ، وجدّوا في قطع البراري والفلوات كأنهم ليوث الغابات ... وقد اشتد ظهرهم وزاد قدرهم وفخرهم بما شيدوا لانفسهم من الشرف والمجد بعد رحيلهم من بلاد نجد وذلك باستظهارهم على الملوك العظام بقوة الحـــرب

والصدام ، وما زالوا يقطعون الروابي والآكام مدة ستة ايام على التمام والكمال حتى وصلوا الى مدينة حماة فنزلوا على نهر العاصي ولم يعترضهم احد لا داني ولا قاصي ، لان اهل البلد كان قد بلغهم ما جرى مع اهل حلب فخافوا العواقب ، واستقبلهم الملك بالاكرام والوقار والاحترام وصار لهم من جملة الاعوان والاصحاب والخلان ..

ومن الامور الغريبة والحوادث العجيبة هو انه كان بمدينة حلب تاجر اسمه كساب وكان من اشهر الناس ومن اتباع صاحب جزيرة قبرص الملك الهراس وكان يتاجر بالبضائع المختلفة فاتفق انه لما قدم بنو هلال الى تلك الديار ونهبت امواله من جملة الاموال شكى امره للامير دياب وطلب رد امواله التي كسبها بنو هلال فلم يستفد ولا حصل على ما يريد فترك حلب ونجا بنفسه وهرب خوفا من العطب ، وقصد الملك الهراس دون باقي الناس فدخل عليه وشكا له وبكى بين يديه وأعلمه بالحقيقة وما فعل بنو هلال به فاغتاظ الملك غيظا شديدا ما عليه من مزيد لانه كان يحب كسابا ، ووعده باحضار دياب ، وكان عنده ثلاثة من الاصحاب جميل ونفاع ومزيد وكانوا من محافظي المدينة، فأحضرهم اليه وأعلمهم بواقعة الحال وطلب منهم ان يسيروا مع كساب ويأتوه بالامير دياب ، فقالوا : سمعا وطاعة .. وغيَّروا ثيابهم وساروا بالمراكب من تلك الساعة ومعهم الهدايا ، وعند وصولهم الى اللاذقية نزلوا الى المدينة وجعلوا يجمعون اخبار بني هلال فعلموا انهم في حماة فركبوا وساروا تحت جنح الظلام الى ان وصلوا الى البلد ولم يعرفهم احد ودخلوا منزل دياب ومعهم الهدايا مثل سيف العقرب وخنجر في قبضته جوهرة وابريق فضة وثلاث مماليك كل مملوك يساوي الف دينار ، وغير ذلك من الاشياء الثمينة فلما وصلوا ودخلوا على الامير دياب وسلموا عليه وقدموا الهدايا رحب بهم وسألهم عن حالهم فقال له كبيرهم : ان سألت عنا يا امير نحن تجار وأخوة ثلاثة وجينا في تجارة عظيمة تركناها في اللاذقية لاننا خفنا من الطريق وحذرنا كل صديق ومرادنا تعدينا من هذا الطريق . ثم اخرجوا ثلاث بقج من الجواهر الثمينة التي تدهش الابصار وتحير الافكار وقالوا له : هذه الاولى الى الامير حسن ، والثانية الى الامير ابو زيد ، والثالثة الى القاضي . فقال دياب : ومن هؤلاء الذين تذكرهم وكلهم من تحت يدي .

فقالوا : نحن اتينا لعندك والذي تريد اعطيه والذي ما تريده لا

تعطيه .

فقال لهم : نحن ما ندري لئلا يقوموا يلحقوكم ، قال كبيرهم : نحن تجار ولا احد يجلب معه متاجر مثلنا ومعنا مركب محمل بالبضائع خلاف ما معنا ، ونحن كل سنة نبيع ونشتري ونكسب النصف في بضائعنا كل سنة ، ونجعل طريقنا على حلب ، وكان اللعين بدريس يشتري منا ما يلزم من البضائع كل سنة وقد اتينا هذا العام حسب عادتنا فلم نجده وقد سألنا بعض المسافرين فأخبرونا بأنك قتلته ففرحنا وأنسر قلبنا وانشرحنا، وكان ذلك الملعون اخذ منا عشرة آلاف دينار وهذا غير عشرة آلاف ثانية ، فقلنا من شدة فرحنا اننا نقدم لك هذه البذلة حيث انك قتلت هذا الملعون ونحن اتينا اليك ومالنا ونوالنا وما تحت ايدينا فهو لك ، وهذه البدلة منا هدية اليك ثم قدموها له وقالوا : هل اعجبتك ؟

فقال لهم : نعم . فقالوا نحن ما جئنا اليك الا لاجل ان نهديك بها. ففرح بهم فرحا شديدا ، ثم التفت الى التاجر الثاني وسأله : ما اسمك؟

فقال : اسمي منذر ..

وسأل التاجر الثالث : ما اسمك ؟ فأجابه : نظرون العقيلي . فقال لهم : ان كانت متاجركم تعوز مائة جمل اعطيها لكم لكن ان كان مرادكم ان احميكم من المغتصبين واحرسكم الى ارض تونس الغرب فقوموا بنا الى المركب حتى انظر متاجركم واشوف الحمولة كم جمل تحتاج حتى ارسلها لكم مع عبدي .

فدخلوا معه بالخداع وقالوا : اتريد ان لا يعرف احد ولا يطلع على سرنا الا الله وانت يا ابو موسى لان العرب متى رأوا متاجرنا يطمعون فينا ويغيروا علينا فيقع الخلاف بيننا وبينهم وينشب القتال ونكون نحن السبب في هذا الشر والكدر ، فلما سمع منهم هذا الكلام قال :

ـ وأنا اسير معكم وحدي وما آخذ معي احد من اهلي وجندي حتى انظر ما ذكرتموه لي .

فقالوا له : سر على بركة الله تعالى . فركب الثلاثة هجنهم وركب الامير دياب وساروا خوفا من ان ينظرهم احد فيعرفهم .. وبينما هم سائرين التقى بهم الامير عماد اخو الامير حسن فلم يعرف منهم سوى الامير دياب فقال : يا ابن غانم الى اين انت سائر مع هؤلاء القوم .

فأجابه : هؤلاء ضيوفي احرسهم من السفهاء .

فقال : تريد ان اذهب معك ؟

فأجابه : ارجع انت في حالك ولا تتعب ذاتك وتسير معي .

فسار الامير عمار الى منزله ، وأما الامير دياب فسار مع اصحابه من العشاء الى ثاني يوم الظهر حتى اشرفوا على البحر ... فسمع دياب صوت دوي الماء مثل الطبل فدخل عليه الوهم وقال في باله : الله أعلم اذا كان الثلاثة خائنين لان عيونهم ملآنة بالغدر وهذه علامة الشر ، وأراد ان يرجع من وقته ولكن القدر لا بد من نفاذه ، ولما رآه الثلاثة قد تغير وفي سيره قد تأخر قالوا له .

ـ اما تنزل معنا في البحر ؟

فأجابهم : ان نزولي معكم البحر ما هو ضروري وان كان كلامكم صدق انزلوا وهاتوا ما قلتم لي وأنا ما عدت اخطي ولا خطوة واحدة . ثم نزل عن فرسه وامسك صرعه بيده اليسرى والسيف بيده اليمنى ووقف ينتظر فتركوه ونزلوا الى البحر حتى اتوا الى السفينة وجابوا له خيمة من الحرير الاصفر مكللة بالدر والجواهر والياقوت والمرجان والزمرد الاخضر . فلما رأى دياب تلك الخيمة وفرشها الذي يدهش تعجب غاية العجب ، وظن ان كلامهم صحيح ودخل معهم الى الخيمة ودخلوا يتحادثون وأتوا بالمأكل والمشرب ، وفي الحال بنجوه وفي السلاسل قيدوه ونزلوا الى المركب ورفعوا المراسي واقلعوا ، ولما قطعوا مسافة طويلة اعطوه ضد البنج ففاق فوجد حاله مقيدا بالسلاسل والتفت يمينا وشمالا فلما نظر الجماعة وكانوا في ملابس بيض وجدهم في برانيط سود فعرف ان الحيلة تمت عليه فتأسف وندم ..

واخيرا وصلت السفينة الى قبرص ، فانزلوه منها ، ونقلوه مكبلا الى ملكها الذي فرح باعتقاله فرحا عظيما ، وأمر بتعذيبه ...

***

تولى الامير حسن القلق لغياب الامير دياب ، وطلب من ابو زيد ان يضرب الرمل ، ليرى مكانه ، وماذا يفعل فيه ..

وكانت نتيجة الرمل ان عرف ابو زيد بمكان دياب في قبرص عند الملك الهراس وكيف انهم يقومون بتعذيبه فيها .. فلما سمع من في الديوان هذا الكلام ، صاحوا بصوت واحد :

ـ ليس هناك سواك يا ابا زيد من يستطيع خلاصه وانقاذه ..

واتفق ابو زيد على السفر ليتمكن من انقاذ الامير دياب ، وتجهز للسفر واخذ عشرة فرسان وودع الامارة والسادات ، وركب ظهر الحصان وصار يقطع البراري والفلوات ، ثم ركب البحر على ظهر احدى السفن حتى وصل الى قبرص واشرف على باب المدينة فرأى الهراس خارجا بجماعته الى الصيد والقنص فعرف ابو زيد انه الملك ، فتقدم اليه وسلّم عليه بأفصح لسان وسحب المبخرة وحط البخور فعقد الدخان وقال له: هذا البخور من دير الجبران، واخرج ثلاث شمعات وقال : خذ هذه من دير البنات ودير الحميرة المباركات .

فقال الهراس : وقعت يا ابو زيد وكيف تنجو وانا رابط عليك الطرق ؟

فقال ابو زيد : لا تقل هذا الكلام يا ملك الزمان ، انا خدام الملك مثقال ولي مائتين عام سائح ما خليت دير ولا صومعة ولا مجلس وانت ارسلت خلف دياب واسرته لانه قتل بدريس .

فقال الهراس : يا راهب اما دياب فقد مسكناه وفي الحديد رميناه ولكن بحياتي عليك انت بعثك الملك مثقال ؟

فقال ابو زيد : اي وحق الاله المتعال .

عندئذ اخبره الهراس كيف اعتقل دياب وامسكه والقاه في السجن ..

فقال ابو زيد : انها حيلة عظيمة يعجز عنها اشد الرجال ..

ولما عادوا الى الديوان قدم الملك لابي زيد الطعام ، وكان يتسمى بالراهب سلامه .. ثم اخذ يحدثه ، فاعجبه حديثه ، لانه لم يسمع بمثله من قبل ، واعجب به اعجابا عظيما ...

وصاح برجاله في الديوان ليكون ابو زيد الكبير فيهم جميعا ..

ولكن كبير الرهبان ضاق صدره لهذا الامر، وقال رجاله: اذا سبقك ابو زيد في ديوان الملك راحت علينا جميعا ...

وكان الملك الهراس قد اعجب بأبي زيد اعجابا شديدا ، وتعجب مثله جميع الحاضرين في الديوان ، ذلك انهم لم يشاهدوا رجلا في مثل فصاحته وبيانه وذكائه .. وسأل الهواس ابو زيد ان يتمنى عليه .

قال له : اريد ان تريني دياب حتى اشفي قلبي منه بالعذاب .

فأمرهم ان يأخذوه اليه فأخذوه والشمع قدامه اشعلوه ، وساروا حتى

وصلوا الى السجن فدخلوا ولما شاهد دياب في هذا البلاء والعذاب تقدم منه ورفع يده وضربه .. فتألم دياب وصاح : الله يقطع يمينك .

فقال له : وانت الله يقطع عمرك من هذا السجن .

ثم انه خرج من عنده وتوجه الى عند الهراس وقال : يا ملك الزمان دياب ما بقي ينفع ..

قال الهراس : كيف يكون الرأي عندك ؟

فقال : يا سيدي فكه من الحديد والبسه الشيء الجديد واطلعه الى القصر واطعمه دجاج وخبز حتى يسمن ويعود ويصلح للعذاب .

فقال الهراس : اطلعوه واعملوا له مثل ما قال الراهب سلامة .

واما ابو زيد فلم يزل يقدم الاكل الى دياب ليرد عافيته لانه انسل من كثرة الجوع ولا عاد يملك القوة .

واستقام ابو زيد عند الهراس فلا يغلب عليه احد من الناس فسمع به راهب من الرهبان وكان يسمى مغلوب بن توما فركب واتى الى عند الهراس فلما وصل الى المدينة قامت الضجة وقالوا : يا ملك اتى مغلوب بن توما ، فركب الهراس ولاقاه وسلم عليه فما رد سلامه . قال له : لماذا يا سيدي ما ترد سلامي ؟

قال : كيف ارد سلامك وعدوك ابو زيد عندك واتى الى هنا لانقاذ ديـاب ؟

فقال الهراس : انا لا آخذ احدا ظلما وعدوانا .

فقال مغلوب : هذا يتكلم بالسبع لغات ويصبغ حاله سبع صبغات لان غضبة من الغضبات ، وانا ما لي معه غرض ولكن غيرة ومحبة واخاف ان يقتلك ويخرب بلادك .

فقال له الهراس : اذهب معي يا سيدي الى الديوان وشرّفه .

فساروا الى الديوان ولما دخلوا التفت الهراس الى الراهب سلامه وقال له : انت ابو زيد صاحب المكر والكيد اتيت تفك دياب من البلاء والعذاب وحضر من يعرفك بعد ان سحرتنا بمكرك .

فقال سلامه : من الذي حضر يعرفني ؟

قال له : مغلوب يعرفك وهو عالم بلادنا وحطيت ديارنا .

فما اتم كلامـــه الا والراهب سلامه يبكي بكاء شديــــدا وقال : يا ملك ما دام كل من اتى اليك تسمع كلامه ما بقي لي عندك قعود .

وفجأة وصل الراهب ودخل عليه فقاموا لهعلى الاقدام وسلم عليهم

فردوا عليه . ثم التفت حوله وقال : هذا الراهب سلامه ؟
قالوا : نعم .
قال له : من اين يا راهب ؟
قال : من بيت المقدس .
قال : هذه اول كذبة وانا لي اربعين عاما في بيت المقدس ما سمعت براهب اسمه سلامه .
قال ابو زيد : انا كنت سايح في رؤوس الجبال .
قال له : قطعت يدك يا محتال ولكن اقرأ الانجيل فقراه . فقال له: اقرا لنا المزامير فقرأها . وقال: اقرأ السواعي وغيره من الكتب فقرأها في لسان فصيح فتعجب الحاضرين منه غاية العجب وقالوا : مسلم لا يعرف يقرأ كل ذلك .
قال لهم مغلوب : هذا يعرف اسمه من يقرأ فيهم .
فقال الملك : لماذا لا ترد جوابه وقد القيت عليه مسائل ردها ؟
قال : يا ملك الم اقل لك هذا نقمة من النقمات .. هذا ابو زيد اقتله وان اردت ابقيه .
فقال له الهراس : ما تقول يا راهب سلامه .
فقال : يا ملك ، الليلة مضت وأبقيها الى الغد وأنا الليلة اختلي في داري مع سادتي الذين ربوني من صغر سني وما اظن انهم ينسوني ، ومن هذا المشكل يخلصوني وأنا ماذا يقولون لي اخبرك .
وانفض الديوان وتوجه ابو زيد واختلى بنفسه ثم احضر دهن السندل ودهن به جسمه حتى اذا لمس النار ما تؤذيه ، وبات الى ان اشرق الصباح وطلع الهراس وظهر امام الناس قال الهراس : كيف رأيت يا سلامه :
فبكى ابو زيد وقال : وحق العمامة اتاني اربعين عابد وكل واحد طول اربعة رجال وعمرهم ما تركوا الصلاة وهم في اقطار الارض طائرين ينظرون لحال المساكين فحكيت لهم عن مغلوب فحلفوا انهم لا بد ان يحرقوه . وحكيت لهم عن فضلك فباركوا لك في طول عمرك وكل واحد دعا لك بالخير .
فقال له الهراس : جزاك الله عني كل خير لانه زاد في عمري اربعين عام هذا في اليقظة او في المنام وكيف قالوا لك ان نفعل ؟
قال : قالوا لي خلي الملك يوقد النار في الفرن وادخل الفرن انت

ومغلوب والذي يكون غلطان نحرقه بالنار .

قال الملك : ماذا تقول يا مغلوب ؟

فقال سلامه : انا ادخل قبله.. وآمر انيوقد الفرن. فأوقدوه حتى صار جمرا احمر ودخل ابو زيد الفرن بعد ما تـــلا اسم الله الاعظم ، فعادت النار باردة باذن الله سبحانه وتعالى العزيز الجبار .

ونزل الهراس بعد ساعة فوجده جالسا كأنه في روضة خضــراء فقال : ادخلوا مغلوب .

فقدموه فصرخ من صميم فؤاده، فمد ابو زيد يدهوجذبه حتى صار داخل الفرن فاحترق وقضى نحبه . اما ابو زيد فطلع سالما فصـــار الموجودون يتباركون به .

وأما الهراس فانه اعتقد فيه القداسة وآمن به كل الايمان .

وكذلك كان الامر مع شعبه ، فقد آمنوا بأبي زيد ، وصاروا يأتونه بالنذور والهدايا ..

وقرر ابو زيد على الاثر الاسراع في انقاذ دياب قبل ان يأتيه كاهن اخر يفسد عليه مشروعاته .. فنصح الملك بتوحيد الاسرى في مكـــان واحد ، مقدمة لقتلهم ... فجمعوهم ووضعوهم في مكان حصين ..

ولما اقبل الليل قام ابو زيد ومعه شمعة فدخل على دياب فـــي سجنه فوجده بحالة شديدة من الغضب والعذاب .. فاطلق سراحه ، وفك قيوده ، ثم ذهب معه الى الاسرى الاخرين ، وعددهم اثني عشــر الفا ، فدعاهم الى تأييده ، ولهم حريتهم ، فوافقوا جميعا ، وقسمهم ابو زيد اقساما ثم ارسلهم لاقتحام المدينة والاستيلاء على كل مكـــان فيهـــا ..

ثم ذهب مع دياب الى قصر الهواس ، ففتح له الحاجب لما عرفه ، فضربه ابو زيد ضربة على رأسه القته ارضا ميتا ، ثم دخلا على الهواس، وكان نائما ، فايقظه ابو زيد ، فلما شاهده دياب شهر سيفه وقتله ..

وبعد ان تم الاستيلاء على المدينة، عيَّن ابو زيد شخصا يدعى نوفل، بعد ان اطاعه الاعيان والتجار ، ثم ذهب الى قصر الهواس فوجده مليئا بالتحف والمال ، فحملها جميعها الى المركب الذي سافر متوجها الـــى اللاذقية ، حيث كان الامير حسن بانتظاره ، فلما شاهده بنو هلال مقبلا ومعه دياب ، اخذوا يهللون ويصفقون واقبلوا على ابو زيد يهنئونـــه ويثنون على نشاطه ونجاحه ..

وبعد ان استقروا اياما للراحة ، طرح الامير حسن الصـــوت بالاستعداد للرحيل ، على ان يتم ذلك بعد الانتهاء من حفلة صيد اعتزم القيام بها ..

فوافق الامير دياب والقاضي على ذلك وساروا مع حسن يجدّون السير ويسابقون بمسيرهم الطير وما زالوا سائرين من مكان الى مكان وهـــم يطاردون الارانب والغزلان حتى وصلوا الى ارض يقال لها قلعة سواكن. فبينما هم على هذا الحال واذ لاقاهم رجل ذو هيبة ووقار قدامه حمار وضع عليه العطارة ، فلما اقبلوا سلموا عليه فما رد عليهم السلام ، بـل انه قال لهم : وقعتم يا أوباش لا بد ما اقتلكم وأريح الدنيا منكم .

ثم تقدم الى حسن وقال : ويلك الى اين انتم سائرون في هـــذه الاطلال انت ودياب وبدير ابناء الكلاب ، والله لاعذبكم .

فقال حسن : اصمت قطع الله لسانك .

فعند ذلك صاح القاضي بدير وارتمى على ابو بشارة وأراد ان يفتك به ، فصاح به صيحة عظيمة فما اتم كلامه حتـى ارتخت اعضاؤه ... وكذلك حسن حدث له شلل . فلما نظر ديا بهذه الاحوال غضب وصاح فيه : اليوم يومك يا ابن اللئام .

ثم انه قوّم الرمح السار وقال له : خذها من دياب الاسد الريبال.

وأراد طعنه فما نظر نفسه الا مكتف اليدين مكشوف الرأس بـــلا لباس حافي القدمين، فعند ذلك صاح العطار فيهم ومشى امامهم فتبعوه مثل الغنم وكل منهم صار في حالة العدم ..

قال وما زال سائر بهم حتى وصل الى قلعة صهيون فأحضرهـــم قدامه وأراد ان يسقيهم كأس المنون فأدخلهم الى السجن ووضع لهـــم الحديد والاغلال وقال لهم :

ــ ما بقي لكم خلاص من ضيق الاقفاص .

وأما ما كان من امر ابو زيد فانه كان غائبا في الصيد والقنص، فلما عاد الى الاطلال لم يجد حسن والابطال فسأل عنهم فقالوا : ساروا الى الصيد والقنص ولهم يومان في تلك البراري والآكام وهذا كل ما نعلمه يا ابن الكرام .

فبينما هم في الكلام اقبل الذين كانوا مع الامارة شاردين في تلك الآكام ، فسألهم ابو زيد عن حسن والامارة فأعلموه بما حصل .. فلما سمع ابو زيد هذا الكلام غاب عن الصواب وسار في حساب وأمـــور

صعاب وصبر ساعة من الزمان ثم التفت الى الامراء والفرسان وقال لهم: كيف يكون عندكم الرأي ، فقالوا :

ـ الرأي رأيك ونحن ما عندنا رأي ... فقامت نساء هـــلال بالصياح والبكاء والنواح من كل جانب وباتوا في هم وغم شديد ما عليه من مزيد .

ولما اصبح الصباح اجتمع بنو هلال عند ابو زيد وقالوا : ما هذا المصاب وما يكون الجـــواب ؟ قال لهم : قوموا بنا نبحث جميعـــا عليهم في البراري ونفحص عن هذه الاحوال . فبينما هم كذلـــك واذا برجل سائر في تلك الديار فمضوا اليه وسلموا عليه فرد عليهم السلام بكل ادب واحتشام ، فقا له ابو زيد :

ـ يا ابا العرب وصاحب الفضل والادب انت من اين والى ايـــن قاصد ؟

فقال له : يا امير انا كنت في صهيون وسائر الى بغداد وتلـــك العيون .

فقال له : ما عندك من الاخبار ؟

فقال : اعلم بينما كنت امس سائرا في تلك الناحية اذ وجدت ابو بشارة العطار ومعه ثلاثة امارة ، وهم من بني هلال وقد اخذهم الـــى قلعة صهيون ووضعهم في الحديد والاغلال وهذا ما عندي من الاخبار ، واذا كنتم ذاهبين الى خلاصهم فارجعوا واستجيروا بالله لئلا يصير فيكم مثلهم لانه لا يقدر ان يصل اليهم احد ..

فقال له ابو زيد : من اي شيء ؟

فقال له : من ابو بشارةلانه سحار مكار لا يصلى له بنار ، ولكنانتم من اي بلاد ؟

فقال له : من بلاد الحساء والقطيف ...

فلما سمع الساعي كلامهم وما شرحـــوه تركهم وسار فـــي حال سبيلـــه .

واما ابو زيد فانه قال لفرسانه والابطال : ارجعوا الى الاطلال وانا وزيدان نكفي لهذه الاحوال ... فعندها عادوا ... واما ابو زيد وزيدان فسارا في تلك البراري والقفار طالبين قلعة صهيون ، وفجأة شاهدا ابو بشارة العطار يدور في تلك البراري ويسوق قدامه الحمار ، فلمـــا نظرهم وقف حتى وصلا اليه وسارا بين يديه فصاح فيهما وقال لهما :

ويلكما ايها النذلان وقعتما في اوشم الاحوال وقعت يا ابو زيد انت وزيدان وتظنان ان مكركما يدخل علينا يا ابو زيد لا بد ان اقتلك وأريح الناس منك.

فقال له : من عرفك فينا حتى تعادينا .

فقال : عارفكم من وقت ما خرجتم من اوطانكم .

عندئذ سحب زيدان حسامه وغار عليه يريد اعدامه ، فما نظر حاله الا وهو مكتوف ورأسه مكشوف . فلما نظر ابو زيد الى ما صار اليه زيدان خرج عن دائرة الاعتدال ، وسحب سيفه وهجم عليه هجمة الاسد وقال له : ويلك يا ابن الانذال دع عنك هذه الاحوال .

فلما نظر ابو بشارة من ابو زيد تلك الفعال خاف من الوبال فقبض كبشة من التراب وعزم عليها ثم حدفها على ابو زيد واذا برجليه قد يبست في الارض وكذلك يده يبست ورفعت الى فوق رأسه فعدم حواسه ثم ان ابو بشارة زعق في ابو زيد بصوت هائل كأنه الرعد الصائل ورفعه في يده فاذا هو طائر ما بين الارض والسماء . واما زيدان فجره ذلك الملعون ووضعه في حصن صهيون .

وأما ما كان من ابو زيد فانه ما وعى على نفسه الا بين بيوت هلال يبكي وينعي اهله والاعمام ويضرب بيديه اليمنى والشمال، فلما رآه بنو هلال بهذا الحال طلع منهم الصياح من كل جانب ، وقالوا : يا ناس ابو زيد جن وفقد عقله .

وبعد ايام قليلة عاد ابو زيد الى وعيه ، واخذ يفكر فيما يجب عليه عمله لانقاذ حسن من قبضة الساحر العطار ..

وأخيرا قرر التخفي في صورة درويش وخرج في البر يبحث عن العطار ، فشاهده يخرج من احدى القرى ، فحاول الاختفاء منه ، في خرابة قريبة ، ثم حاول اللحاق به ، فعرف بأمره العطار ، فجمّده في مكانه ، وتركه ليموت حتف نفسه ..

عندئذ تطلع ابو زيد الى السماء ، وطلب من الله انقاذه ليقضي على هذا المحتال والمجرم القاتل ، فسمع الله دعاءه وانقذه مما هو فيه ، فلحق عندئذ بالعطار مرة ثانية ، وقتله ، وارتدى ملابسه وتزيا بزيه وذهب الى قلعة صهيون .. لانقاذ من فيها من الاسياد والامجاد ..

ولم يزل ابو زيد سائرا في طريقه الى قلعة صهيون حتى وصلها اخيرا ، وما كاد يصل الى بابها حتى وقف له شخص اخذ يرحب به واجلسه الى جانبه وعرض عليه الخمرة فرفض ، وقال :

ـ جئت اقتل الاسرى ، لا جئت اشرب الخمرة .. ولكن لا بأس ، اشرب الخمرة معك ، ثم يأتي دور الاسرى ..

ففرح منه صاحب القلعة ، وجلس الجميع علـى طاولة الشراب ، وابو زيد يكثر من تقديم الخمرة لهم ، وحين تؤاتيه الفرصة ، يضع في اقداحهم بنجا حتى غاب الجميع عن صوابهم ...

ثم اسرع يجري نحو باب السجن فخلعه ، واعلم الاسرى لما ارتعدوا عندما شاهدوه بانه (ابو زيد) لا الساحر بشارة ، ففرحوا بنجاحـــه وظفره ، واسرعوا معه بعد ان فك اغلالهم ، وغادروا المدينة الى حيث كان بنو هلال ينتظرونهم ، فاستقبلوا بالترحيب والتهليل .. وشكروا ابو زيد على انقاذه لهم ..

واما صاحب القلعة فلما عاد هو وجماعته الى وعيهم في صبـــاح اليوم التالي وشاهد ما حل به ، وعرف بهرب الاسرى ، ادرك ان ابو زيد هو الذي مكر به ، فنادى برجاله لمطاردة الاسرى ، فاسرعوا اليه، وساروا خلفه ، فلما التقوا ببني هلال وكانوا يظنون انهم سيفاجئونهم بالحرب ليلا دون ان يشعروا ويحسوا، فاذا بالقوم قد استعدوا لهم،وقد اخذوا حذرهم سلفا ، فما كادوا يظهرون حتى اسرعوا اليهم وهجموا عليهم بالسيوف والحراب فأفنوا اكثرهم وولى الباقون الادبار ..

فتبعهم بنو هلال ، فطلبوا الامان واعطوا بني هلال كميات كبيرة من الاموال والخيرات ، ووعدوا بدفع الجزية في كل سنة دائما وابدا ..

وهكذا عاد بنو هلال الى مضاربهم كاسبين غانمين وقد فرق الامير حسن ما غنموه على الجميع ، واقاموا على شرب قهوة وأكل وطعام مدة ثلاثة ايام وبعد ذلك صمموا على الارتحال من تلك الديار فهدمت الخيام وانتشرت الرايات والاعلام وركب الفرسان ظهور الخيول ، واعتقلـــوا بالرماح والنصول وركبت النساء والبنـــات في الهوادج والعماريات ، وجدّوا في قطع البراري والآكام حتى وصلوا الى حمص فأقاموا فيهـا خمسة ايام ، وكانت تأتيهم الهدايا من جميع الولاة والحكام ثم ارتحلوا منها الى زحله وقد طابت ايامهم في هذه الرحلة السعيدة .. لانهم كانوا يصرفون الاوقات في سرور وطرب ، وقد زال عنهم العناء والكرب ... حتى وصلوا اخيرا الى الشام بكل سلام ... ونصبوا المضارب والخيام .

- ٧ -

بنو هلال في الشام

كان يحكم الشام في تلك الايام ملك اسمه شبيب التبعي ، وكان قد راى حلما في منامه اخافه ، فجمع وزراءه وقص عليهم حلمه ، ففسره له وزير اسمه عيمره ، واخبره ان بني هلال قد اقبلوا على بلاده وانهم كالجراد عددا وخطرا ..

ضاق صدر شبيب لما سمع هذا التفسير واستدعى احد رجاله اليه ، وامره ان يذهب ويتقصى له اخبار بني هلال ، واين هم ، والى اين هم ذاهبون ..

فعاد اليه الرسول بعد ايام ليخبره ان بني هلال اصبحوا على اطراف ملكه ، وانهم في عدد كبير ..

فلما سمع شبيب هذا الكلام صار الضياء كالظلام وجمع اكابر دولته وسألهم رأيهم في هذا الخطب العظيم ..

فنصحوه ان يطلب منهم عشر اموالهم جزاء اقترابهم من ارضه ، وان يستعد في الوقت نفسه لحربهم وقتالهم ان رفضوا وردوا رسوله..

ولقد رفض بنو هلال ان يدفعوا لشيبوب شيئا، واخذوا يستعدون لحربه وقتاله ..

ولكنهم قرروا قبل ذلك ان يرسلوا ابا زيد الى الشام ليدرس لهم اخبار القوم وقوتهم وما هم في سبيله لحربهم وقتالهم ..

وذهب ابو زيد فعلا مع الامراء دياب وعرندس والرياش ، ومفرج وابو الليث الكندي العارف بعلم الرمل والحساب .. وقصدوا الامير شبيب في قصره ودخلوا عليه .. وسلموا عليه وكان جالسا على كرسي مرصع بالجواهر يدهش العقل ويذل البصر وحوله الاتباع والخدم ، فرد

عليهم السلام وسألهم: من تكونوا من العرب الاجواد وما هو سبب قدومكم الى هذه البلاد .

فقالوا : نحن شعراء نقصد الملوك والامراء فنمدحهم بالقصائد الحسان ونرجع بالخلع والاحسان وقد سمعنا بجودك ونداك ومكارم اخلاقك وحسن مرادك فأتينا اليك وقصدناك لنمدحك وننقل ثناك ونرجع مجبوري الخاطر الى الديار وندعوا لك بطول العمر على مدى الدهور والاعصار .

ثم ان ابو زيد بعد هذا الخطاب عدل الرباب وراح يمدح الامير شبيب بهذه الابيات :

يقول الفتى المدعو سلامة — بدمع جرى فوق الخد سكيب
ركبنا وجينا يا امير على نقا — من فوق نوق شبه ريح هبيب
فقالوا لنا يا قوم اين مسيركم — فقلنا الى نحو الامير شبيب

فلما فرغ ابو زيد من كلامه شكره شبيب على حسن شعره وصرف معهم نهاره في الحديث والاخبار ... ولما اصبح الصباح ركب شبيب الى الصيد وركبت معه الفرسان وابنه صقر ما عدا الشعراء وابو زيد فالتفت شبيب الى الشعراء وسألهم :

ـ لماذا لا تركبون معنا في هذا النهار ؟

فقالوا له : اعلم يا بدر الممالك ان الذي يمنعنا عن ذلك هو عدم وجود الخيل لان مطايانا لا تصلح للركوب في الوعور والسهول .

فأمر لهم شبيب بخمسة أفراس من الخيل ، فركبوا عليها ما عدا ابو زيد فارس الطراد ، فقال له شبيب : علامك لا تركب وما هو السبب؟

فقال : ان هذا الجواد لا يحملني وهذا هو السبب الذي يمنعني .

فأمر السايس ان يأخذه للاسطبل ويختار له جوادا من أطايب الافراس.

فذهب معه للاسطبل وجعل ابو زيد ينظر في الخيول فلم يعجبه سوى جواد شبيب وهو غطاس ، وكان ابو زيد قصد بهذا العمل الغريب هو الكشف على خيول شبيب، وكان السايس قد رجع على الاثر واعلم شبيب بذلك .

فقال له وقد زاد تعجبه : اعطيه اياه ان كان يقدر يركبه .

فعاد السايس الى الاسطبل واعلم ابو زيد بما سمعه من الامير

شبيب وقال له : اعلم يا شاعر العرب ونخبة الادب ، هذا الحصان هو جواد الامير شبيب الغطاس الذي تضرب به الامثال بين الناس فلا يقدر احد منا ان يقربه او ان يدانيه ، واذا اردنا ان نطعمه ندلي له الشعير من سقف البيت الذي هو فيه فخذه ان كنت تقدر عليه ..

فتقدم ابو زيد اليه فصهل الحصان حتى زعزع المكان لانه كان بطران، فلطمه ابو زيد بالكف على عينه وسرجه وركب عليه وسار الى عند شبيب فتعجب منه كل العجب ، وقال في نفسه : وحق ذمة العرب ان هذا الامر مستغرب وهذه الافعال والاعمال لا تقدر عليها الشعراء بل صناديد الابطال .

ثم انهم ساروا في جوانب البر وهم يصطادون حتى حان وقت العصر فارتدوا راجعين قبل دخول الليل. وفي اثناء طريقهم رأوا ميدانا لسباق الخيل فامتثلت امراء الفرسان وجعلوا يتسابقون في الميدان ، وانتصر ابو زيد على جميع الشجعان بالسيف والسنان حتى حير العقول وأذهل الابصار وكثرت فيه الظنون والافكار ، فرجعوا الى البلد ونزل ابو زيد في دار الضيافة مع جماعته وكان للتبعي ولد اسمه عكرمة وكان قد خرج معه للصيد فاجتمع به مدة على انفراد وقال له : اعلم ايها الولد انني في حيرة من امر هؤلاء الرجال الذين حضروا نهار امس عند غروب الشمس. وكان عكرمة قد اجتمعالى ابي زيد واعجب بحديثه وذكائه فلما عرف شبيب بذلك بعث الى ولده يوبخه ، ويخبره ان هؤلاء جواسيس ، فأجابه :

ــ لم يثبت عليهم شيء حتى الان ، وقد شفعت بهم فلا ترد شفاعتي ، فقرر شبيب ان يمتحنهم شعرا وجمع شعراءه لهذا السبب، ولكن ابو زيد تغلب عليهم ، فدعا احد رجاله الاشداء لمصارعته فصرعه ابو زيد ، ففضب شبيب غضبا عظيما لفشله المتتابع ، وامر باعادتهم الى السجن ، فأخذوهم في الحال ووضعوا في ارجلهم القيود والاغلال ووكلوا بهم جماعة من صناديد الرجال ، وكان الامير دياب ومن معه من الاصحاب في خوف واحتساب من القتل والعذاب وقد قطعوا السلامة فجعل ابو زيد يشجعهم ووعدهم بالخلاص من الاعتقال ، وقال لهم : ان الفرج قريب بعون الله السميع المجيب وأن في هذه الليلة ذهابنا الى اهلنا والاجتماع الى عيالنا .

فاطمأنوا وجعلوا يتحدثون حتى اظلم الظلام ونامت الحراس ،

فعند ذلك اخرج ابو زيد من الكيس المغناطيس والقاه على القيود والاغلال فتساقطت فصاح على الامير دياب وباقي الفرسان وقال :

هلموا بنا نذهب .. فقد نجونا باذن الله .

فنهضوا في الحال وجدّوا في قطع الروابي والتلال حتى وصلوا الى بني هلال وكان وصولهم عند الصباح فدخلوا على الامــــير حسن ، فالتقاهم بالسرور والافراح لان افكاره كانت مشغولة عليهم فقبلهم بين عينيهم وقال : الحمد لله على سلامتكم لاني كنت مضطرب الافكار مــن جهة غيابكم فاخبروني بأحوالكم وقصتكم وما جرى لكم مع شبيب فــي سفرتكم، فأخبروه بحديثهم من الاول الى الاخر وأطلعوه على الباطــــن والظاهر فشكر الله على خلاصهم من الاعتقال وأثنى على ابو زيد لما ابداه من حسن الفعال ، وبينما هم في هذا الحال جاءهم رسول من عند الامير شبيب يهددهم ويتوعدهم بعد ان تفقد السجن فلم يجدهم فيه، كما ان السلطان حسن بعد ان عرف حقيقة الاحوال وعرف ما عند شبيب مــن الفرسان والابطال كتب اليه يهدده ويتوعده بالويل والثبور .

فلما قرأ شبيب الكتاب كاد يغيب عن الصواب ، فاجتمع عنــــده مائة الف مقاتل بين فارس وراجل وكلهم بالسيـــــوف والرماح وآلات السلاح . فلما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح دقت طبول الحــــرب واستعد العساكر للطعن والضرب وركب شبيب في اول الفرسان ومن حوله الوزراء والاعيان وسار بهذا الجيش الكبير والعدد الغفير الى قتال بني هلال.

***

وكان بنو هلال قد استعدوا في ذلك النهار واصطف الجنود من اليمين والشمال ولما تقابل الجيشان برز شبيب الى ساحة الميدان ومقام الطعان وطلب براز الشجعان ، فبرز ابو زيد اليه وانطبق الفارسان على بعضهما واخذا في الحرب والصدام وكان شبيب كما تقدم الكلام من جبابرة تلك الايام فقاتل قتال الاسود وفعل فعال شبيب المولود ، فثبت ابو زيد أمامه كالجبل والتقاه بقلب اقوى من الصوان القاسي ، فكانا تارة يتقدمــــان وتارة يتأخران كأنهما اسدان كاسران وقد تعجب من قتالهما جميــــع الفرسان وتعلموا منهما حقيقة الضرب والطعان ، وما زالا على هذا الحال وهما في اشد قتال الى قرب الزوال .

وكان ابو زيـــد قد انحل عظمــــه وقصر فرجـــع الى الوراء

وتأخر ، فعند ذلك دقت طبول الانفصال وتوقف القتال ، وعاد ابو زيد تعبا ، فسأله الامير حسن عن خصمه فقال : انه فارس شديد وبطل صنديد واني قد بارزت الابطال في معارك النزال فما وجدت أفرس منه في القتال .

ولما اصبح الصباح ركب الفرسان ظهور الخيول واعتقلوا بالرماح والنصول واصطفت الصفوف وترتبت المئات والالوف فكان اول من برز الى ساحة الميدان وطلب براز الفرسان الامير شبيب ، فبرز له الامير دياب وهجم عليه فالتقاه شبيب في الحال والتحم بين الفارسين القتال وجرى بينهما عجائب وأهوال ، وما زالا في قتال وصدام ، الى ان اقبل الليل .. وكان الامير دياب قد ابصر في ذلك النهار من قتال شبيب ما يذهل الابصار ويحير العقول والافكار ، فلم يقدر ان ينال منه شيئا لا بضرب الرمح ولا بضرب الحسام فارتد راجعا الى الوراء ... ثم نزل الى الميدان القاضي بدير بن فايد وجعل يتصادم مع شبيب في ساحة الميدان نحو ثلاث ساعات ، وكان القاضي قد كلّ وملّ وضعف عزمه وانحل فرجع وتأخر خوفا من الخطر .. فبرز له الامير زيدان وتقاتل معه في ساحة الميدان. وبعد قتال شديد وحرب ما عليه من مزيد ولى الامير زيدان من امامه خوفا من حربه وصدامه ... ثم تقدم غانم ابو دياب واقتتل معه القتال الشديد وثبت ثبات الجبابرة الصناديد الا انه لم يكن من رجاله ولا يعد من أقرانه فما لبث اكثر من ثلاث ساعات من النهار حتى طلب الهزيمة والفرار فبرز اليه الامير عرندس فجال معه وصال الى وقت الزوال ، وكان عرندس قد ضعف وتتعتع فولى وارتجع ، وبعد ذلك دقت طبول الانفصال فرجعت عن بعضها الفرسان والابطال .

وكان بنو هلال قد اعتراهم الذهول وخافوا من عواقب الاحوال فلما رجعوا الى الخيام وجمع الامير الامراء الكرام ومن يعتمد عليهم من فرسان الصدام واستشارهم في امر شبيب ملك الشام فقالوا : انه فارس جبار وبطل مغوار وقلبه اقوى من الجلمود، ومن الصواب ان نحاربه غدا بالعدد ونترك برازه الى يوم اخر ، ريثما يكون قد تعب من القتال فحينئذ تبرز اليه الابطال ... فاستصوب الامير حسن هذا الكلام وباتوا تلك الليلة على هذه النية . ولما اصبح الصباح استعد بنو هلال للحرب والقتال فدقت الطبول وركب الفرسان ظهور الخيول وركب الامير حسن على ظهر حصانه وتبعه جميع ابطاله وفرسانه ، وكان شبيب قد التقاهم

بجنوده .. وحمل وصاح وحملت معه فرسان الكفاح فالتحم القتـــال والتقت الرجال بالرجال والابطال بالابطال وجرى الدم وسال ، وعظمت الاهوال وتزعزعت الروابي والتلال من صياح الفرسان وقعقعة السنان .

وكانت بينهم وقعة عظيمة ومعمعة جسيمة قتل فيها خلق كثير وعدد غفير ، فلله در الامير ابو زيد والامير دياب فانهما هجما على الرجال كالاسود وحكما السيوف والحراب في الصدور والرقاب ، وفعل شبيب ايضا في ذلك النهار العجب ، وألقى بنفسه في العطب وداموا على تلك الحال الى وقت الزوال .

***

وفي اليوم التالي اصطفت الصفوف وترتبت المئات والالوف والتقى الرجال بالرجال والابطال بالابطال وكان يوما شديد الاهوال انتصرت فيه جنود الشام وأسرت فيه عددا من البنات والنسوان ، وقتلت جملة من الفرسان ، ولما اقبل الظلام رجعوا وباتوا في الخيام وهم في قلق واهتمام وفي الحادي والثلاثين برز الامير حسن مع السادات والمقدمين ، وطلب براز شبيب وقلبه أحر من نار اللهيب . فما اتم كلامه حتى صار شبيب أمامه وانطبقا على بعضهما حتى حجبهما الغبار عن العيون والابصار . وما زال الامير حسن يحارب شبيب حتى قرب وقت المغيب ، وكان قد ابصر منه الاحوال فالتفت اليه وقال : قد ولى النهار وزال فدعنا الان مـــن القتال وفي الصباح نعود الى البراز والقتال .

فتبسم شبيب وقال : ان شئت امهلتك ثلاثة ايام .

ثم عاد بمن معه . وفي اثناء القتال نزع عنه الدرع ، وعند رجوع حسن قالت الجازية ام محمد : علام رجعت بالعسكر والقواد والعـــرب لها رجعات في الوقائع والغارات . فتحمس الامير حسن من هذا الكلام ورجع الى خصمه وصاح فيه وطعنه طعنة بهمة وحمية فأصابته فـــي رقبته وانجرح ووقع عن ظهر الجواد فأدركه قومه في الحال وأخذوه الى داره وهو في حالة النزاع يقاسي الالم والاوجاع ، وكانت بنو هلال قد تمكنت من انقاذ اسراها ، وعادت الى قواعدها ومضاربها راضيـــة مستبشرة ..

اما ما كان من امر بني هلال فان الامير حسن جمع سادات الرجال وقال لهم : مرادي هذا الصباح ابادر الاعداء بالقتال والكفاح .

فقال له ابو زيد : تمهل فسوف تبلغ القصد والامل ، وأنا مرادي عند طلوع النهار ان ادخل المدينة وأكشف لكم الخبر ، وأنا بصفة طبيب

فلعلي اجتمع بشبب فيفرح قلبي ويطيب .
فقال حسن : افعل ما تريد ايها الفارس الصنديد .
سار ابو زيد الى مضربه وهو يؤمل ببلوغ اربه .
ولما اصبح الصباح نهض بالعجل ولبس افخر الحلل وتعمم بعمامة كبيرة ، ولبس جبة قصيرة وغسل وجهه ببعض العقاقير فصار ابيض مثل الثلج وانعم من الحرير ولم يعد احد يعرفه من الآنام ، ثم ركب ظهر كديشة عرجاء ودخل مدينة الشام في هذا الزي والهندام وجعل يجول في الاسواق وهو ينادي : انا طبيب اشفي الجريح ، فمن كان فيه علة ازلتها عنه باذن الاله الفتاح ، وما زال يطوف ويجول وينادي ويقول :
ــ انا الحكيم انا الطبيب.. حتى وصل الى قصر شبيب وكان لشبيب ولد مثل البدر فاتفق انه كان هناك وسمعه من الشباك ، فقال في نفسه: ان هذا الطبيب رجل غريب ، ولو لم يكن من الشطار والحذاق ما كان يطوف في الاسواق، فمرادي أن اتعرف به، او اجعله يداويه لعله يشفيه.
ثم طلبه فحضر وسلم وقال : انت حكيم ؟
قال : نعم .
قال : اذا شفيت ابي من هذه العلة والمرض وأزلت عنه داءه اغنيتك الى الابد وقدمتك على جميع اطباء البلد .
فقال : اني سأبذل الجهد وأداويه ولن اخرج من هذا القصر حتى اشفيه .
فسرّ كل من كان هناك بهذا الخبر وزال عن قلوبهم الغم والكدر ولم يعلموا ان الطبيب هو عدوهم الاكبر . ثم تقدم ابو زيد الى شبيب في صفة حكيم وطبيب وهو يترقب الفرصة ليعدمه الحياة من قريب وكان رأسه معصوبا بمنديل وهو يتنهد من قلب عليل ، ففك العصبة ومسح الدم ووضع له المراهم .
وقال: هكذا ارادت الاقدار باذن الواحد القهار، فاتفق ان شبيب فتح عينيه فرأى ابو زيد حوله فخاف واضطرب وأيقن بالموت الاحمر، فصاح من حلاوة الروح بصوت خفيف :
ــ هذا هو ابو زيد صاحب المكر والكيد .
فقال الحاضرون : ما هذا الذي يقول ايها الطبيب ؟
قال : يريد ان تملأوا السراج زيتا او تخرجوا جميعكم من البيت حتى يستريح ويزول عنه اليأس لان العليل تضيق اخلاقه بكثرة

الناس ..

ففرحوا فرحا شديدا وخرجوا من القاعة ولما اخلى الجماعة المكان اخرج ابو زيد من جيبه السكين وذبح شبيب من الوريد الى الوريد وقد بلغ قصده . ثم غطاه الى راسه وخرج ، فسألته الجماعة عن حال شبيب فقال لهم : انه بخير فلا تدخلوا عليه الا بعد ساعة بينما يكون قد صحى من النوم ولا بد ان يشفى من علته في هذا اليوم لاني عالجته بأحسن علاج فلا تكونوا في قلق وانزعاج . فشكروه على ذلك ووعدوه بالخلع والانعام وبلوغ القصد والمرام .

ثم ودعهم وسار ولو كان له اجنحة لطار .

***

اما ابن شبيب وباقي الجماعة فانهم بعد ذهاب ابو زيد بساعةدخلوا على شبيب في القاعة فوجدوه على تلك الحال فجنوا وعلموا ان الطبيب كان ابو زيد المحتال لانهم كانوا يسمعوا عنه اشياء كثيرة فاستعظموا الامر واخذتهم الحيرة واقاموا العزاء والنحيب على شبيب وهم يلعنون ذلك الطبيب ...

وكان لشبيب اخ اسمه الصحصاح وكان من ابطال الكفاح فاسودت الدنيا في عينيه وعظم الامر عليه وقال :

ـ لا بد لي ان اتبع هذا الغدار وأسقيه كأس الدمار لانه فجعني بأخي الحبيب وأضرم في قلبي نار اللهيب .

وركب وسار وراءه وهو يهدر كالاسد الى ان التقى به بقرب طاحون خارج البلد ، فلما رآه ابو زيد عرف انه الصحصاح ، وانه يريد قتله وهلاكه ، فدخل الطاحون وغيَّر لونه بالاعشاب ونزع منه تلك الثياب ، ثم خرج ووقف على الباب، فلما وصل الصحصاح اليه اشتبه بأمره فقال له من قلب محزون : أعلمني اين صاحب هذا الكدش ؟

فقال له : في الطاحون .

فنزل عن ظهر الحصان وسلمه مع الرمح لابي زيد ثم سل سيفه ودخل الى الطاحون وهو من شدة الغيظ مثل المجنون فلم يجد سوى صاحب الطاحون هناك فضربه وأورثه الهلاك وخرج في الحال وهو يظن انه بلغ الامان وقتل ابو زيد المحتال ، فوجد ابو زيد على ظهر الحصان،

فتعجب من ذلك الشأن وقال : من تكون ؟ قال : فلان . فما اتم كلامه حتى طعنه ابو زيد بالرمح في صدره فخرج يلمع من ظهره فوقع على الارض قتيلا وفي دمه جديلا. وسار ابو زيد بالعجل وهو مسرور على ما فعل حتى دخل على الامير حسن في الصيوان وحوله الامراء والاعيان ، فأعلمه بما جرى وكيف قتل شبيب والصحصاح ورجع بالفوز والنجاح ، فشكره الجميع على ذلك الاهتمام وقالوا : لا عدمناك يا فارس الصدام فقد هان علينا الحال وبلغنا المرام وسوف نبادر الاعداء بالحرب والمهاجمة لانهم بعد شبيب لا تقوم لهم قائمة .

وأما ما كان من اهل شبيب فانهم لما علموا بقتل الصحصاح زاد عندهم النواح وأحضروه بجانب اخيه وأقاموا عليهما النحيب .

وأما ما كان من الامير حسن وبني هلال فانهم استعدوا للحرب والقتال بعد ذلك وهجموا على المدينة ومكنوا الضرب في الرجال من اليمين والشمال ونهبوا ما فيها من الامتعة والاموال ، فعند ذلك خرج الامراء والاعيان وأبنه في جماعة من النساء وطلبوا من الامير حسن العفو والامان فأجابهم الى ذلك ، وأرسل مناديا ينادي في الاسواق بالامان فتوقف القتال وخرج بنو هلال وأقاموا في الخيام وبلغوا المرام وزالت الاوهام .

وبعد عشرة ايام ولي ّ الامير حسن الامير صقر مكان ابيه على تخت الملك ثم امر بدقطبل الارتحال والمسير من تلك الاطلال. وفي الحال هدمت الخيام والمضارب وركب الفرسان ظهور النجائب وجد ّوا في قطع الروابي والآكام حتى وصلوا الى القدس الشريف حيث زاروا الاماكن المقدسة ، ثم غادروها الى غزة ، حيث طلب منهم صاحبها ويدعى السركسي الجزية ، فرفضوا ، فجمع جيشه وذهب ليحاربهم فنزل له ابو زيد ، فلم يوفق معه ، وارتد عنه ، فنزل له دياب في اليوم التالي فلم ينجح ولا ظفر منه بطائل ..

وكان ان دارت الحرب عامة في اليوم الثالث ، فلم يستطع بنو هلال الثبات امام العدو لكثرة عدده ، وقوة سلاحه ..

وامتدت الحرب .. ونزل الامير عقل لقتال السركسي وكان لا يزال شابا ولكنه كان قويا نشيطا ، ونزلت النساء معه تنشطه وتحمسه .. فنجح في الوقوف امام السركسي ، ثم تبارز هو والوزير فقتله ..

ولما رأى بنو هلال ان الحرب سوف تطول ، قرروا التحايل على

عدوهم وارسلوا جماعة منهم لاقتحام مدينة غزة ، اثناء قتالهم مع السركسي في ساحة الميدان ..

ولما اصبح الصباح خرج السركسي للميدان وطلب براز الابطال فبرز الامير دياب واستمر معه ساعة من الزمان ، ثم هجمت العساكر على بعضها البعض كأنها كواسر السباع وجعلوا يتضاربون بالسيف ويتطاعنون بالرماح حتى جرى الدم وساح ، وما زالوا على تلك الحال الى قرب الزوال فعند ذلك هجم الامير عقل وزيدان واقتلعوا السركسي من على ظهر الحصان وأوثقاه بالسلاسل والقيود ، وأخذوه الى الخيام وبلغوا المقصود ، ولما بلغ ابو زيد هذا الخبر فرح واستبشر وكان يحيط بالبلد من جهة الشمال فعند ذلك هجم بالفرسان والابطال على عساكر السركسي الذين انهزموا في ساحة المجال ، وحكم فيهم ضرب السيف حتى دخل بنو هلال غزة وغنموا الاموال وبلغوا الآمال وخلصوا صباياهم من الاعتقال، وكان قد اظلم الظلام فخرجوا وباتوا في الخيام .

وفي اليوم الثاني اقبل اهالي البلد والاكابر والعمد وطلبوا من الامير حسن الامان فأجابهم الى ذلك الشأن وأرسل مناديا ينادي بالامان والاطمئنان فاستكنت الاحوال واستبشر بنو هلال بالعز والاقبال ثم حضر قواد الفرسان والامراء والشجعان الى عند الامير حسن فشكرهم على ذلك الاهتمام وغمرهم بالعطايا والانعام ، ثم احضروا عقل وأكرموه غاية الاكرام على ما ابداه من الحرب والصدام من مزيد الاعتناء والاهتمام وقلده الامير حسن مقام الامراء العظام وألبسه سيفا مرصعا بنفيس الجواهر .

***

احضروا السركسي مقيدا بالاغلال وهو صامت الفم واللسان وأدخلوه لعند الامير حسن فترامى على قدميه وطلب العفو والامان ، وكان الامير ابو زيد يجلس عن يمينه والامير دياب عن شماله فهدده الامير دياب بالعقاب والانتقام على ما جرى فحينئذ طلب منه العفو والامان وقال : يا امير دياب : الوزير راشد كان سبب الاذية والضرر وكان سببا لسبي النساء الحسان وتشتيت النساء والرجال فأرجوك ان تعفو عني .

فأمر السلطان حسن باطلاق الاغلال عنه وقال : يا سركسي العفو

عنك اذا حفظت الشرائع الملوكية وهي: اوصيك بمحبة الله وحفظ شرائعه ووصاياه ما دمت على قيد الحياة ، ولا تكن لجوجا في الكلام ولا مدمنا للشرب بل حافظا لذمام الاحتشام ومتخلقا بأخلاق الكرام مع الخـــاص والعام متجنبا كلام الهزء والهزيان ، واقيا نفسك عثار اللسان لان صدور الاحرار قبورها فمن صان سره ملك امره ومن باح لم ينجح وزاد ندمه .

غادر بنو هلال ارض غزة في طريقهم الى مصر ، بعد ان استقرت الاحوال فيها ، وتوجهوا نحو العريش ، وكان صاحب العريش اميرا قويا يدعى البردويل بن راشد ..

وكان مجوسي النار دون العزيز الجبار ، ويسجد للشمس كـــل نهار ، ويلبس طاقية الاخفاء ويقرأ الطلاسم والبرهان فما يعود احـــد نظره من الفرسان وبهذا الشأن يقهر الابطال في بعض الايام .

وكان قد عرف بخبر بنت ملك سينا الملك مرصاد حاكم هاتيـــك البلاد وعنده ثلاثمائة الف فارس ما بين مدرع ولابس ، والبنت اسمهــا عليا ، وكانت ذات حسن وجمال وقد واعتدال وبهاء وكمال ... فلما سمع البردويل بوصفها جن بحبها فكتب الى ابيها الملـك مرصاد يطلب ابنته عليا الى الزواج فأبى الملك مرصاد، فحاربه البردويل وقتلهمع وزيره وأخذ بنته عليا زوجة له .

وفي هذه الاثناء وصل بنو هلال الى العريش ونصبوا خيامهم فيه، وسرحوا مواشيهم في تلك البراري والآكام ، فلما سمع بقدوم بني هلال الى بلاده ونزولهم في وادي العريش واطلاقهم طروشهم في كرومه يأكلون ويتلفون الاشجار اغتاظ وتكدر وشخر ونخر واقسم بـرب البشر ليقتلن بني هلال الاعداء الاشرار واستدعى بوزيره منصور فامتثل بين يديه فقال له : ما الرأي في هؤلاء العربان الذين نزلوا ارضنا ؟

فأجابه الوزير : يا طويل العمر ورفيع القدر ان كنت تريد رأيي فاكتب الى الامير حسن في طلب عشر المال والنوق والجمال فان اعطى كان قتالهم حراما ... وان رفض يكون قتالهم حلال وحق .

وكتب البردويل الكتاب واعطاه الى عبده سعيد فأخذه وسار الى ان وصل الى بني هلال وأعطى الكتاب للسلطان حسن فقراه وفهم معناه فاسودت الدنيا في وجهه وكان ابو زيد بقربه وقراه وفهم معناه فقال للعبد سعيد : قل لسيدك ليس لك عندهم غير الحرب ورمي الرقاب .

فسار سعيد وأخبر مولاه البردويل بذلك فغضب ، وفي هذا الحال

امر وزيره المنضد وكان ثعلبا يركب فيماية الف فارس ان يحارب بني هلال وان لا يترك منهم صغيرا ولا كبيرا الا قتله ، ولكن الوزير لم يوفق وذهب قتيلا من الجولة الاولى ..

وعندئذ تجهز البردويل لقتال بني هلال ، ونزل الى الميدان ، فلم يقف في وجهه احد من الفرسان ، وكان ابو زيد قد اعلن عن عزمه للذهاب الى البردويل بنفسه ومحاربته ، فخشي الامير حسن ان يقتل ابو زيد في هذه الرحلة ، فارسل له قيدا قيد نفسه به حتى لا يغادر المضارب ..

ولكن الحالة تبدلت بعد انكسار بني هلال ، فأطلق ابو زيد من قيوده ، وذهب توا الى قصر البردويل وناداه يدعوه للحرب والقتال ..

فلبس البردويل آلة حربه وعدته ونزل لابي زيد ، وبدأت المعركة مرعبة مثيرة ، جاهمة حاسمة ، استظهر فيها ابو زيد على البردويل ، الذي خانته شياطينه ، وبطلت اسحاره .

وكانت عليا زوجة البردويل تتفرج من الشباك فلما نظرت زوجها انقطع امره ، وابو زيد غلبه ، فرحت وصارت تزغرد ، فظن البردويل ان هذا الغناء لاجله ، فأخذته الحماسة والنخوة وهجم على ابو زيد مثل النمر اذا خطر ، فتلقاه ابو زيد كما تتلقى الارض العطشانة وابل المطر ، وعلا منهما الصياح حتى ملأ تلك الروابي والبطاح ودار الامير ابو زيد حول البردويل فايقن هذا في ذهاب روحه وزوال سعادته، فهز ابو زيد في يده عود الزان ورفع يده ، وقال : اللهم استر عبدك يا من رفعت السماء وبسطت الارض .

وطعن البردويل في صدره فخرج يلمع من ظهره، ومن عظم الطعنة اصاب الرمح صخرة كانت وراء البردويل فشقها فوقع البردويل على الارض يتخبط طوله بالعرض .

فقالت عليا : سلمت يداك يا فارس .

وحالا نزل ابو زيد عن ظهر الجواد وسحب لسانه وأزال اسنانه وأخذ الساقية والدرع والسيف والخوذة والرمح ثم تقدم الى تلك الصخرة وكتب عليها بخط واضح : هذه ضربة ابو زيد الهلالي .

واقبلت عليا زوجة البردويل وقالت : يا امير ابو زيد خذ هذه بذلة زوجي البردويل فأنت أحق بها من غيرك لانك انت القاتل لهذا الشيطان..
فأخذها ابو زيد وأتى نحو باب القصر وكان ذلك وقت العصر وختمه

بختمه وركب على الجواد وقال : خاطرك يا ست عليا يا بنت الكـرام فأرجوك عندما تطلبين للشهادة تظهرين واقعة الحال كالعادة .. وأخـذ منها مفتاح القصر وقفله وادار رأس جواده ناحية بني هلال فوصل فـي نصف الليل ثم دخل صيوان ام مخيمر فرآها تبكي فقال لها ابو زيد : ما لك يا ام مخيمر تذرفين الدموع ؟

فقالت له : انني ابكي لغيابك عني .

فقال لها ابو زيد : الحمد لله على اجتماع شملنا ... ووضع ما اتى به من امتعة البردويل في الصندوق وقيد نفسه بالقيد الذهبـي وتظاهر بان لا له ولا عليه .

***

هذا ما كان منه وأما ما كان من حسن وهو في الديوان وحواليه الامارة فقد قال لهم: البارحة قد التهينا بالضيوف وتركنا ابو زيد وما علمنا كيف حاله، والبردويل ما عاد طلبنا للحرب فقوموا وأذهبوا لعنده ودعوه يأتي حتى نعرف ما هو رأيه .

فراح احد الامارة وأخذ معه المفتاح غير الذي كان مع ام مخيمر ودخل على ابو زيد وقال له : عن امر السلطان ارفع القيد عنك . فقال ابو زيد : قد صار لي ثلاثة ايام لم اشاهد احدا منكم ، هل نسيتم اليوم ابو زيد ، ولكن الله يجازي كل واحد بأعماله .

فقال له الامير فايد : والله يا ابو زيد ما نسيناك ولكن السبب وجود ضيوف عند حسن وهذا هو المانع من زيارتك. وبعد هذا الكلام فك القيد من رجله وركب دون سلاح وما حمل معه سوى عصاة بيده وتوجـه نحو حسن ، فحين وصل الى الخيام قام الجميع وحيوه باحسن تحية ثم قال الامير :

ـ يا حسن لا تؤاخذني يا ابن عمي فقد غفلنا منك بمقابلة الضيوف.

فقال ابو زيد : وماذا عملتم من المصالح في حرب البردويل ؟

فقالوا : نحن ارسلنا وراءك لاخذ رأيك .

فقال ابو زيد : والله ان البردويل فارس من الفرسان ولا احـد يقدر يجاريه فما لي ارى الا ان ترسل له عشر المال والنساء والعيـال ونذهب اليه والمحارم في رقابنا .

فقال حسن : في هذا الوقت قد قلت الصواب بارك الله فيـك وأعطاك كل ما يكفيك الان ارحت افكارنا واشتريت أعمارنا .



صباح اليوم الثاني الذي قتل فيه البردويل اخذ الرعيان في نسريح المواشي حسب العادة فسار منهم ثلاثة رعيان وسرحوا مواشيهم بقرب قصر البردويل وكانوا عادة ينامون في ظل القصر ، لان البردويل ما كان يقوم الا العصر ، فقبل ان يبلغوا المكان المقصود رأوا شخص البردويل على الثرى ممددا وهو منفوخ مثل البرميل ولم يعلموا انه قتيل ... ولكن توهموا بأنه راصدهم ليقاتلهم ، فقالوا لبعضهم :

ــ الافضل ان نعود من حيث اتينا قبل ان يفيق من نومه ..

واتفق اكثرهم على هذا الرأي. الا ان عبدا منهم يدعى مسعود ، فضّل ان يتقدم نحو البردويل ، ويدّعي انه هارب من بني هلال طالبا حمايته ورعايته ..

فلما اقترب وفحصه ادرك انه ميت مقتول ، ففزع وصاح يقول :

ــ يا اصحاب القصر سيدكم مقتول وانتم لا تدرون .

فخرجت عالية زوجة البردويل وظهرت على الشرفة ، وتظاهرت كأنها لا تعرف من يكون القاتل .. بل لقد كلمت العبد كما لو انه كان هو الذي قتل زوجها ، وفعل هذه الفعال ..

وعندئذ فطن العبد الى ما قد يفيده من هذا الامر فحمل الراس وذهب الى عند الامير حسن مدعيا انه قاتل البردويل .. ولما وصل الى صالون الامير حسن رمى بالرأس على الارض ..

فقال الامير حسن لما شاهد الراس :

ــ لا بد ان يكون الذي فعل هذا من كبار الابطال ..

فوثب مسعود وقال : لعينيك يا سيدي عبدك مسعود اتى بالرأس واخمد من ذلك الشقي الانفاس واعدمه الاحساس .

فقال الامير حسن: لله العجب من كان يقول ان منية البردويل سوف تكون على يد عبدنا مسعود وقد كان هذا يخطف الارواح ويتركها كالاشباح وذقنا من حربه البلاء والكرب وانواع الذل والتعب .

ثم التفت الى العبد مسعود: وكيف عملت في قتل البردويل ؟

فقام وقبّل يد الامير حسن وقال : كان عبدكم حول قصر البردويل والجمال سارحة فأخذتنا هجعة النوم فنمنا قليلا ثم استيقظنا فوجدنا شاتا غابت عن اعيننا حتى بلغت قصر البردويل فتوجهت بنفسي لاردها وعن عنادها اصدها ... فلاقاني ابن راشد ونهرني وظن انه يهددني فتقدمت اليها لاردها فرفع يده بالدبوس وأراد اعدامي الحياة ، فراحت

الضربة خائبة غير صائبة ... ثم وضعت حجرا في مقلاعي وفعلت فعل داود في جليات واذاقت البردويل الحسرات وبالقضاء والقدر اتت الضربة بين عينيه فخرج الدم يتدفق من بين شفتيه، وحالا تقدمت اليه وعجلت عليه وطرحته على الارض فانقطع منه النفس وسحبت في يدي السكين وقطعت راسه واخمدت نفسه وأن هؤلاء العبيد يشهدون لي بذلك .

فقال العبيد : نعم انه قد قطع راس ابن راشد امامنا .

فقال مسعود : اريد منك يا سيدي ان تجعلني سيدا على كافة العبيد وأن تزوجني ابنة بيضاء واربع جوار سود وأن تعطيني جوادا من خواص الخيل وعدة حرب كاملة والف دينار ومواشي وعبيد وغلمان .

فقال القاضي : تستاهل يا مسعود ازود من ذلك .

وفي الحال نهض ابو زيد على اقدامه وقال : كفاك يا عبد السوء ما تستحي ان تقول قتلت البردويل ايها الهبيل ...

قال العبد : نعم وحياة رأسك وراس الامير حسن .

فقال له : يا عبد السوء انت أفرس مني ومن دياب .

فقال مسعود : ان لكل انسان منية والبردويل منيته على يدي .

فقال ابو زيد : في اي شيء قتلته ؟

فقال حسن: كيف ما كان قتله ارحنا منه، ربما كان يلعب فيالميدان وسقط فيه الحصان ومسعود حز رأسه .

فقال ابو زيد : تمهل يا حسن قليلا .

ثم قام وفتح فم البردويل وقال : اظنه كان اخرس فهو ليس له لسان فما هذا الشأن ؟

وقام الجميع ونظروا ذلك وتعجبوا ، فقال : يا مسعود لما البردويل طلع ما كلمك .. فقال : نعم وكان صوته مثل الرعد القاصف ..

وحالا وقف ابو زيد وقال : اين دروعه واين طاقيته وسيفه ورمحه وبدلته وحصانه ؟

وقد اخذت من ابو زيد الحدّة فقام وركب جواده الى عند ام مخيمر واتى بعدة البردويل والحصان والطاقية والسيف والرمح وكل من كان عنده من امتعة البردويل واتى بهم الى صيوان حسن ووضع الجميع امام الامارة .

ثم رمى بلسان البردويل امام دياب وقال له : انظر هذا اللسان .

فبهت الامارة وتعجبوا من هذا الامر، واما مسعود العبد فحين راى

ما جرى صار ينسحب من الصيوان لعند الرعيان ، وأما الامارة فقاموا من ساعتهم وركبوا خيولهم وكانوا الفـــي فارس من الفرسان المعدودة وقالوا لأبو زيد : اركب معنا ، فقال : انا ما اذهب حتى ينكشف لكــم الخبـــر .

فركبوا وفي أوائلهم حسن وسار الجميع نحو قصر البردويـــل . وعند وصولهم اليه وجدوه قصرا عالي البنيان ، فتقدم حسن نحو باب القصر فوجده مختوما بختم ابو زيد ، فقال حسن : يا ترى هل يوجـــد احد في هذا القصر ؟ فما أتم كلامه الا وعاليـــة اشرفت من الشباك ، فشاهدت حسن وأمارة بني هلال وكان للقصر باب صغير غير الذي قفله ابو زيد وختمه بختمه ، فنزلت عالية منه واقبلت امام حسن وقبلت يديه وتملت بخدمته وحينئذ سألها عن قتل ابن راشد فحكت له ما جرى لأبو زيد معه وما فعل العبد مسعود بعد ذلك .

فلما فرغت الست عالية من كلامها وحسن وبقية الامارة يسمعون قولها قال حسن : والله ما هذه الا افعال ابو زيد .

ثم قال الى عالية : وأين المفتاح ؟

فقالت له : مع ابو زيد .

وبينما هم في الحديث اذ اقبل ابو زيد وهو راكب ابن الحصان فعندما اقبل قاموا له على الاقدام ولاقوه وحيوه بكل الاكرام واثنوا عليه وقالوا له : لله درك من بطل مقدام لا تخشى نوائب الايام .

حينئذ قام ابو زيد وأخذ مفتاح الباب المصفح بالحديد والـــزرد النضيد وفتح لهم وادخلهم الى القصر ليتفرجوا على حسن فرشه .

هذا ما كان من امر هؤلاء، وأما ما كان من قوم البردويل عندمـــا علموا بموت مليكهم ذهبوا الى ابن اخته مسعـــود وكان عدوا لخالـــه البردويل وكان ينزل فيأطراف العريش وأخبروه بمقتل خاله البردويلثم قال لهم سعيد : ما الرأي عندكم في بني هلال ؟

قال الجميع بصوت واحد : ان بني هلال نجم سعدهم عال وأميرهم حسن الهلالي قد ارتقى الى ما لا يرتقى اليه غيره من المعالي ولهذا نشير عليك ان نركب جميعنا ونسير اليه ونطلب منه ان يجلسك مكان خالك .

فاستصوب سعيد كلامهم وسار معهم لعند حسن ، فلما وصلوا الى دار بني هلال طلبوا ان يؤذن لهم بالدخول على الامير فدخلوا عليه وقبلوا الارض بين يديه وأخبروه عن حالهم فرحب بهم حسن غاية الترحيب .

والبس الامير سعيد خلعة سنية وحلة ملوكية وأجلسه مكان خاله وعين عليه الجزية وكتبوا كتاب سعيد على الست عالية امرأة خاله البردويل .

وبعد ذلك امر حسن بدق الطبول وأن يرحلوا من تلك الارض فنشرت الرايات وركبت العماريات على الهوادج واعتلى الفرسان ظهور الخيول وأخذوا يجدّون السير حتى وصلوا الى مصر وكان فيها ملك يسمى الفرمند بن متوج ، وكان ملكا عظيم الشأن يحكم على ابطال وفرسان يكل عن وصفهم اللسان ، حتى وصلوا الى مصر فنزلوا في تلك النواحي والاطراف وروعوا الزرع حتى حصدوا الحصيد .

وبلغ الفرمند نزول بني هلال في ارضه ، وكان قد رأى مناما غريبا فارسل الى من يفهم بتفسير المنامات ، فاخبره بنزول بني هلال في ارضه ، فضاق صدره ، وضاقت الدنيا في وجهه .. وجمع وزراءه يسألهم عما يفعل ، فاجمعوا على ان يطلب من بني هلال الجزية او يحاربهم حتى الموت . فلما وصل الكتاب الى الامير حسن ضاق صدره ، والتفت الى ابي زيد يسأله رأيه فقال هذا :

ـ علينا ان نرسل للفرمند ما طلب وفي هذا النهار بالذات . فسرّ الرسول لما سمع ، وعاد الى سيده بالخبر السار ...

وعندئذ التفت الامير حسن الى ابي زيد وسأله : ماذا عولت ان تفعل يا ابا الحيل ؟

قال له : مرادي ان احتال على الفرمند بحيلة ما سبقني عليها احد، وهو ان اختار اربعين بنتا من بنات العرب ومن جملتهم الجازية ام محمد وأحضر اربعين صندوقا ويكون في كل صندوق طبقتين فأضع في الطبقة الاولى القماش والحرير وفي الطبقة الثانية الفرسان المغاوير ونحملهم على ظهور الجمال وأركب مع البنات والاحمال ونسير الى عند الفرمند على سبيل تقديم المال وندخل السراية وهو لا يعلم بهذا الحال حتى اذا وصلنا الى هناك احتلنا عليه وبنجناه وبلغنا منه ما نتمناه ونهبنا ما في قصره من الاموال ، ثم ارتحلنا بالحريم والعيال من هذه الاطلال وليس لنا غير هذا التدبير .

فلما انتهى ابو زيد من هذا الخطاب التفت اليه دياب وقال له : ليس هذا الرأي بصواب لاننا نخاف ان ينكشف الحال ويعود الامر الى الوبال وتقع البنات الابكار في ايدي الانذال ... والرأي عندي ان نبادرهم بالقتال ونشتغل فيهم بضرب السيوف وطعن النصال .

فتعهد ابو زيد امام السادات في النساء والبنـــات ان يرجعهن سالمـات .
فقال له السلطان حسن : افعل ما تريد ايها الفارس الصنديد .

***

فعند ذلك تجهزت البنات في الحال وفعل ابو زيد كما اشار ... وكانت هذه البنات من الحسناوات وكان من جملتهن وطفا بنت ديـــاب وجمال الطعن بنت ابو زيد وبنت القاضي بدير والست ريما وبدر النعام وجوهر العقول وسعد الرجا ... ولبس ابو زيد قرونا من جلد الثعالب والذئاب ، وتقلد بالسيف من تحت الثياب ، وأرخى له سوالف طوال من ذئاب الكدش والبغال ، وامسك بزمام ناقة الجازية ام محمد وقد تعجبت من افعاله السادات والعمد ، وقال له السلطان حسن : لله درك على هذه الحيلة التي لم يسبقك عليها احد ، ثم ودعه وسار بمن معه مـــن البنات الابكار والصناديق الكبار وفي داخلهن الاقمشة الحسان والابطال والفرسان حتى دخل المدينة وطلع الى قصر الفرمند فوجده بأحسن الزينة والمفروشات الثمينة ، وكان الفرمند قد بلغه قدومهم من الخدام فالتقاهم بالترحاب والاكرام فسلم النساء عليه وجلسن حواليه فقال : اهـــلا بالكواعب والاكرام والاصدقاء والاحباب ، وكان ابو زيد امام الجميع وهو يرقص ويلعب ويضحك ويطرب وكان لابسا تلك الثياب التي ذكرناها وهو بالصفة التي وصفناها، فسأل الفرمند البنات والنسوان: ومن يكون هذا الانسان فقلن:هذا مفرج الغموم بحركاته ومفرح الحزانى، فانسر غاية السرور وسأله عن اسمه فقال : قشمر بن منصور .

قال : مثلك من يصلح لمسامرة الملوك لما فيك من الحركات وحسن السلوك فاملأ هذا الكأس حتى اشربه امام الجلاس ويزول عني اليأس .

فملأه وقام معه فأخذه الملك وهو مسرور الفؤاد وقد بلغ المراد وحصل على ما اراد ولم يعلم ان دون ذلك خرط القتاد ... فعند ذلـــك غنت البنات ودقت على الآلات حتى كاد يرقص القلب ويطير من شدة الطرب والفرح الكثير ، وكان الملك قد وقعت عينه على الجازية فهام بها وتعلقت نفسه فيها لانها كما تقدم الخبر جميلة المنظر ولطيفة المحضر فأجلسها الى جانبه الايسر والتفت الى ابو زيد وقال : من تكون هذه يا قشمر ؟ فقال:

هذه الجازية ، ذات الوجه الحسن وأخت الامير حسن .

فالتفت اليها وقال لها : غني لي على الكأس يا حلوة الجمال فان قلبي قد مال. وما زال يشد عليها ويتذلل اليها حتى اجابته الى مقاله وأخذت تغني .

فلما فرغت الجازية من غنائها طرب الفرمند فشرب الكأس عن اسمها وهو يتأمل في محاسنها وبياض جسمها ثم امر (قشمر) ان يملأ له كأسا اخر فملأه وناوله اياه فأخذه وتقدم الى وطفة بنت الامير دياب وقال لها : غني لي على هذا الكأس يا بنت الامجاد ففعلت ..

ثم ان الفرمند صرف الاغوات والخدم ، حتى يستقل بمجلسه بالفتيات الجميلات ..

ومضى الفرمند يشرب ويشرب ، والنساء يغنين له ، وهو يزداد طربا وسرورا ، حتى فقد وعيه ، فقام ابو زيد بتبنيجه حتى غاب عن وعيه ..

ثم نهض ابو زيد ونزع ما كان عليه من الثياب حتى عراه وجعله عبرة لمن يراه ، ولفه بحرام عتيق ثم فتح الصناديق فخرج الابطال مثل الاسود ، فنهبوا ما في القصر من الاموال والتحف الغوال ، ولم يتركوا شيئا في القصر الا وأخذوه بالتمام وكانت وطفة قد اخذت خاتم الفرمند وهو على تلك الحالة التي تقشعر منها الابدان ، ولو ارادوا قتله لقتلوه وسقوه كأس الهوان ، وساروا حتى وصلوا الى باب البلد فاعترضهم الحارس فأرته وطفا خاتمالفرمند وقالت: نحن من جملة الخدم في طريقنا الى اهلنا لاجل المنادمة. فعند ذلك فتح لهم الباب ولم يعرف حقيقة الاسباب فساروا في سرور وأفراح وقد استبشروا بالفوز والنجاح الى ان وصلوا الى بني هلال ففرح بقدومهم جميع الرجال ودخل ابو زيد على الامير حسن بن سرحان وأعلمه بما جرى وكان فالتقاه بالترحاب والاكرام وشكره على ذلك الفوز العظيم .

فلما انتهى الامير ابو زيد من وصفه لما جرىمعه وفهم الامراء فحوى كلامه صاحوا جميعا : الاوفق لنا ان نرحل من هذا المكان قبل ان يدهمنا الابطال والفرسان ، فاستحسن الامير حسن هذا الخطاب ورآه عين الصواب . وفي الحال امر بدق الطبول للمسير والارتحال ... فدقت الطبول وركب الفرسان ظهور الخيول وارتحلوا من تلك الاطلال بالحريم والعيال حتى ابتعدوا مسافة مسير يومين عن البلد خوفا من امر يتجدد.

وكان الامير دياب وزيدان في اول الطعن بباقي الفرسان .

***

وأما ما كان من وزراء الفرمند واكابر الاعيان فانهم كانوا قد استبطأوا حضور ملكهم الى الديوان فلما فات الوقت ولم يحضر اخذهم القلق والضجر وقالوا : لا بد لهذه العاقة من سبب .

وكان له ابن اخت اسمه محمود الغضنفر وكان وزيره الاكبر وقائد العسكر .. فصعد الى القصر في جماعة من الحجاب وقرع الباب فلم يجبه احد فخلع الباب ودخل الى القاعة فوجدها خالية ووجد خاله ملفوفا بالحرام ومطروحا على الارض .. فغاب عن الصواب واستعظم هذا المصاب فأرسل وأحضر ارباب الديوان فلما دخلوا ورأوا ملكهم على هذا الحال اعتراهم الذهول .

ثم ان ابن اخته اعطاه شيئا ضد البنج فعطس وعاد لوعيه فوجد انه ملفوف في ذلك الحرام وهو في حالة الذل والهوان ، ولم يجد احدا من البنات والنسوان فزاد مصابه وعظم اكتئابه فبادر ابن اخته بالعجل واتى بحلة من افخر الحلل فألبسه اياها وقد اعتراه الخجل ، لاسيما انه رأى خاله على تلك الحال وهو بين الوزراء وسادات الرجال ، فالتفت الملك الى من حوله من الوزراء وقواد العسكر وقال لهم :

ــ أتعلمون من فعل هذه الفعال واحتال عليّ بهذا الاحتيال حتى بلغ القصد والآمال ؟

قالوا : من يكون يا ملك الزمان ؟

فأخبرهم بواقعة الحال وطلب منهم ان يكونوا مستعدين للحرب والقتال ، فاستعظموا الفضيحة واستغربوا تلك العملية وكيف ان ابا زيد جاءه بتلك الوسيلة ودخلت عليه الحيلة وقالوا :

ــ الامر اليك وها نحن بين يديك .

فأمر بدق طبول الحرب والاستعداد للطعن والحرب فدقت في الحال واجتمع الفرسان والابطال ... فركبوا في الحال واستعدوا للقتال وركب محمود في مقدمة الجنود وخفقت الرايات والبنود ، فقال له الفرمند : اتبع بني هلال الانذال وامنعهم عن المسير والارتحال ، وأقم فيهم بضرب السيف والنصال من اليمين والشمال وأنا اتبعك بباقي

الرجال في عاجل الحال .

ثم سار الوزير بالفرسان والابطال وجدّوا في قطع الروابي والتلال حتى ادركوا بني هلال ، فلما رأى بنو هلال ان رجال الفرمند قد اقبلوا من تلك البرية استعدوا للحرب والقتال وركب الفرسان والابطال والتقوا بعضهم ببعض في تلك الارض وخرج الوزير محمود من بين الصفوف فصال وجال في ساحة المجال وطلب براز الفرسان والابطال وقال لهم : هل من مبارز هل من مناجز فلا يبرز لي كسلان ولا عاجز، اليوم يوم هز الهزايز.

لم يترك ابو زيد الوزير يتم كلامه حتى صار قدامه ، وانطبق انطباق الاسود عليه فالتقاه الوزير بالعجل وهجم عليه وحمل وأخذ في الطعن والصدام والمهاجمة والاقدام ، والمفارقة والالتزام ، واستمر على تلك الحال الى وقت الزوال فعند ذلك دقت طبول الانفصال فافترقا على سلامة ولم يترك احدهما على الاخر علامة .

وعند رجوع ابو زيد الى الخيام سأله الامير حسن عن خصمه فقال: هو بطل همام وليث درغام .

فقال الامير حسن : لا بد ان نهجم عليهم بالمواكب ونيلهم الويل والمصائب لان الحريم والعيال قد سبقونا مع الامير دياب .

***

وفي اليوم التالي استعد الجند للحرب والصدام فنفخت الزمور ودقت الطبول وركب الفرسان ظهور الخيل واعتقلوا بالسيوف والنصول وهجمت المواكب على المواكب والكتايب على الكتايب وتطاعنوا بالرماح فلله در ابو زيد فارس الجحجاح ، وكذلك الامير زيدان وباقي الابطال والفرسان فانهم قاتلوا اشد قتال وما زال السيف يعمل والدم يبذل ، حتى دقت طبول الانفصال فارتدت عن بعضها الابطال .

واستمر الحال كذلك ثلاثة ايام ، وفي اليوم الرابع انكسر جند الوزير ولم يعد لهم ادنى ثبات فولى الادبار .

واتفق في ذلك اليوم قدوم الفرمند بباقي الجند فلما راى ما جرى اغتاظ وحمل على بني هلال بمن معه من العساكر وأحاط بهم من كل جانب فنكس باعماله الميامن والمياسر، وحكم الطعن في الصدور والخواطر، وكانت العساكر المنكسرة لما رات جماعتها ظافرة قد ارتدت الى معركة

الصدام وقاتلت بعد ذلك الانهزام ، وكان الملك الفرمند قد التقى بالامير حسن في ساحة الميدان وهو ينخي الفرسان والابطال فتقدم اليه وهجم عليه فالتقاه حسن بالعجل وتطاعنا بأطراف الأسل وتضاربا بالسيوف على القلل حتى اختلفت بين الاثنين ضربتان قاطعتان وكان السابـق الفرمند فراحت خائبة بعدما كانت صائبة وأما ضربة حسن فالتقطها الفرمند في درقة البولاد ، فسقطت على رقبة الجواد فبرتها فوقع الفرمند علـى الارض وتحطم وصار جواده كالعدم ، فعند ذلك هجم فرسانه مثل سيل المطر وخطفوه وخلصوه من الخطر. وفي الحال التقى الرجال بالرجـال والابطال بالابطال وتقاتلوا الى الزوال ، حتى دقت طبـول الانفصال فافترقت العساكر عن بعضها ونزلت كل طائفة في ارضها .

ولما اصبح الصباح جمع الامير حسن اكابر الديوان ومن يعتمد عليهم من الفرسان وقال لهم: مرادي ان اكتب الان وأستدعي الامير دياب ليحضر الى هذا المكان ويساعدنا على الحرب والطعـان والا طال الحال وقتلت الفرسان ، فاستصوبوا رأيه وقالوا : لقد اشرت بالصواب فاكتب الـى الامير دياب ، ففعل وارسل الكتاب مع رسول خاص ..

وصل الكتاب الى دياب وفتحه وقراه وعرف فحواه فاحمرت عيناه وزاد به بلاه، وأمر بدق الطبول في الحال وأقبلت اليه الفرسان والابطال فاعلمهم بجلية الاحوال وقال : استعدوا لمساعدة بني هلال قبل ان يحل بهم الوبال وتسبى الحريم والعيال فلو لم يكونوا في اشد الاهوال ما كان كتب لي حسن هذا الكتاب وأرسله مع النجاب .

فلما سمعوا منه هذا الخطاب تحمست منهم جميع الجهال والشباب وركبوا في الحال طالبين مكان الصدام ، وفي مقدمتهم دياب وزيـدان حتى اشرفوا على بني هلال عند الغياب فالتقوهم بالاكرام والترحـاب وشكروهم على ذلك الاهتمام . وفي اليوم الثاني ركب الابطال والفرسان استعدادا للمعركة المقبلة ، وكان اول من برز الى ساحة الميدان وطلب براز الشجعان الوزير محمد بن اخت الفرمند وقائد الجنود ، ولما صار الى ساحة الطعان قال : هيا يا بني هلال اين فوارسكم المشهورة ايـن ابطالكم المذكورة، اين الامير دياب الذي تلقبوه بليث الغاب . فما تم كلامه حتى صار دياب أمامه وأخذ يهدده ويتوعده ..

فلما فرغ دياب من تهديده انطبق على خصمه مثل ساعة الغمـام فالتقاه الامير كسبع الآجام وأخذا في العراك والصدام وما زالا في قتال

شديد وضرب يشيب الطفل الوليد نحو ساعة من النهار وقد اختلفت بين الاثنين ضربتان وكان السابق الامير دياب ليث الغاب فجاءت الضربة على رأس الوزير فحل به الهلاك والتدمير فوقع على الارض يتخبط بعضه ببعض فلما رأت عساكر الخصم ما حل بوزيرها من البلية ، عظمت عليهم الامور وانقضوا على بني هلال مثل الصقور وأحاطوا بهـم من اليمين واليسار فالتقاهم بنو هلال كالجبال وتقاتلوا أشد قتال ، حتى جرى الدم وسال وعظمت الاهوال وما زالوا على تلك الحال الى وقت الزوال ، فعند ذلك دقت طبول الانفصال ، فرجعت العساكر عن ساحة القتال . اما الفرمند فانه بات مشغول البال وفـي قلبه نيران تشتعل على مـا فقد من الرجال .

ولقد طالت المعارك مع فرمند اياما واياما حتى ختمها ابو زيد بقتل الفرمند ، فاضطرب الحال عند رجاله ، وعادوا الى مصر مسرعين ، وبنو هلال خلفهم ، وما لب ثاكابر القوم ان تدخلوا لحقن الدماء فقبل بنو هلال الصلح في الحال ، واقاموا الامير منذر ، ابن الفرمند مكان ابيه ، وبذلك انتهت هذه الحرب وتم الصلح ، ومضى بنو هلال في سبيلهم الى ارض جديدة ، وبلاد اخرى ..

- ٨ -

الطريق الى مصر

وصل بنو هلال في مسيرتهم الى مكان يقال له (المحاضة) .. وكان ماء هذا المكان ممتدا في السهول والبساتين والحقول ، بحيث عجزت الفرسان عن المسير فوق الماء ، وخافت الخيل من وروده ، فاستدعى الامير حسن (ابو زيد) وسأله ان يبحث لبني هلال عن طريق مأمون يستطيعون معه قطع هذا المجرى المائي الذي وقف في سبيلهم ومنعهم من الوصول الى مصر ..

اقبل ابو زيد وبعد ان جرى حول الماء بعض الوقت ، عثر على مكان ماؤه خفيف ، فلكز جواده وعبر من هذا المكان الى الضفة التالية وتبعه الباقون .

وفي اثناء عبور الجياد والفرسان حصل تزاحم بين النساء ، ووقع خلاف بين الجازية وعليا ، ففضبت عليا وعادت الى الوراء واخبرت اباها غانم بما جرى بينها وبين الجازية ، فاغتاظ كثيرا، وأمر جماعته بالعدول عن قطع النهر ، والعودة الى الوراء ، فلما شاهد ابو زيد تراجع الظعن، سأل عن السبب فأخبروه ان هذا من فعل عمه حسن ..

فاسرع يعدو نحو عمه وسأله عن السبب فبكى العم وقال :

قال الامير الجعبري بما جرى	العرض مني هتك بين الملا
اسمع كلامي يا امير سلامة	النار في قلبي تهب وتشتعلا
عند المخاضة اجتمعت نساكم	وبناتكم فوق الهوادج تنجلا

فتزاحمت عليا وجازية بالهوادج عنـــد المحاضة والميـاه ينجدلا
شتمت عليـا الجازية بكلامهـــا وعلت عليهـا المصائب والبـــلا
قالت لها عليا ما هذا الامـــل منك ايـا بنت سرحان العـــلا
انا زوجـــة ابو زيد الفتــــى هو ابن عمك في الرجال مجمـلا
قالت فروحي يا عشيقة عبدنـا سأقطع راسك ما أخاف من الملا
زادت علـى عليا كلاما يغيظهـا كسرت لحرمتها أتتنـــي ترفلا
فبكت وشكت وقالت : ارتجع فرديت طعني يا سلامة عاجـلا
وحياة راسك ما بقينا نرجـــع للعرب وحيـاة النبي المرســلا

فلما فرغ حسين الجعبري من كلامه وفهم ابو زيد فحوى شعـــره ونظامه كان ذلك عليه اقوى من ضرب السيف واشد ، ولكنه اخفى الكمد واظهر الصبر والجلد وقال له : اعلم ايها العم المحترم انه ليس على كلام النساء ارتباط .

والتفت الى زوجته وقال لها : اعلميني يا بنت الكرام بما جـــرى بينك وبين الجازية من النفور والخصام .

فأعلمته بواقعة الحال وأوقفته على جلية الاحوال وكيف انها قابلتها بوجه الغضب وشتمتها بدون سبب وجعلتها معرة بين نساء العرب .

فقال : اخزي عنك الشيطان وقومي بنا حتى نرجع الان .

قالت : اذا رجع ابي رجعت انا .

فجعل يتلطف بخاطر عمه ويطلب منه الرجوع ، فقال : ان كلامك على العين والرأس الا في هذا الامر فانه غير مقبول ومسموع الا بشرط ان تقطع رأس الجازية وتعدمها الحياة فعند ذلك ارجع وأكون قد بلغت مـــا اتمناه .

فقال : امرك يا عماه ...

ورجع ابو زيد على الاثر والسيف بيده مشتهر حتى دخل على الامير حسن وهو في الصيوان وحوله الامراء وأكابر الاعيان فسلم عليه وهـــو عابس ، فقال له السلطان حسن : علامك يا زين الفوارس فانـــي اراك عابس غضبان . فأعلمه بما جرى وكان وقال له في اخر الكلام : مرادي قتل الجازية بحد الحسام واسقيها كأس الحمام على ما بدا منها وحدث من كلام الذم والافتراء .

وحدثه بما فعلت من الاول الى الاخر . فقال السلطان :

دع عنك كلام النسوان وقم بنا حتى نستعطف بخاطر عمك ونعود..

ولا تجعل سببا لشماتة العدو الحسود . فأجابه الى ذلك وركب معه وعند وصولهما المضارب والخيام استقبلهما حسين الجعبري بالترحاب والاكرام فأخذ حسن يستعطف خاطره بالكلام ويقول له : ارجع يا ابن الكرام ودع عنك كلام النسوان ولا تشمت بنا الاعداء في هذا المكان لاننا غرباء عن الاوطان ولا يجوز ان نختلف في هذا المكان .

فقال : حق الواحد الاحد اني لا ارجع الا براس الجازية .

فقال : ابشر بما طلبت وارجع بالعجل فاني ابلغك القصد والامل .

فعند ذلك اجاب وامتثل ورجع معهما في الحال بمن معه من العيال ولما بلغ الجازية هذا الخبر اخذها القلق والضجر وخافت من الخطر فسارت الى عند القاضي بدير وسلمت عليه وترامت على قدميه وقالت : انا في جيرتك وقد وقعت على حضرتك لانك كهف الانام ومن يلتجىء اليك فلا يضام .

فقال لها : ابشري بالسلامة والخير فقد صرت في جوار القاضي بدير ..

ثم اخذها الى عند الحريم وزاد لها في التكريم والتعظيم لانها من اشرف نساء العربان ولاسيما انها اخت الامير حسن العظيم الشأن .

وبينما هو كذلك اذ اقبل الامير حسن وأبو زيد فالتقاهم بالبشاشة والترحاب وأخذ معهما في الحديث والخطاب وقال لهما: ما لكما متكدران فأعلماه بذلك الشأن ، وأن مرادهما قتل الجازية دون باقي النسوان .

فقال : نفسي بيدها فكيف يمكنني ان اسلمكم اياها وقد دخلت الى داري وصارت في زمامي فهذا لا يصير ولو شربت كأس حمامي .

فقال ابو زيد : لا بد من قتلها على وقاحتها وفعلها .

فتقدم حسن الى القاضي بدير سرا وقال : اخاف من رجوع ابو زيد الى نجد اذا لم نبلغ غاية القصد ونضيع في هذه الديار ويحل بنا الهلاك والدمار .

فقال القاضي : من الصواب ايها الانجاب ان تحضر عليا والجازية للمحاكمة والاستنطاق فالتي تكون مدينة منهما تستوجب للقتل والاستحقاق ولا يعود يلومنا احد من الناس لان هذا الامر خارج حد القياس فلما انتهى القاضي من هذا الخطاب رأوه عين الصواب. وهكذا استقر الحال ورجع ابو زيد الى عمه وأعلمه بواقعة الحال وأرجعه مع ابنته عليا الى الديوان ... وكذلك حضرت الجازية ايضا ووقفت خلف

الستار مخافة ان يقتلها ابو زيد بالسيف البتار .

سألها القاضي عن سبب اهانتها لعليا وما الداعي الموجب لذلك فأنكرت امام الحاضرين بانها قالت لها كلاما يغيظ او يهين .. بل كان كلامها على سبيل العتاب وهو من عادة الاحباب .

فالتفت الى عليا وقال : يظهر من هذا الكلام بان الجازية لم تتكلم في حقك بشيء يورث القيل والقال . فان كان معك شهودا فأحضريهم لكي يشهدوا عليها .

فذهبت للبنات اللواتي كن في ذلك الوقت حواليها وأعلمتهن بما جرى وكان وطلبت منهن ان يحضرن معها للديوان فقلن : نحن لا نذهب معك ولا نترك الجازية ونتبعك .

فعادت على الاثر واعلمت القاضي بذلك الخبر فقال : هي بريئة ليس عليها ادنى حق . فعادت لابيها وهي في غم عظيم ، فلما رآها ابو زيد راجعة تنهد من فؤاد جريح وعظمت عليه المصيبة وقال : لو لم تكن معي عليا في هذه الديار الغريبة لما كنا ملكنا شيء ولا ظفرنا بأحد ... ولو كنا ضعاف العدد لانني كنت اذا رأيتها وهي في الميدان يعتدل مني الحال ولا اعود اشبع من الطعان .

***

لم يقبل ابو زيد بالحكم الذي اصدره القاضي وقرر العودة من حيث اتى ، والعدول عن التقدم نحو مصر ...

ولما شاهده الامراء والجنود يفعل ذلك ضاقوا ذرعا وخافوا من العاقبة ، لانهم بدون ابي زيد لا يستطيعون عمل شيء ..

وقرر الامير حسن على الاثر ان يفعل شيئا .. وذهب الى عند حسن الجعبري يرجو ان يعفو ويصفح ، ويترك ابا زيد يوصلهم الى مرادهم في تونس ، ولا يدعهم عرضة للاقاويل وشماتة الاعداء ..

فقال الجعبري لابي زيد :

ـ انا افضل العودة الى بلادي رغم جدبها .. واما انت فعليك البقاء مع قومك ، حتى تصل بهم الى تونس ..

وافق ابو زيد على هذا الكلام وقال :

ـ سمعا وطاعة ..

ثم انه ودع زوجته وعمه ورجع من ساعته وكان قد تأثر على فراق عليا لانها كانت أعز عليه من نساء الدنيا ، فبكى بدمع مهراق من الـــم الفراق، فلما اشتد عليه الحزن اجتمع الامراء والاعيان ودخلوا على الامير حسن في الصيوان وقالوا : ما رأيك ايها السيد المحترم ان ابو زيد كثير القلق والغم .

فقال عرندس ودياب وجماعة من اكابر الشباب :

ـ من الصواب ان يتزوج فتزول عنه الشدة ويحصل على الفرج.

فصار كل واحد منهم يقول : انا ازوجه ابنتي واشاركه في مالي ونعمتي .

ثم جمعوا بنات امراء القبيلة وزينوهم بأحسن الثياب الجميلة وكان من جملتهم ثمانين بنت من بنات الامارة ، حتى الجازية عرضت نفسهـا عليه ، ولكنه رفض الجميع ..

وفي اليوم الثاني عبر بنو هلال نهر النيل وما زالوا يقطعون البراري والبيد حتى وصلوا الى بلاد الصعيد ، وكان الحاكم عليها في تلك الايام رجل صاحب قدر ومقام وفضل واحترام قد اتصف بالجود والكـــرم ومحاسن الشيم وبجوده كانت تضرب الامثال في الشرق والغرب واسمه الماضي ابن مقرب .

وكان صاحب حسب ونسب واصله من بلاد العرب وكانت اقامته في بلاد نجد ... الى ان تملكها بنو هلال بالقوة والجبر وقتلوا ملكهـا الهيدبي بن عطية واستوطنوا فيها وانتشروا في جميع نواحيها، غير انه لكثرة الرجال وازدحام المراعي بالنوق والجمال ارتحل الماضي من تلـك الارض وسار بأهله وعياله ونوقه وجماله ومن يلوذ به من رجاله وأتـى الى بلاد الصعيد ، وسكن في تلك البيد ، وكان ملكها رجل جبار صاحب بطش واقتدار وهيبة ووقار يقال له (نصار) فائتلف مع الماضي اشــد أئتلاف ، وجعله نائبه في تلك البلاد وشاركه في ماله ونعمته ، وبعـد موت الملك نصار تسلطن الماضي على الديار وكان محبوبا عند الكبـــار والصغار ، فلما وصل بنو هلال الى تلك البلاد كما تقدم التقاهم الماضي بالترحاب والاحترام ، واظهر لهم مزيد الاكرام نظرا لما بينه وبينهم مـن الحب القديم والوداد وانزلهم في بلاده مع رعاياه واجناده وأخذ الامـير حسن ومن يلوذ بحضرته من اعوانه وأكابر عشيرته الى سرايته وأجلسهم في أعز مقام ، وذبح لهم الطيور والاغنام فشكره الامراء على حســـن

اهتمامه ثم اخذهم الى ابياته وأقام الامير حسن في ضيافته مع اهله وسادات عشيرته مدة عشرة ايام في الاعزاز والاكرام وشرب مدام وأكل طعام ، وبعد ذلك تفرقوا في بلاد الصعيد وانتشروا في البيد وهم في سرور وأفراح وبسط وانشراح . فاتفق في بعض الايام وبينما كان الماضي جالسا على الطعام قال له احد الاعوان :

ـ اعلم يا ملك الزمان قد بلغني من بعض النسوان انه يوجد في بني هلال امراة بديعة الجمال عديمة المثال في الحسن والكمال والقد والاعتدال وفصاحة المقال لا يوجد مثلها بين الخلق لا في الغرب ولا في الشرق اسمها الجازية كأنها الشمس الضاحية ، اذا خطبتها منهم حصلت على السرور والافراح لان طلعتها تنعش الصدور والارواح .

فقال الماضي : ان طلبناها منهم يقولوا : الماضي يريد حق ضيافته من بنت من بناتنا .

فقال له الوزير : يا ملك الزمان، الزواج بين الناس ما هو عيب والذي يتقرب من الناس خير من الذي يبعد عنهم .

فقال بعض الحاضرين وكان من الوزراء المتقدمين :

ـ لقد سمعت انا ايضا بخبر هذه الصبية وما فيها من المحاسن البهية واعلم انهم لا يزوجونها بأحد ولو كان من الملوك وأعاظم العمد ، فاذا كان ولا بد لك ايها الملك من ذلك فاطلب اولا فرس دياب الخضرا التي لا يوجد مثلها في جميع الممالك ، وأنا اعلم انه لا يعطيها لان نفسه معلقة فيها وبهذه الحيلة يسير لك رسالة على ان تطلب الجازية وتنال المراد بعون رب العباد ..

فلما سمع الماضي هذا الكلام تعلق قلبه بالجازية وهام ، واستحسن هذا الخطاب فكتب الى الامير حسن يطلب الزواج بالجازية .

ولما وصل الكتاب الى الامير حسن احتار من هذا الطلب ثم اعطى الكتاب لابي زيد وسأله : الراي عندك انا اعلم ان دياب ما يطلع عن الخضرا ولو ذهب بنو هلال .

فلما فرغ ابو زيد : الراي عندي ايها الملك ان اذهب انا وانت مع القاضي بدير الى منازل الامير دياب ، ونعلمه بما تم وجرى ونطلب منه ان يعطينا الخضرا وندفع له عوضا عنها مهما قال من الاموال والخيول والا ساءت أحوالنا وانشغل بالنا .

فقال الامير حسن : دبرنا يا ابو زيد برايك الحسن .

فركبوا وساروا في الحال حتى اشرفوا على تلك الارض فالتقاهم الامير دياب بالاكرام والترحاب وأولم لهم الولائم وقال : اهلا وسهلا يا سادات الاكارم. وبعد ان جلسوا قليلا التفت الامير حسن الى دياب ابن غانم وقال له : لي عندك حاجة اريد ان تقضيها وتبلغ آمالنا . نريد منك الخضرا ولك ما تريد غيرها ..

فقال دياب: يا امير حسن كل شيء عندي في قبضة يدك الا الخضرا لان روحي وروحها سواء .

فاغتاظ الامير حسن من هذا الجواب وقرر العودة من حيث اتى .. فمنعه الامير غانم عن الرجوع ، واضافه عنده بمن معه من الجموع وذبح لهم الاغنام واكرمهم غاية الاكرام ، وفي اليوم التالي دخل عليه ابنه دياب وعاتبه اشد عتاب واغلظ عليه في الخطاب وأمره ان يعطيه الخضرا رغما عنه وجبرا فأجابه الى طلبه حالا .. ثم انه اسرج الخضرا في الحال وقادها الى الامير حسن فسلمها الى النجاب وأمره ان يسير بالخضرا لعند الماضي ويعطيه الكتاب .

فبكى دياب على فراقها وتقدم اليها وعانقها فأخذها النجاب وجدّ في قطع الاراضي حتى وصل الى عند الماضي فقدم له الفرس واعطاه الكتاب ، فلما قرأه ورأى الخضرا تعجب من كرم الامير دياب ثم انه سلمها الى اثنا عشر سايسا ووكل بها جماعة من الفوارس والتمت من حوله اكابر قومه وهنأوه على الخضرا ، ونظروا اليها فلم يروا لها نظير بين الخيل فقالوا له :

– يا امير ماضي هنيئا لك بهذه الفرس الله يجعلها مباركة .

فبينما هم بالكلام واذا بنجاب مقبل من صدر البر يريد الماضي ولم يزل الى ان وصل الى باب صيوانه فحول على باب الصيوان وسلمه كتابا وتمثل ووقف بين يديه ففتحه وقراه بين السادات والعمد واذا به من عند شكر الشريف بن هاشم زوج الجازية ام محمد يتضمن سلاما وافرا وشوقا كثيرا ومن اعجب ما تضمنه وحواه تنازله عن الجازية وتقديمها له لتكون من جملة نسائه .

وكان السبب الذي اوجب هذا الامر المستغرب الذي لم يسمع بمثله في العرب والعجم هو ان بني هلال عند وصولهم الى مدينة الشام وحروبهم مع شبيب التبعي .. ارسلت الجازية الى بعلها المشار اليه كتابا تسلم عليه وتعلمه عن مسيرها الى بلاد الغرب وانهم سيجتازون في

طريقهم على الامير الماضي بن مقرب وانه يكاد ان ترجع اليه وتراه ، فلما اطلع زوجها على هذا التحرير وقراه وعرف حقيقة فحواه اوجبه الحال ان يكتب للماضي بتنازله عن زوجته له ، لحبه اياه وتقديره ..

فلما فرغ الماضي من قراءة الكتاب وفهم الحاضرون ما حواه من الخطاب ، اعتراهم العجب وأخذهم الطرب ، وقالوا : وحق علام الغيوب: لقد جاء هذا الكتاب طبق المرغوب لانه قط لم يخطر في بال احد بأن شكر الشريف يتنازل عن الجازية ام محمد واتفق راي الجمهور على ان يرسل الماضي الخضرا الى بني هلال ويعلمهم بواقعة الحال ويطلب منهم الجازية بلا اهمال فاستصوب الماضي هذا القرار ، وايقن ببلوغ الآمال وكتب الى الامير حسن بهذا الصدد وارسل الخضرا وطلب منه الجازية ام محمد .

- ٩ -

بنو هلال والزناتي

وصل كتاب الماضي الى الامير حسن ، فسأل اخته رأيها في الزواج من الماضي ، فرفضت وقالت :

ــ زوجي هو شكر الشريف ، وهو والد اولادي محمد وعمر، فكيف تريد مني على الزواج بغيره ، ولو قطع هو الاسباب بيني وبينه ..

فكتب الامير حسن الى الماضي بذلك ، فرد عليه يقول : ان الشريف نفسه هو الذي تنازل له عن الجازية ، ولولا ذلك ما طلبتها ..

فدهش الحاضرون في ديوان الامير حسن حين تلقوا هذا الجواب ، وكانت الجازية اشدهم دهشة .. ولكنها رفضت الذهاب الى عند الماضي .

ولكن ابا زيد نصحها بالذهاب ، بعد ان رخص لها زوجها بذلك ، خصوصا والرجل قد احسن الينا وساعدنا ، ولم يحاول ايذاءنا ، عندئذ وافقت الجازية ، ولبست اجمل ثيابها ، وذهب الامير حسن معها ، فارسل الماضي عددا من رجاله لاستقبالها واستقبال الامير حسن، برئاسة احد وزرائه .

وكان الماضي في الوقت نفسه قد زين قصره باحسن زينة ، وحلى ستائره بافخر انواع الحرير .. وكان الماضي على باب القصر بانتظار وصولهم .. فلما وصلوا استقبلهم احسن استقبال ... وأجلس حسن في صدر المقام وجلس حوله الامراء الفخام ، ونزلت العروس عند الحريم وهي في تعظيم ثم دارت الحلويات وكاسات الشراب على مائدة الامراء والسادات وبعد ذلك حضرت سفرة الطعام وفيها من جميع

اللحومات كالضأن والدجاج ، وبعد ان اكلوا وشربوا رقصت النساء والبنات وغنت المغنيات بأنواع الاصوات ، فكانت ليلة لم يسمع بمثلها ولم يفعل احد نظيرها واستمر الحال على هذا المنوال، والقوم في فرح وسرور وغبطة وحبور ثلاثة ايام على التمام .

وفي اليوم الرابع استأذن الامير حسن من الماضي بالمسير لبلاد الغرب ، فقال الماضي : ايها الملك لماذا لا تبقى عندي في هذه الارض فبلادي واسعة كثيرة المراعي ...

فشكره حسن على اهتمامه وترحيبه وقال : لا بد من المسير ... فعرف الماضي بان لا بد لهم من المسير الى تلك البلاد فبكى بدمع كالمطر من شدة ما جرى له من الكدر ودعا لهم بالتوفيق وبلوغ المراد ، ولما صمم بني هلال على الذهاب والرحيل جعلت الجازية تبكي بدمع جزيل ... لانه لم يكن لها صبر ولا سلوان على فراقهم ساعة من الزمان فلما زاد عليها الحال واكثرت من النحيب ، انزعج الماضي من تلك القضية وسمح لها بالذهاب معهم الى الديار الغربية ... ففرح بذلك الامير حسن وأمر الفرسان بالركوب فركب الفرسان وسار الماضي بصحبتهم مسافة ثلاث ايام حلف عليه حسن بعدها بالعودة، فترجل حينئذ جميع الفرسان وودعوا بعضهم بعض فدعا لهم الماضي بالتوفيق والانتصار وسارت بنو هلال لبلاد تونس لخلاص مرعي ويحيي ويونس .

***

وما زالت بني هلال تقطع السهول والبوادي من بعد رحيلهم من عند الماضي حتى وصلوا لبلاد المغرب ودخلوها ونزلوا في وادي اسمه وادي الرشاش .

وكان ذلك الوادي بين جبلين فلما نزل بنو هلال فيه نزلوا من جبل الى جبل والوحوش تجفل منهم وتهرب من قدامهم ..

وكان للزناتي ابن اخت يقال له العلام بن عضبة فالتفت الزناتي للعلام وقال له : اخرج للصيد وأتنا بما تصيد .

فأجابه: سمعا وطاعة .

فقام وركب واخذ جماعته ومعهم الكلاب والصفارة وطلعوا الى الصيد فما مشوا الا قليلا واذا بالوحوش من كل جنس بين ارجلهم

فاصطادوا حتى ملأوا خيلهم .. ورجع هو ومن معه فلما دخل العلام ومن معه والقوا الصيد امام الزناتي قال له : يا علام ما هذا الصيد انه من العجائب ...

فقال العلام : سبب هذا العبد الذي حبست رفاقه فراح وأتى لنا بقومه ..

امسك الزناتي عن الكلام بعد ان سمع هذا الجواب ، واخذ يحسب الف حساب لمجيء بني هلال لارضه ، ولما ذهب للنوم رأى في منامه ان جماعة من العربان نزلوا ارضه ، وكانوا كالجن .. ولهم سلطان كبير الشأن ، ومعهم العبد الذي زاره قبلا ، وترك رفاقه عنده ، وشاهد كيف امتد سلطانهم في ارضه ..

فقام من منامه خائفا مشفقا على نفسه وشعبه واستدعى وزيره العلام يسأله عن سر هذا المنام وتفسيره ...

ثم ارسل شخصا من رجاله يدعى سليمان ليكشف له اخبار القوم وعددهم فعاد اليه بما ادهشه وحيره ، وأخافه من الاخبار ...

وكان ان وصل الهصيص في هذه اللحظة ، فلما شاهد تجهم وجه الزناتي ورجاله سألهم عن الخبر ، فاخبروه ، فدعا للحرب والقتال ، ونصح الزناتي باستدعاء جميع انصاره ومؤيديه ليكونوا حوله في ساعة الشدة هذه. ونزل الزناتي عند رغبة الهصيص وكتب الى جميع الامراء حوله يعلمهم بنزول بني هلال في ارضه ..

***

تجهز الهصيص على الاثر لملاقاة بني هلال ..

ولما قاربوا الارض التي كان العرب فيها قدم الهصيص ابن عمه العلام بالف فارس ليجوس الارض ويستكشف له الاخبار .

سار العلام بالالف فارس وبعد قليل شاهد فرسانا مقبلة نحوه وكان الفرسان ابو زيد ومعه من الامارة الخفاجي عامر وزيدان بن غانم، فلما نظر الامير ابو زيد الى جماعة العلام قال الى رفاقه : احترسوا من هؤلاء الابطال ، هؤلاء هم قوم العلام ابن عم الزناتي . ولما وصلوا الى بعضهم ووقعت العين على العين نزل العلام للميدان وغاص وبان ... وسقط اليه ابو زيد مثل سبع الجردان فقال له العلام :

ـ من تكون من الفرسان ومتى حضرت الى هنا الست عبد المحابيس؟
قال : نعم يا جبان .
فقال له : اين الرجال ؟
قال له ابو زيد : انا معي الف والباقون خلفي وأنا ابو زيد الهمام .
فلما سمع العلام هذا الكلام صار الضياء في عينيه ظلاما والتقى البطلان كجبلين وحان عليهما الحين وزعق فوق رأسيهما غراب البين ، وكان السابق في الضربة الامير ابو زيد في ذلك الحسام فرده العلام على ترس البولاد فسقطت الضربة على رقبة الجواد فأبرتها كما يبري الكاتب القلم فوقع العلام على الارض فأدركه قومه وأخذوه من قدام ابو زيد فمال ابو زيد من اليمين والشمال يمزق العدو فولوا هاربين وللنجاة طالبين وفي اعقابهم بني هلال حتى ادخلوهم في الجبال وبقيت حالتهم اسوأ حال فرجع عنهم بنو هلال كاسبين الخيل والاموال . ولما اقبل العلام وقومه على الهصيص وهم على تلك الحال صاح فيهم وقال : اعلموني بما جرى من هؤلاء العربان فأخبروه فطلع الهصيص ومن معه بالجبل مثل السيل اذا سال والبحر اذا جال حتى اقبلوا الى بني هلال فنظر ابو زيد واذا بغبار قد حجب الابصار ...
فقال الى قومه : كثرت عليكم القوم يا شجعان .
فقالوا : نحن فداك .
وبدأت المعركة شديدة كما هي حالة المعارك ، وحارب فيها بنو هلال حرب الابطال الصناديد .. وكانت النساء في العمارات والهوادج يصرخن وينادين ازواجهن وابناءهن ليحاربن حرب من يفضل الموت على الحياة ..
واستمع الشباب والكهول الى اصوات النساء فحاربوا رجال الهصيص حربا شديدة مزقت صفوفه ، وهدت فرسانه ، وتمكن ابو زيد من جرح الهصيص في المبارزة ..
ولكن الهصيص لم يقهر تماما ..
وما لبث ان استطاع جمع فلوله ، ليهاجم بني هلال غدرا وبالحيلة. وليتمكن من اسر بعض النساء ، والاستيلاء على المواشي والانعام ..
وسمع ابو زيد الضجة وكان نائما ..
سأل عن الخبر ، فاخبروه . بما كان ، فما كان منه الا ان اسرع الى جواده ، وصاح يدعو الباقين من بني هلال ، واسرع الى مكان لا بد ان يمر به رجال العدو .. ليلقاهم ويستخلص السبايا والمواشي منهم..

واقبل الهصيص ورجاله بعد قليل ..

ونزل عليهم ابو زيد نزول الصاعقة ..

واسرع الهصيص يبحث عن ابي زيد ليرده ويقتله.. وتقاتل البطلان ودارت بينهما معركة هائلة تغلب في آخرها ابو زيد على خصمه ، وقطع رأسه بضربة سيف ..

فلما شاهد قومه مصير قائدهم هربوا وتفرقوا في الارض وهم في خوف شديد ..

في هذه الاثناء وصل دياب وغانم والقاضي والامير حسن ، الى مكان المعركة ، ولكن بعد انتهائها ، وبعد ان شكروا ابا زيد على ما فعل، اخذوا يفكرون فيما يجب عليهم عمله بشأن مواشيهم واغنامهم حتى لا *تتعرض لغزو العدو مرة ثانية* ..

وسأل الامير حسن الجازية عن رأيها في الرجل الذي يعهد له بحماية الطرش ، فنصحت بالامير دياب ، فكلفه الامير حسن بذلك ، فلم يرضه هذا التكليف ، لان رعاية الاغنام لم تكن من شأنه .. والامراء لا ترعى الاغنام والمواشي .. وكتم الامر في قلبه وقال يجاوب الامير حسن :

انا دياب بن غانم يا حسن طيب ... ولا تخافوا عليّ لو سطا الديب
طيب قلبك على بوشك يا ملك ... ولا تخافوا عليّ في المحاريب
المال مال ما يدنو عليه احد ... اني مجرب باذن الله تجريب
انا ابن غانم وكل الناس تعرفني ... فهم شهودي وتعرفني الاقاريب
وأنتم كونوا على حذر نحو انفسكم ... وحافظوا على حريمي والمراكيب
ثم احضروا للزناتي حين يطلبكم ... كونوا قوما عوابس بوقت المضاريب
انتم هلال ما حد يقهركم ... حكمتم الارض تشريقا وتغريب

فلما انتهى دياب من كلامه ، شكره الامارة على ما قاله ، وذهب ابو زيد معه يدله على المكان المناسب لتسريح هذه المواشي فيه ، مع رعاتها الذين يبلغون الستة آلاف راع ..

***

لما عاد ابو زيد من اختيار المكان لرعي القطيع الكبير الذي كانت

تملكه بنو هلال ، استقر دياب في الوادي ، ونصب رقباءه على الجبال حتى لا يؤخذ على حين غرة ..

واما الزناتي فانه لما علم بمقتل اخيه ، اشتد به الغضب ، وجرد جنوده وعساكره لمحاربة بني هلال . فلما التقى الجيشان ، خرج الزناتي للميدان ، فنزل له ابو زيد ، واشتد بينهما القتال ، وزعق فوق راسيهما غراب البين ، واخيرا تمكن ابو زيد من الزناتي ، فضربه بسيفه فوقع ارضا ، فاسرع رجاله الى تخليصه ، واشتبك الجيشان في القتال والصدام حتى اشرف الليل ، وتوقف القتال ..

فلما عاد بنو هلال جلسوا في صيوان الامير حسن ابن سرحان ، فقال الامير حسن :

ـ لماذا يا ابو زيد تقاتل القوم انت بنفسك وما تعطيني خبر وأنت والله ما عدت تركب معنا .

وأمر بتقييده ... وقال : يا ابو زيد ان كنت طائع الله يا امير فضع رجليك في هذا القيد .

قال ابو زيد : سمعا وطاعة وأنا اتبع كلامك في كل ساعة . وحط القيد في رجليه وقعد في بيت الامير حسن . فلما اصبح الصباح دق بنو هلال طبولهم ونزلوا الى الميدان فنزل الزناتي فلما لم يجد ابو زيد معهم طمع فيهم واغار عليهم وقتل منهم كل جبان ومحق الفرسان ودخل فيهم في ضروب وابواب ... وشتتهم بين الروابي والآكام واحتل موضعهم وقام فيه دونهم .. وكسرهم حتى اجبرهم على التراجع والقى الرعب فيهم وقتل الرجال وأخذ الخيل والجمال والحريم والاطفال . فذهب بنو هلال الى عند ابو زيد وهو مقيد فقالوا :

ـ الى متى يا ابو زيد قم فك القيد من رجلك .

فأشار يقول : قال ابو زيد اسمعوا يا من لقلبي توجعوا والقوم منكم تشفعوا ، اليوم يوم حربي ، حسن دق طبولك ، ثم شد خيولك لان قوم الزناتي جولك ، فرسان قوم الغربي يا عبد هات الحمرا ، وأقلم طواسي السمرا ، وهات بنت الحمرا في سرجها وركابي وسيفي اليماني عندي من عهد ابي وجدي ، محفوظ دائما عندي لاجل الوغى والحرب ، هلال يا شجعان يا منية الاعيان ، عدوكم جاني هيا نقيم فيه الرعب وقوموا بنا نلقاهم بسيوفنا ، ونكسرهم ونفوز بكسب اغنامهم ، بطعننا والضرب ،

وشوفوا الزناتي جاكم يريد سفك دماكم ، هذا العدو اتاكم قيموا عليه الحرب .

فلما فرغ ابو زيد من كلامه والامارة يسمعون نظامه شكروه .

ثم اخذ يستعد للحرب ودق طبوله ونزل في الميدان ، فسمع الزناتي طبول بني هلال فنزل هو وقومه الى ساحة الميدان . فقال الزناتي :

ـ لا ينزل لي الا ابو زيد .

فما اتم كلامه الا وأبو زيد صار قدامه ... فقال له : ايـن كنت مستخبي يا ابو زيد يا صاحب المكر والكيد ؟

فقال له : انا كنت غايب واليوم جئتك محارب .

التقى البطلان ودارت رحىالحرب بينهما حتى تعب منهما الساعدان وكل من تحتهما الجوادان ، وداما في قتال وجدال الى ان قرب الزوال ودقت طبول الانفصال وذهبت كل فرقة تطلب الاطلال ، وباتوا يتحدثون الى ان اصبح الصباح فركب الخصمان واصطف الجيشان ووقعت العين على العين وصاروا في قتال وأهوال الى قرب الزوال ، وبقوا على ذلك الحال سبعة ايام حتى كلت منهم الزنود وذابت المكبود . وفي اخر النهار ولى الزناتي هاربا والى النجاة طالبا ، ففار عليهم الامير ابو زيد بقومه وبقي غاير حتى ارجعهم اربعة عشر مرحلة الى الوراء ، وأدخلهم البلد فلما رجع الزناتي الى المدينة اقفل ابـواب تونس وراءه وقال : انا ما بقيت اقاتل ابو زيد . ثم استدعى بقلم وقرطاس ودواية من الذهب الخاص واخذ يكتب الى الامير حسن ويتحدث عن بطولته ، وكيف على استعداد للقضاء على بني هلال ، فرد عليه الامير حسن اشد رد واقساه وهدده بالويل والثبور وعظائم الامور ..

فلما وصل الكتاب الى الزناتي قراه وعرف رموزه ومعناه قطع الكتاب ورماه وصاح على من عنده من الفرسان ، وأمر بدق الطبول والركوب الخيل ... واما الامير حسن فبعدما ارسل رد الجواب دق طبول الكفاح وطلب النصر من الله الفتاح ونزل هو وقومه الى الميدان ، فنزل الزناتي وغاص وبان وقال : لا ينزل لي ردي ولا جبان ولا يبرز لي الا الامير حسن امير العربان . فلما انتهى من كلامه ... صار حسن قدامه ... وقال له الزناتي :

ـ انت مثلي وأنا مثلك ، واقتتلا حتى الغروب ..

ولما اصبح الصباح نزل ابو زيد الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل اليه الزناتي وقال له : من امرك تنزل لحربي انا طالب حسن حتى اذيقه طعني وضربي .

فقال : انا ابو زيد انا خصمك جئتك ، فعند ذلك التقى البطلان كأنهما اسدان او جبلان وحان عليهما الحين وزعق فوق رؤوسهما غراب البين حتى كلت منهما السواعد وتعبت منهما الزنود وبقيا على هذا الحال الى وقت الزوال ، وفي ثاني يوم نزلا الى الحرب والكفاح ، فأما ابو زيد فزاد الحرب على الزناتي خليفة ولكن الزناتي ادار رأس جواده وولى هاربا وللنجاة طالبا فانكسر قومه فتداركه ابو زيد حتى وصل الى مدينة تونس ففتح البواب للزناتي حتى دخل واغلق الباب في وجه ابو زيد ... فقام ابو زيد من عزم الركاب وضرب الرمح في الباب بقوة وثبات وعاد الى قومه والاصحاب من بعد ما فرق جيش الزناتي خليفة وقتل منهم كل قرم الى ان وصل بنو هلال الى بيت الامير حسن ودار فيما بينهم الكلام وشكروا ابو زيد الهمام ومن بعد ذلك بسطوا لهم الطعام فأكلوا جميعا حتى اكتفى الخاص والعام .

***

اجتمع الزناتي الى قومه بعد هربه من وجه ابو زيد فدار الحديث حول قوة هذا الماكر وبراعته في فنون القتال والحرب ، وكيف ان ضربته خرقت الباب حتى نفذت من طرفه الاخر ..

فزاد هذا الكلام في قلق الزناتي ، وقال لقومه :

ـ كيف الرأي مع هذه المصيبة التي وقعنا فيها ؟

فعجزوا جميعا عن اعطاء رأي ينقذهم من الموقف الذي وقعوا فيه..

فقرر الزناتي عندئذ المصالحة ، وكتب الى ابي زيد يعرب عن استعداده للافراج عن الشباب الثلاثة .. فوافق ابو زيد والامير حسن وكتبوا له ان يفعل ، ليتأكدوا من صدق كلامه ..

فارسل الزناتي الى ابنته سعدا لتفرج عن الشباب ، فترددت ، واتت اليه تقول :

ـ أن بني هلال لن يغادروا هذه البلاد سواء اطلقت سراح شبابهم او لم تفعل ..

وكا نمرعي عندها لما وصلها امر والدها ، قالت تصف حالتها وهيامها ..!

تقول سعدا بنت امير تونس وجرح الهوى قد علقتني حباله
انا ما ضناني غير مرعي وذلني فيا رب تجمع شملنا وأواصله
طوله يشابه الرزيني اذا مشى متى تسمح الايام وأنظر جمايله
انا خائفة يطلقكم وترحلوا لان سلامه كل يوم يزاعله

فلما فرغت سعدا من كلامها انشد مرعي يجاوبها :

يقول الفتى مرعي بعين وجيعة لها بين نور الهاجعين ذراف
لان حبك يا مليحة اذابني وجاني هواك والغرام صداف
ولكن ابوك يا مليحة أهانني بالحبس صرنا موجعين ضعاف
وان كان يطلقنا فلا يمنعه حتى نروح لاهلنا وسلاف
وأخبر حسن بما فعلتيه معنا ابوك بين الملا عراف
ويرسل الى ابوك نخطبك منه ونعطيك خيلا مع اموال ظراف
هذا مرادي يا مليحة ومنيتي نريد الحلال وما نريد خلاف
وأما الخنا فليس هو من شأننا لاني انا من نسل قوم شراف
ولا بد نملك ارضكم وبلادكم وآخذك حقا بغير خلاف

***

وكان ان بقي الشباب في حبس الزناتي ، حتى اذا اقبل الليل بعثت سعدا فطلبت مرعي ليسامرها ليلا ..

واما بنو هلال فلما تأخر وصول شبابهم اليهم ، ادركوا ان الزناتي لم يصدق في وعده لهم ، فذهب ابو زيد الى باب تونس ، وطرقه .. فسأله الحارس عما يريد فقال :

ــ اريد سيدك لاعدمه روحه ..

فذهب الى سيده يخبره بالامر ..

فكلفه الزناتي عندئذ بمبارزة ابي زيد ، فان نجح اهداه مدينة ، وزوّجه بسعدا ابنته ، فنزل العبد ، لمبارزة ابي زيد ، ولكنه لم يقف امامه الا دقائق معدودات ، حتى رماه ارضا ، ورفع يده بالسيف ليضربه به ، فطلب العبد الامان ، فضحك ابو زيد ، واشترط عليه خلع ملابسه والقاء سلاحه ، لان مثله لا يجب ان يحمل السلاح ..

وعاد العبد الى سيده باشنع حال ، فكتب الزناتي الى ابي زيد ثانية يطلب منه وقف القتال ...

وكان ان اجتمع ابو زيد الى الامير حسن وبقية الامراء يدرسون موقفهم .. وماذا يفعلون ..

وفي هذه الاثناء جاءهم عبد من عبيد الامير حسن يخبره فيه ان الزناتي قد طلب النجدات من جميع الاطراف ، وانهم في سبيلهم الى تونس ..

قرر ابو زيد على الاثر ان يذهب على رأس قومه ، بني زحلان لاعتراض هؤلاء القادمين واحدا بعد الاخر ، قبل ان يصلوا الى الزناتي..

حاول الامير حسن ان يرده عن عزمه هذا فأبى ، وكان اعتراض الامير حسن ان الزناتي قد يعرف بسفره فيهاجمهم .

فرد عليه ابو زيد بان الزناتي لن يحرك ساكنا قبل ان تصله النجدات ..

وصبر الامير ابو زيد الى الليل ، وركب هو وقومه بني زحلان فلما كان الليل عقص ثعبان ابا زيد وهو نائم في فخذه فصاح ينادي قومه ، فأتوا اليه وبحثوا عن الثعبان فقتلوه ثم نقلوه الى مضاربه ، واهتمت بنو هلال بمرض ابي زيد ، ولما عرف الزناتي بذلك وعرف ايضا بغياب الامير دياب ، تشجع وقوي عزمه على مهاجمة القوم واطلق الغارة على بني هلال ..

وتحرك بنو هلال بدورهم ، واطلقوا الطبول ، وبرز الزناتي الى الميدان يريد فارسا من الفرسان ، فبرز اليه السلطان حسن والتقى البطلان وعلا الغبار وانكسرت بينهم الرماح والسيوف الثقال ، وكلت منهم الزنود ، وبقوا على هذا الحال حتى دق طبل الانفصال فافترقا .

فلما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح طلعت الشمس على رؤوس الروابي والبطاح فبرز الزناتي للميدان ومال وضرب الطعان فأراد السلطان ان يبرز اليه فمنعه قومه الامارة وقالوا له : نخاف عليك من الزناتي وأبو زيد ملسوع ودياب غائب وان صار لك حادث تروح بني هلال شرايد في الجبال .

فقام الخفاجي عامر وطلب الزناتي فمنعه حسن وقال : انت نزيل عندنا والنزيل ليس له حرب .

فقام الخفاجي وأقسم : ان لم ينزل الى الزناتي يرحل بقومه

عن بني هلال ، فتركوه. وثاني يوم دق الزناتي طبله الى الميدان فبرز اليه الخفاجي عامر فالتقيا . وفي اليوم الثالث كلّ الزناتي وولى هاربا من قدام الخفاجي ، وكان عند الزناتي ولد يسمى مطاوع ، فقال الزناتي : غدا انزل اليه وأنا مستخبي بين الزرد وانت انكسر قدامه فيلحقك حتى يفوتني فأجيله من وراءه وأطعنه من قفاه وأعدمه الحياة .

***

وأما ما كان من الخفاجي فانه رأى مناما انه شاهد قدام بيته شجرة طويلة جاءها نجار قطعها وحفر على شلوشها ، فقام من منامه مرعوبا واستدعى نوابه وامرأته وحدثهما عن منامه .. ففسره ظريف احد اعوانه بانه دليل على ان الخفاجي سوف يتعرض لخطر في المعركة ..

وتعرض الخفاجي للخطر فعلا لما نزل الى الميدان لمبارزة الزناتي ، فلما قويت المبارزة كلّ الزناتي وملّ ، فولى هاربا فلحقه الخفاجي ، وكان احد اعوان الزناتي مختبئا بين الاشجار في الطريق ، فلما شاهد الخفاجي يطارد مولاه ، اطلق عليه سهما اصابه بين كتفيه فالقاه على الارض قتيلا ..

فلما شاهد ظريف ذلك اسرع نحو القاتل وطعن بالرمح جواده فأصابه ، وسقط القاتل ارضا ، وعندئذ اشتد القتال بين الفريقين ...

ولقد حزن الامير حسن لموت الخفاجي حزنا عظيما .. والتمت عليه العربان من كل ناحية حتى ملأوا الروابي والبطاح ، وكسروا عليه السيوف والرماح وغسلوه وكفنوه وواروه التراب ... واما الزناتي فانه دق طبله ونزل الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فما برز اليه احد فقال حسن :

ـ ما بالكم يا بني هلال ما احد يبرز للزناتي ؟

فما احد رد عليه ..

فقال القاضي : مرادي اكتب اوراقا نضعها في جراب ، والذي تطلع ورقته ينزل غصبا عن رقبته .

فقال : هذا هو الصواب والامر الذي لا يعاب .

فكتبوا الاوراق ووضعوها في الجراب ومد القاضي يده وشالها فقال : ورقتي .

فقالوا : انزل اليه .

فقال : ضعوني قرب قبر الخفاجي لان اجلي قد دنا وحل ارتحالي من هذه الدنيا ولكن امر الله ما منه مهرب .

فقالوا له : اذا لزم الامر ما لها زيد ولا عمر .

فقام واشتد واعتدل ورمى العمامة ونزل الميدان . فقال له الزناتي: من تكون من الفرسان ؟

قال : انا قاضي العربان .

قال له : قاضي ... وتعرف الحق من الباطل ... والى حربي تنزل ؟

- ١٠ -

حروب بني هلال مع الزناتي

بعد مقتل الخفاجي ، وقع السحب على القاضي بدير ، فتمكن منه الزناتي وقتله ، فنزل له شقيقه مفضل ، وثبت امام الزناتي اياما ، حتى ملّ الزناتي وكلّ ، فجمع رجاله وقال :

ـ من منكم يقتل الامير مفضل ايها الفرسان ..؟

فقال مطاوع : انا انزل اليه ..

وقام من ساعته يستعد للمعركة ولبس آلة الحرب والقتال وبرز الى الميدان فنزل اليه مفضل وقال له :

ـ اين الزناتي ؟

فقال له : انا جئت بالنيابة عنه .

فلما التحم مفضل ومطاوع واشتد بينهما الحرب والطعن والضرب حتى تقطعت في ايديهما الرماح واختلفت بينهما ضربات شديدة قاتلةفكان السابق مطاوع ضرب مفضل بالحسام على هامه حط رأسه قدامه .

فلما رأى بنو هلال قاضيهم قتل التحم الجيشان وزعق فوق رؤوسهم غراب البين .

وأما بنو هلال فأخذوا مفضل قتيلا من بعد ما راح منهم خلق كثير .

وأما الزناتي فعاد من جهته وزالت عنه الهموم والاتراح لكن بنته سعدا ما هان عليها قتل مفضل ، وكان عند ابوها حكيم اسمه فتوح فاستدعته لعندها وقالت له :

ـ اريد منك دواء يبرىء السقم من لسع الثعبان لان عندي جارية انقرصت ، فجلب لها دواء يقطع آثار السم ، فاستدعت عبدا من

عبيدها وقالت له : خذ هذا الحنجور واعطيه الى ابو زيد واياك ان تدع احدا يدري بما فيه ولك مني ما تريد . فأخذه العبد واعطاه الى ابو زيد ورجع، فشرب ابو زيد قليلا منه فبرىء لوقته وساعته ... وفي الحال دقت الطبول وزعقت الزمور وذهبت عن بني هلال الهموم والكدور، فسمع الزناتي فعرف ان ابو زيد قد شفي فجمع اكابر قومه وقال لهم :

ـ ان ابو زيد قد بريء من مرضه ولا بد ان يحضر الينا فمن يبرز منكم اليه ؟

فقال الخطيب : انا له ولألف من أمثاله .

فبرز الخطيب الى الميدان وعرض وبان وطلب الفرسان ، فبرز اليه ابو زيد ثم التقى الفارسان كأنهما جبلان وحان عليهما الحين وزعق على رؤوسهما غراب البين مقدار ساعتين فقام ابو زيد في عزم الركاب وضرب الخطيب بالسيف على هامة حط رأسه قدامه، فلما رأى قوم الزناتي مطاوع قتيلا وفي دمائه جديلا ولوا هاربين ، والى النجاة طالبين ، فلحقهم ابو صبرة وبني هلال وجعلوا منهم القتلى تلالا وجابوا خيلهم وعددهم وعاد بنو هلال لعند حريمهم بالعز والاقبال .

***

قرر ابو زيد بعد ان برء من مرضه وعرف بقدوم ملوك المغرب لمحاربة بني هلال ، ان يسبقهم الى الطريق الذي سوف يمرون منه ، ويحاربهم قبل ان يحاربوه .. ويحاربوا قومه ..

ولقد ركب في قومه بني زحلان وأخذ ولديه معه مخيمر وشيبان ، وأخذ معه من بني زغبة الفين من الفرسان وساروا الى ملتقى الملوك ثلاثة ايام وثلاثة ليالي حتى وصلوا الى وادي النسور وكمنوا للقوم في الليل، ولما اصبح الصباح اقبلت عليهم الجيوش مثل الغمام فعندها التقى الفرسان وركب ابو زيد في اولهم والتقى الخصوم وصاح ابو زيد بصوت عال .. ومال فيهم على الميمنة وشيبان وباقي القوم على الميسرة حتى صار القتلى تلولا والدم نهورا وقهروا السبع ملوك وجيوشهم ، وكسبوا خيولهم واسلحتهم ، فعندها علم ابو زيد عسكره ونزلوا وربطوا في الوادي بانتظار غيرهم ...

اما الزناتي فلما بلغه خبر سفر ابو زيد دق طبله وبرز الى الميدان

فبرز اليه زيدان بن غانم شيخ الشباب ، فقال له الزناتي : من انت ومن تنسب من الفرسان ؟

فقال : الامير زيدان بن غانم .

فلما فرغ خليفة من كلامه وقعت بينهما الحرب الشديدة حتى ذاقا الجهد الى اخر النهار فدقت طبول الانفصال .

وحدث مثل هذا في ثاني وثالث يوم ، عندئذ جدّ الامير زيدان بالطراد فولى خليفة هاربا وزيدان وراءه الى باب المدينة فقفلوا الابواب في وجه زيدان وكانت خطيبة زيدان معه وهي بنت عمه واسمها ضيا ، فلما تزاحم الرجال جفل هودجها ورماها فأخذها قوم الزناتي ولما رجعوا من القتال امر الزناتي ان يحضروا ضيا الى عنده وامر سعدا ان تبقي ضيا عندها وتحفظها .

فقال لقومه : كيف رايتم يا فرسان .. من منكم يلقي زيدان ؟

وكان لخليفة ابن اخت يسمى مطاوع فقال : يا خليفة انا له .

فقال خليفة : انت لست من رجاله ولا تقدر تلقاه في مجاله .

فقال : صدقت يا خال لكن دعني اعمل ما بدا لي .

فأخذ مطاوع رجاله وحفر ثلاث حفر وغطاها ، ودق خليفة طبله وخرج الى الميدان فخرج اليه زيدان فالتطم الاثنان فأراد زيدان ان يضرب خليفة بالرمح فولى خليفة من قدامه وهرب نحو الحفائر ، فجرى وراءه زيدان فوقع في الحفرة هو والحصان فرجع له مطاوع وضربه على هامته فوقعت راسه قدامه وارسل راسه ليوضع مع رؤوس الامارة على سور تونس وعندئذ اشتبك الطرفان واطبقا على بعضهما حتى ولى النهار ودقت طبول الانفصال فرجع الفريقان وباتوا الى الصباح . وثاني يوم برز الزناتي للميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز اليه بدر بن غانم فالتحما في الحرب اشد التحام وصار بينهما ضرب شديد يقطع الزرد النضيد الى نصف النهار فوقعت بينهما ضربتان قاطعتان ، وكان السابق في الضرب الامير بدر وضرب الزناتي بالرمح فخلا منه وثنى عليه بالسيف فأخذها بدرقة البولاد وثلث عليه بالدبوس فخلا عنه ببراعته وكثرة شطارته ، فاعتدل الزناتي على ظهر الحصان وضرب بدر بالسيف فقطع راسه وارسله الى تونس فوضعوه مع راس اخوه زيدان .

وكان لبدر ولدين واحد اسمه عقل والثاني نصر وكانا افرس اهل وقتهم واجمل اهل عصرهم .

فقال عقل : لا بد ان اقاتل الزناتي في غد .

وكانت والدة الاولاد اخت السلطان حسن تسمى (هولا) فسمعت عقل يقول ذلك فضاقت الدنيا في وجهها وخافت عليه من الزناتي لانه اولا بطل مغوار وثانيا انه متى فشل يدبر حيلة لقتل من ينازله .

فلما علم حسن بما اعتزمه عقل حاول منعه فأصر .. فقال له : الله ينصرك عليه .

فلما اصبح الصباح لبس عقل بن هولا آلة الحرب والكفاح ، وسار الى الميدان وعرض نفسه وبان وطلب مبارزة الفرسان ، فبرز الزناتي خليفة ، فقال له : من انت ؟ فقال الزناتي اعوذ بالله من الشيطان الرجيم نقتل كبارهم فيأتوني صغارهم .

فالتطما كأنهما جبلان او اسدان وحمى عليهما الزرد فعرف الزناتي ان عقل فارس لا يطاق ، وأمرّ من العلقم ، ومع صغر سنه خبير بطعن السنان وضرب اليمان ، وعقل قد زاد في حربه وأشبع الزناتي من ضربه ، وحمي الميدان بفعله ولا زالا في قتال وجدال حتى راحت الشمس للزوال فدقوا طبول الانفصال .

ولما اصبح الصباح ركب الخصمان والتحم الفريقان فبرزا الى الميدان وصاح على رؤوسهما غراب البين ، وأما ابو سعدا فكل وذل وضعفت قواه وانحل فلوى عنان جواده وولى هاربا والى النجاة طالبا ، فتبعه عقل ولحقته الطعنة في الجواد فوقع الزناتي على الارض فأدركه قومه وخلصوه فانحدف عليهم عقل وبنو هلال وعظم الحرب والقتال ولم يزالوا بالقتال حتى ولى النهار بالزوال وأقبل الليل بالانسدال فدقت طبول الانفصال ، فعاد الزناتي قلقا مزعوجا وصار يوصي فرسان قومه بقتل عقل ، فقام ابن اخته مطاوع وقال :

ـ يا خال انا له ان لم اقتله في حومة الوغى حرام عليّ نقل الرمح ما دام سالما ، ويحرم عليّ الفرح والعز والهنا وحرام عليّ ان انشر فوق راسي اعلاما ورايات ..

فقال خليفة : الله يعينك عليه .

ولما اصبح الصباح ركب مطاوع جواده واعتدل في عدته وجلاده ، ودقت طبول بني هلال وركبوا الخيول ... وركب عقل اولهم وهو ينادي : «اليوم لأكل اليوم»، فلما رأوه جماعة الزناتي ولوا هاربين وللنجاة طالبين وفي اولهم مطاوع . فقال له خليفة : لماذا انهزمت يا ابن اختي؟

فقال : انهزم قومنا وما بقي احد ..

ولما عقل وصل تحت سور تونس اطلت بنت الزناتي الثانية وكـان اسمها بسما فنظرت الى عقل فوقع هواه في قلبها وملك فؤادها وانشدت تقـول :

تقول فتاة الحي بسما التي شكت
ونار الهوى لوّع ضمير لهيبهـا

وحبك بقلبي يا عقل ضنى حالي
فانت من روحي وانت عديلهـا

وقال لهم يا غزوة الجود والسخا
رمونا العدا في حرب ابد تكيدها

فمن منكم يبرز الى عقل بالوغـا
ويسقيه من كاس المنايـا غليلها

فنهض مطاوع وقال يا خال انا له
واسقيه المـوت طالـع بديلهـا

وقاموا على هذا الاتفاق يا ابن هولا
وان خليفة لازم لروحك يشيلها

وانا اعلمتك يا عقل شفقة عليك
لانك صغـير الوقائع جهيلهـا

وانا ارى يا فتى عد لاهلـك
وخلي البلايا كثيرها من قليلهـا

وهذا الخبر يا عقل افهم وافتهم
وحبك زاد الروح منى غليلهـا

فرد عليها عقل بانه الفارس الذي لا يبارى ..

فلما فرغ عقل من كلامه وبسما تسمع نظامه عاد مطاوع وبرز الى الميدان فاستقبله عقل ... وانعقد غبار القتال حتى سد منافس الاقطار وهم في حرب وصدام وافتراق والتحام وتجريح الموت الزؤام ، ورأى مطاوع قدامه فارسا كرارا واسدا مغوارا ... ورأى من عقل حربا تحيّر عقول الاطفال فعول على الهرب والفرار ... فخاف الزناتي عليه، فارسل له ثلاثة يساعدونه ، ليشغلوا الفارس عقل عنه ، فاغتنم مطاوع هــذه الفرصة ، وطعن عقلا من خلفه ، فقتله ، فهاج بنو هلال ، واشتـــدت المعركة بين الفريقين حتى اقبل الليل وعاد كل فريق الى مضاربه ..

وكان لعقل اخ يسمى نصر قال بعد مقتل شقيقه : غدا انزل الـى الميدان لآخذ ثأري من هؤلاء الاعداء الغدارين .

وفي اليوم التالي برز نصر الى الميدان ونادى في اعلى صوته وقال: هل من مبارز؟ فبرز له الزناتي وقد ظن انه عقل لانه ما كان يعرف احدهما من الاخر فصدمه الامير نصر صدمة جبار لا يهاب فالتقاه بقلب اقوى من الصوان والتطم البطلان كأنهما جبلان واختلفت بينهما ضربتان قاطعتان كان السابق ضربة الزناتي بالسيف فالتقاها بالدراقة فشطح السيف على رقبة الجواد فبراها كما يبرى القلم فوقع الزناتي على الارض فادركه قومـــه

بجواد واركبوه ، ومالت المواكب وهاجت الكتائب وما عاد يعرف العدو من الصاحب وكان يوما مذكورا كأنه يوم النصر المنظور حتى ولت الشمس ودقت طبول الانفصال .

فلما اصبح الصباح ركب نصر وبرز في الميـــــدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز اليه مطاوع وانطبق الواحد على الاخر ، حتى تمكن نصر من مطاوع فرماه بالرمح فطلع السنان يلمع من ظهره فوقع قتيلا ، فعندها ثار قوم الزناتي ، وحمل ايضا بنو هلال وزادت المصائب والاهوال والتحم الفريقان في المجال وصار الزناتي وفرسانه يحاولون الوصول الى نصر ، وأمر الزناتي اناسا تقاتل وأناسا تحفر حفائر ، وما زالوا بالحرب حتى وقع نصر في حفرة فغار عليه الزناتي وضربه بالسيف فقتله ..

وكذلك كانت حرب الزناتي يحفر حفرا لخصومه ، حتى اذا وقعوا فيها انقضي عليهم وهم عاجزون ...

حزن بنو هلال لمقتل نصر ، فقد كان لا يزال شابا ، وكان ايضـــا بطـــلا ..

ودفن بنو هلال الشقيقين الواحد بجانب الاخر ، بين البكـــــاء والنحيب ..

***

قرر غانم والد البطلين ان ينزل للزناتي بنفسه .. واعلن انه لا يريد الحياة بعد اولاده .. بل ان الحياة اصبحت بدون معنى بعدهما ..

فلما اشرق الصباح برز الى الميدان ونادى :

ـ هل من مبارز ؟ اريد مبارزة الزناتي فاما ان يقتلني او اقتله ..

فبرز له الزناتي .. ولكنهما كانا متساويين في ضروب الحـــرب والفروسية فلم يوفق احدهما مع الاخر وظلا على هذا الحال مدة شهر من الزمن .. واخيرا كلّ غانم وتعب فلم يعد ينزل للميدان .

ففرح الزناتي بذلك ، وقال لرجاله :

ـ ما قولكم فيما صار اليه بنو هلال ؟

فنصحه العلام ان لا يغتر بما حدث ووقع ..

وسأل الزناتي عن الامير دياب :

وقال : ما قتل دياب مع الذين قتلناهم .

فقال العلام: دياب ما هو حاضر معهم، انه في وادي الغباين مع مواشي بني هلال .

فقال الزناتي : مرادنا نرسل له من يقتله ويجيب المواشي منه .

والتفت الى واحد من اخوته وكان يسمى (ابو خريبة) وهو فارس صنديد فأمره في الركوب الى وادي الغباين والاستيلاء على المواشي ..

فقال : سمعا وطاعة .

وركب من ساعته وأخذ معه عشرين الف فارس قروم عوابس ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا الى وادي الغباين واغاروا على ارض بني هلال ووضعوا السيف فيهم ... فقامت الرعيان بالعياط والصراخ ، فلما سمع دياب ركب جواده وطلعت فرسانه وراءه ، فلما التحمت الحرب بينهم بطعن يقصف الاعمار وصار بينهم ضرب مثل النار فعندها قام دياب في عزم الركاب وضرب خريبة بالسيف على هامه فحط رأسه قدامه فوقع على الارض يتخبط بدماه طولا وعرضا . ولما شاهد قومه اميرهم قتيلا ولوا هاربين والى النجاة طالبين فلحقهم بني زغبة ومدوا السيف في أعناقهم وأعدموهم احبابهم واصحابهم حتى وصلوا الى عند الزناتي وأخبروه عن قتل اخيه فاستدعى اخاه اثنان وكان اسمه مكحول وقال له: خذ قومك وامض الى دياب بن غانم وخذ ثأرك منه وانهب مواشي بني هلال ومهما جبت منها تكن هبة مني اليك .

فركب بسائر عساكره وساروا حتى وصلوا الى الوادي وكان دياب وقومه في الصيد وما بقي من المواشي الا مقدار الف فارس فهاجمتهم عليها الخيل ومكحول اولهم وساقوا الماشية جميعها فراح الصوت الى الامير دياب وأعلموه الخبر فأسرع حتى وصل الى القوم وبرز الى مكحول وبدأت المعركة . فضرب مكحول دياب في الرمح فسحب دياب رجله من الركاب وأخذها من تحت فخذه فذهبت هباء، وطعن مكحول في الرمح فأراد ان يتجنبه مثل دياب فجاء الرمح في صدره وطلع يلمع من ظهره فوقع قتيلا فأخذ درعه وجواده وأغار على قومه وبدأ يذبح فيهم حتى قتل مقدار عشرة آلاف فارس وهرب الباقون حتى وصلوا لعند الزناتي وأعلموه بقتل اخيه فغضب غضبا شديدا .. وفي اليوم التالي برز الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فلم يرد احد عليه .

واذا بغبار علا وطار حتى سد منافس الاقطار وبان من تحته فرسان على رأسهم الريشي مفـــــرح الذي كان مع ابو زيد في غزو ملـــوك السفور فتحول وسلم عليهم فسألوه عما جرى له فصار يخبرهم .

وفجأة طلعت بيارق حمر وأبو زيد بأول الخيل فلاقاه الامير حسن وبنو هلال وهنأوه على السلامة وفرحوا في ملقاه وطلعت النسوان والاولاد وأهالي القتلى الذين قتلهم الزناتي وقعدوا على المقابر لابسين الســـواد هاتكين الستور باكيات نائحات . ووصلت الخيل التي اتى بها ابو زيد من الاعداء والمكاسب والغنائم وأخبر الامير حسن ابو زيد بما فعـــل فيهم الزناتي وكم اباد من الفرسان . فلما سمع ابو زيد كلام حسن صار الضياء في وجهه ظلاما ، وحزن حزنا شديدا على من قتل من الفرسان. وقام ومر على المقابر ، وشاهد النساء والبنات اللائي رفعن اصواتهن في البكاء وحدثوه بما اصابهن فطيب خواطرهن وقال لهن : ان اراد الله نأخذ لكن بالثأر واترك ديار الزناتي خرابا .

ثم دخل لعند عليا وبات عندها وقسم الغنائم والاموال وأعطى حسن جزءا وشال الى دياب قسما ، وفي اليوم التالي برز ابو زيد الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان ، ونادى الزناتي ليبرز الى الحرب والطعان ... وصاح : اين رجال الحرب اصحاب الطعن والضرب ، فما احد رد عليه فوقف تحت الباب والابواب مسكوكة لا احد يخرج ولا يطلع ســـوى النسوان اللواتي فوق الاسوار يتفرجن، فعندها صاح في البواب : افتح او ارسل مولاك. فسار البواب لعند الزناتي قائلا له : قم كلم ابو زيد فهو واقف بالباب يريد ان يواجهك .

فقال الزناتي : يا بواب من يقدر يشوف عزرائيل حتي يقبض على روحــه .

دبر حالك يا مقصوف العمر وهات المفاتيح التي معك ...

وأخذ مفاتيح ابواب تونس فوضعها عنده وخبأها وقال : اقعـــد خلف الباب ولا تفتح لاحد واذا احد سألك عن سيدك فقل له : ما بيطلع

فعاد البواب وأعلم الامير ابو زيد بذلك الكلام .

التفت الامير حسن الى ابو زيد وقال له : ما دمت اتيت ما بقـــي الزناتي يفتح الباب ولا يطلب قتال احد ، وفي غيبتك ياما عمل بدايع ..

وقال الامير ابو زيد لهم : قصدي اعمل حيلة تسوى قبيلة .

فقال له الامير : دعنا نسمعها ..

فقال الامير ابو زيد : ادعوا الجارية ... فدعوها فحضرت بين يديه ، فالتفت اليها الامير وقال لها : مرادي تجمعي مائة بنت من بنات العرب واحضريهن في الليل ..

ومن ساعتها احضرت مائة بنت الى الامير ابو زيد ، فقام ولبس ثوبا ابيض مثل النسوان ولبس درعه وانحزم بسيفه وسار هو والبنات والجارية ليلا الى ان وصلوا الى بوابة تونس ، فقال ابو زيد : اقرعي الباب .

فنادى البواب : من يقرع ابواب تونس في هذا الليل ؟

فقالت الجارية : نحن من بنات العرب جايبين معنا بضائع لكي نبيع ونشتري من عندك على قدر احتياجنا .

فقال لها البواب : روحوا ما افتح لكم الباب في الليل .

ثم انها تدخلت على البواب فما فتح وانما راح الى عند الزيناتي واخبره بقصة البنات على الباب ، فقال : روح اياك تفتح لهن ، لقد قرأت كتبهم قبل ما حضروا الى هذه البلاد لان هذه حيلة من حيل ابو زيد بالتأكيد ..

***

قال مرعي لسعدا : الى متى نحن هنا ، لقد طال علينا المطال وأبوك لا يفتح الباب لابي زيد .. ولا يطلع لمحاربته ..

فضحكت سعدا وقالت :

ـ مستعدة لتسوية هذه المشكلة ، ولتعلم ان الذي يقتل ابي هو الامير دياب لا احد غيره .. هذا ما تقوله الكتب .. ولكني سأذهب الليلة لزيارة والدك وسأدعوه لطلب الامير دياب ، وعندئذ ينتهي الاشكال ..

وكان الامر كذلك ، فقد خرجت سعدا الى منازل بني هلال في خمسين فتاة كن من الجمال والملاحة بالمكان الارفع ..

توجهت رأسا لعند الامير حسن وطلبت مقابلته وكان نائما ، فأيقظوه من نومه فلما عرف انها ابنة الزناتي تعجب من زيارتها له ، ولما التقى بها سلمت عليه وسلم عليها .. وكانت ام مرعي عنده ، فضمتها الى صدرها عندما شاهدتها .. وسألتها عن مرعي فقالت سعدا :

ـ انه في احسن حال هو وأصحابه ..

ولما وصل الحديث الى الحرب والقتال اخبرتهم سعدا بان الذي سوف يقتل اباها هو دياب بن غانم لا غيره ..

وقالت للامير حسن :

ـ ارسلوا خلف دياب تنتهي المشكلة ..

فشكرها حسن وارسل خلف ابو زيد واخبره بما سمع وجرى..

فنصح حسن ان يرسل خلف البنات والنساء المفجوعات باحبابهن ليكتبن الى دياب يدعونه لقتل الزناتي ..

وكتب البنات الكتاب ، فلما قرأه دياب ، قال :

ـ انا لا اعود الى بني هلال ، والى حرب الزناتي ما لم يستدعيني حسن وابو زيد ..

وكتب بذلك كتابا ، فلما وصل الكتاب الى البنات حملنه الى حسن وأبي زيد فتردد هذا في الكتابة له ، وطلب من والده ان يفعل ذلك ، فكتب والده كتابين باسمهما يستدعيه للحضور .. وذهب بنفسه يحمل الكتابين اليه ..

عندئذ وبعد تردد قرر دياب ان يعود .. واعلن قراره هذا امام الجميع ..

فلما سمعت امه كلامه هذا فرحت وقالت :

ـ يا غانم مرادنا نسير لان بني هلال في انتظارنا .

فقال : تأهبوا حتى نسير ونعلم بني هلال ..

وخرج الجميع لملاقاتهم وكانت ضجة عظيمة ولما شاهدوا غانم وحرمته وحده قالوا : اين دياب ؟

فقال غانم : ابشروا يا بني هلال نهار الاحد يصل الى عندكم الامير دياب فتأهبوا لاستقباله ..

• • •

امر دياب الرعيان بلم المواشي من كل جانب ومكان وسار الجميع قدامه الى بني هلال ... واعلن انه سينصب سيفه على ابواب تونس في نصف الميدان ودق طبوله ونشر اعلامه حتى بقي بينه وبين بني هلال يوم كامل وكانوا جميعهم في انتظاره. وفي اليوم التالي خرجوا جميعا لملاقاته وما فضل من بني هلال لا كبير ولا صغير الا طلع الى لقاء الامير دياب ..

وقد خرجوا بالطبول والنوبات وزالت عنهم الهموم والاتراح وبطلوهـا بالافراح ... وادخلوه الى الحي بنوبة سلطانية عظيمة ... وأما اهـل القتلى فانهم ذهبوا لملاقاته في الملابس السوداء وأثواب الحداد لكي يشكوا الى دياب ما فعل الزناتي بهم .. وأما حسن وأبو زيد فظلوا في الصيوان ولم يخرجوا الى الخيام ... واما دياب فلما لم يجد حسن وأبو زيـد عرف المضمون واخفى الكمد واظهر الصبر والجلد ، ولم يزل سائرا في الموكب العظيم حتى وصل الى ابواب تونس فرجت منه تلك الارض في طولها والعرض .. وطلعت العلايم على الاسوار للفرجـة على الزينة ، وارتعدت من الزناتي خليفة وممن عنده القلوب وانحلت المفاصل وقال : الله يعيننا على حربه .

وأما دياب فرفع راسه الى نحو سور تونس فوجد رؤوس الامارة وهم ثمانين راس مشكوكين على الرماح فسأل : من يكون هؤلاء ؟ فقال له عمه عرندس :

ـ هؤلاء رؤوس بني هلال الذين قتلهم الزناتي... وهم اولاد عمك.

فقال : كل هذا جرى في غيابي ... وظل سائرا في طريقه فلاقاه اهل القتلى والبنات وشالوا البراقع وحدفوها الى دياب فطيب خاطرهم وأنشد يقول :

قال ابو موسى دياب المفتخـر ... فارس الهيجاء وخيَّال الوبـر
حامي الزينـات سور المحصنات ... مفرج الكربـات في يوم العسر
زال عنكم همكم ياذا البنـات ... والزناتي حـل في عمـره قصر
واجد الثأر من ابي سعدا حقيق ... وجميع قومه من حسامي تنبهر
واخبروني يا بنـات بما جـرى ... واعلموني بحقائـق تسكـر
ما لكم علـى القبـور جالسين ... وشعوركم علـى الاكتاف تنتشر
كم من اميرة شقت ثوب الحيـا ... وقبل هذا اليوم كانت تنستـر
لمن هذا القبر يـا بنت الكرام ... من هذا الذي من تحته انقبـر
فابشروا بالثأر انتـم يـا بنات ... في ما مضى لحدين بولادا نذكر
انا عليهـم مثل سبـع كاسر ... من غد اليهـم يا عذارى انحدر
وانظروا فعـل دياب يـا بنات ... بعون من امره علينـا قد قدر
افرحوا اليـوم يا بنات وابشروا ... وخاطر المكسور منـي ينجبـر

ولما وصل دياب الى عند الصيوان دخل وسلم على حسن وابو زيد فقاموا له على الاقدام وحيوه بالسلام وأكرموه غاية الاكرام وبعدها قام

دياب وركب الى بيته وتفرقوا كل واحد لمحله .

وبعد ان انتهى الاحتفال ذهب دياب لفراشه ، حيث اخذ قسطه من الراحة ..

ولما اصبح الصباح نهض الامير دياب وطلب مبارزة الفرسان ولاعب الخضرا في اربعة اركان الميدان ، وجال وصال ولعب بالرمح حتى حيَّر عقول الشيوخ والشباب والابواب مسكوكة لا احد يخرج ولا يدخل ..
عقول الشيوخ والشباب والابواب مسكوكةلا احد يخرج منها ولا يدخل..

فقال البواب : من داخل ...

فرد الامير دياب وقال له : روح اعلم سيدك الزناتي يخرج لحربي لاجل ان ترد للناس ديونها وان سألك عني فقل له : دياب قاتل اخوتك خريبة ومكحول ابرز اليه وخذ ثأرهم .

فمضى البواب وأعلم سيده الزناتي ، فضاقت في وجهه الدنيا وما عاد يعي على حاله لان كل منية لها اسباب ، والزناتي منيته على يـــد دياب ... فأرسل وأحضر ابنته سعدا وقال لها : يا باغية ما احد جلب لنا هذا البلاء الاك ، فلو تركتيني اقتل المحابيس وأبو زيد معهم كنـــا ارتحنا من بني هلال ولا نظرناهم ، وأنا لا اخاف الا من دياب .

فقالت سعدا : يا ابي لا تخف منه انا ارده عنك .

ثم مشت على شرفات القصر لفوق دياب فنظرته يلاعب الخضـــرا فنظر اليها وكف وجهه عنها وقال لها : ما اسمك وما تريدين ؟

فقالت له : وأنت من تكون ومن تريد ؟

فقال لها : انا دياب .. واريد الزناتي لمبارزتي ..

-١١-

الساعات الأخيرة للزناتي خليفة

ذهبت سعدا لابيها تحثه على حرب دياب ، فقرر الخروج من القصر لمحاربته ، عله يستطيع قتله كما قتل غيره ..

ووقف الفارسان الواحد امام الاخر ..

وكل منهما يهدد خصمه بالقتل الاكيد ..

واشتد الصدام ، واهتزت الارض تحت اقدام الجوادين ، وحار الزناتي بأمره ، بعد ان اشتد عليه دياب ، وضيّق عليه الانفاس ..

وما زالا في الحرب والطعان والضرب وهما في أشد ضيق وقتال ونزال الى نصف النهار ... فزاد الامير دياب على الزناتي بحربه وعاد يهاجمه على الخضرا كأنه الصاعقة ، فخاف الزناتي وانحل عزمه وولى من قدام دياب هاربا والى النجاة طالبا والى ابواب تونس راكضا ودخل هو وعسكره ودياب خلفه مثل الاسد الكرار فهجم دياب وعسكره على قوم الزناتي والتقت الرجال بالرجال وجرى الدم وسال على الرمال ، فيا لها من وقعة تشيب لها الاطفال حيث راح من الفريقين عدد كثير من الفرسان والشجعان .

كان لتونس ثلاثة ابواب احدها خلف الاخر ففتحوها ليدخل الزناتي فضرب دياب الباب بالرمح فمزق اربعة اكعب فانطبق قوم الزناتي على قوم دياب فالتقاهم بسيفه البتار وجندل منهم الشيوخ وعظمت الاهوال وبطل القيل والقال الى ان ولت الشمس للغياب ودقت طبول الانفصال فولى قوم الزناتي من خارج السور هاربين والى النجاة طالبين .

ورجع الامير دياب وقومه الى بني هلال فهنأوه بالسلامة واكلوا

وشربوا وحضر الامير حسن والامير ابو زيد لعند دياب وعانقاه وهنآه على نجاحه وظفره .. وجلسا معه في المنادمة والكلام ، وأمر دياب بذبح الذبائح وعمل الولائم ، فسألوه عن حرب الزناتي فتبسم الامير دياب من قولهم وسكت ..

وقال ابو زيد : هل خو"فكم الزناتي وأرعب قلوبكم ؟.. بعناية الباري تعالى انا اكفيكم شره وأقصر عمره ...

فقال دياب : غدا القي الزناتي وأقتله ونملك الغرب كما ملكنا الشرق ، ولكن يا حسن الذي يقتل الزناتي يكون سلطان الغرب .

فقال الامير حسن : نحن اولاد عم وبين الاهل لا يوجد فرق والرزق واحد والحكم واحد .

ولما اصبح الصباح برز دياب الى الميدان فبرز الزناتي له وانطبقا على بعضهما انطباق الغمام وطال بينهما الطعن والصدام من شروق الشمس الى وقت الظلام فدقت طبول الانفصال وانفصل الفريقان عن القتال .

فلما اصبح الصباح التالي طلعت بني هلال من خيامها وركبت سوايقها ، وأما الزناتي فأغلق ابواب تونس وما عاد يفتح ولا عاد له قلب للخروج الى الميدان لخوفه من الامير دياب .

***

اما الامير دياب فقام من نومه وتقلد بسلاحه وركب الخضرا وبرز الى الميدان ، فحين رآه الزناتي تحركت في رأسه جراة الرجال وهانت المنية عليهفبرز لدياب وصدمه صدمةالجبار الذي لا يهاب نزول الاخطار، وهاش الزناتي كالجمل وطلع زبده على أشداقه لانه تذكر رزقه وأملاكه فهانت المنية عليه فتلقاه دياب بالسيف وعلا فيما بينهما الغبار حتى سد منافس الاقطار ، وحجب عنان السماء ، حتى دقت طبول الانفصال .

واستقاما على هذا الحال شهرين وفي اخر الايام برز الاثنان الى الميدان فغضب دياب وزاد به الغضب فقام في عزم الركاب وطعن الزناتي بعود السنان فوقع على الجواد ومرق السنان من جانب الى اخر فمال الجواد على الارض وبقي الزناتي مطروحا وقد ايقن بذهاب الروح فأدركه قومه في جواد من الخيل وأركبوه ومال عليهم دياب بالسيف والقرضاب وزادت نار الحرب التهابا وقطع منهم الزنود والركاب وساقهم دياب

سوق الغنم ودخلوا المدينة واقفلوا ابوابها فطلع الزناتي الى قصره وقد ايقن بزوال عمره ... فنام على فراشه وهو غارق في افكاره ، يحلم بالمعركة ويخاف من نتائجها ، وابنته سعدا تشجعه على خوضها ..

خرج الزناتي في الايام التالية لملاقاة دياب ، فلم يظفر احد الخصمين من خصيمه بطائل ، حتى ملّ الزناتي وضعف ، وانذل بعد عزه وخاف ، وبات تلك الليلة في هم وأتراح الى وقت الصباح فنهض لتوه وطلب دواية وقرطاس وكتب كتابا يطلب فيه الصلح وأرسله الى دياب .

وكان دياب قد برز الى الميدان وجميع امارة بني هلال ركبت معه فلما وصل الرسول اعطاه الكتاب ففضه وقرأه ثم توجه لعند السلطان حسن وعرض عليه كتاب الزناتي فقرأه ابو زيد على رؤوس الامارة فبهتوا جميعا مقدرا ساعة ، فقال ابو زيد :

ـ يا امارة ... الزناتي يطلب الصلح ماذا تقولون ؟

فقالوا : الرأي عند حسن وعندك يا ابو زيد .

فقال ابو زيد : رأيي انكم تصالحوه ومن ابى الصلح فليغلب الجازية .

فلما سمعت الجازية هذا الكلام من الامارة التفتت اليهم وقالت: أذل الله الحاكم من بني العربان ضعفتم عن حرب الزناتي ودياب ايضا بعد ان قتل اخاك وأولاد عمك ، وغيرهم ... ونادت النسوان وقالت : دونكن الخيل اركبوها ونحن نحارب الزناتي ونأخذ ثأرنا منه . والتفتت الى دياب وقالت له : انزل عن الخضرا حتى اركبها وأقاتل الزناتي .

فلما فرغت الجازية من كلامها والامارة يسمعون نظامها تبادرت البنات الى الخيل كل واحدة امسكت بلجام فرس وقالت لراكبها : انزل وأركب موضعي في الهودج ... وأنا اركب جوادك .

وأما الجازية فعادت على دياب وقالت : انزل وأنا اركب موضعك وأحارب خليفة .

فغضب الامير دياب وقال لها : لا تقولي هذا الكلام فكم مرة خلصتك من السبي ولو صالحوه كل بني هلال ما أفوت ثار اخوتي وأولادي ولا صالحت خليفة حياتي .. ارجعي هؤلاء البنات .. وكتب للزناتي ردا على جوابه، ان لا سلام ، وليس امام الزناتي الا الحرب والقتال ...

ومضى يذكره بالامراء الذين قتلهم غدرا وغيلة والذين يريد دياب الثأر لهم ..

فلما وصل الكتاب الى الزناتي عظم قلقه ، وبان عجزه ، وتحيّر

فيما يجب عليه عمله ..

***

في هذه الاثناء كان دياب قد نزل الى الميدان وأخذ يقيس الارض، ويفحص الخنادق التي وضعها الزناتي امام ابواب تونس حتى لا يصل احد اليها ..

وبعد ان قاس احد الخنادق الذي اختاره ، وعمل حسابه ، صار يمرن الخضرا على القفز فوقه حتى تمرنت واصبحت قادرة على ذلك ، فقفز فوق الخندق حتى اصبح فوق رأس البواب الحارس ، فسأله ان يخبر سيده بانه بانتظاره ، وانه اذا لم يفعل ، فان الخضرا سوف تقفز فوق السور بعد ان قفزت فوق الخندق ..

عندئذ نزلت دموع الزناتي ، وصار يبكي على حاله ، وما سوف يكون مصيره ..

لقد اخذ الوهم يصور له ان موته قريب وانه مفقود لا محالة في حربه مع الامير دياب .

وكانت سعدا ابنته في الوقت نفسه تشجعه على محاربة دياب ، بعد ان ضربت الرمل وعرفت ان موتة ابيها اصبحت قريبة .. وفي المرة الاخيرة حاولت تطمينه ، وتشجيعه وقالت له :

ـ سوف تقتله فلا تقلق ، واذهب اليه ..

ونزل الزناتي للميدان بعد تردد كثير ..

واشتدت المعركة ، وصمد الخصمان الواحد للآخر ، ثم وقعت بينهما الواقعة .. وتسابقا في ضربتين ، اصابت ضربة الزناتي الخضرا فقتلتها ، ووقع دياب معها ارضا ، فادركه بنو هلال ، بجواد ركبه في الحال .. وعاد للقتال حتى غابت الشمس ، وافترق الخصمان ..

اما دياب فانه حزن على الخضرا كثيرا وأمر ان يغسلوها ويكفنوها بشقف الحرير ويدفنوها ، وبنى على قبرها قبة عظيمة وذبح على قبرها نوقا وفرقها على الفقراء . وثاني يوم نهض دياب واعتد في عدة جلاده. وركب على ابن الخضرا وكان مهرا طويل الباع وبرز الى الميدان كأنه فرخ جان ، وطلب مبارزة الزناتي فبرز اليه لانه فرح بقتل الخضرا وظن انه سوف ينال اربه من دياب ويقتله . كما قالت له سعده :

واما حسن وبنو هلال فقد تحقق عندهم ان دياب في هذه المبارزة سيقتل الزناتي ليأخذ ثار الخضرا فركب الامير حسن مع سائر بني هلال واصطفت العساكر قبال بعضها البعض .. هذا والزناتي ودياب في حرب شديدة الى ان صارت الشمس في قبة الفلك الاعلى ، فثارت في رأس دياب نخوة الرجال وتذكر الخضرا واهلـه الذين قتلوا وذهبـوا .. فسحب الدبوس من تحت فخذه وبرمه في يده وضرب الزناتي على رأسه فطيرت جميع اضراسه وقطع طاسة البولاد ونزل على هامة راس جواده فعول الزناتي على الفرار من عظم الالم وما عاد يدري كيف يتوجه .

ولما هرب الزناتي قام دياب في عظـم الركاب واطلق بـه الرمح لان الزناتي كان هاربا فالتفت لكي ينظر الى دياب ان كان لاحقه فاصاب الرمح عينه ونفدت الحربة من قفاه ، فتذكر الامير دياب قول ابنته نجيبه حين قالت له اطعنه بعينه ... فمال ابو سعدا عن الجواد وعول على الوقوف فسحب دياب من فخذه سيفه وضربه على هامه فرمى رأسه قدامه فأخذ دياب الرأس على رأس السنان ، وثار هو ورجال بنـي هلال على قـوم الزناتي فبدلوا افراحهم بالكدر ، فلما شافوا الزناتي على الارض مطروحا كثرت عليهم المصائب والاهوال فما عادوا يعرفون اليمين م نالشمال فولوا هاربين ، واما اهل الزناتي وقومهم فانهم صاحوا الامان ... ودخلوا واقعين على دياب ورموا سلاحهم وسلموا الى الموت ارواحهم وطلبوا الامان واولهم كان العلام . ورجـع الامير حسن والامير ابو زيد وبني هلال نحو تونس لينظروا كيف قتل الزناتي اما دياب فملك تونس وحالا نادى عبده خليل واعطاه الرمح وأمره ان يضعه فوق تونس ، وينادي ان الامير دياب ينذر من لا يدخل تحته بالقتل ففعل كما امر مولاه ، وصار ينادي بنداه .

***

سرت سعده بقتل ابيها ولبست افخر ثيابها وسارت تتبختر كأنها العروس حتى اتت لعند الامير مرعي وهـو يتمشى بجناين القصر عنـد القصر وهو لابس الملابس الحريرية وعلى رأسه طربوش مغربي حسب عادة اهل الغرب ينتظر الفرج والتيسير من هذا الامر العسير .

دخلت عليه سعدا وقبلت يديه وقالت له : اعلم ايها الامير الخطير قد جاء الفرج بعد التعسير ، وتعاهدت معه ان لا يأخذ غيرها من النساء

ووعدته ايضا ان لا تأخذ غيره من الرجال ولـو قطعت بالسيوف الثقال وبعد ذلك ودعا بعضهما ، وكل واحد ذهب الى حال سبيله ..

اما الامير دياب فانه بعد قتل الزناتي امر بتعليـق رأسه على رأس السور وامر برفع رؤوس امارة بني هلال ليدفنوهم وملك دياب عـرش الزناتي وامر باحضار المال والنوال والخدم قدامه وامر باطلاق مرعي ويحيى ويونس وخلع عليهم وارسلهم لعند اهلهم وجلس دياب على تخت الزناتي ولبس التاج وهو تاج مصنوع من قديـم الزمان مـن ايام مهران خليفة ومرصع كله بالمرجان الاحمر والياقوت الاخضر ومنسوج بالدر والجواهر والذهب الاصفر .

وقد اجتمعت حوله بني زغبة .. والوف اتوا جميعا يهنئونه ... فلما سمعت سعدا بجلوس دياب علـى كرسي ابيها خافت وارتعـدت فرائصها وخاب ظنها بمرعي ، وندمت حيث لا ينفعها الندم وتوجهت لعند الامير دياب وقبلت يده ورجته في دفن ابيها فقبل طلبها وأمر ان يدفنوا اباها بين قبور اخوته بدر وزيدان ، وطيب خاطرها وادخلها بين حريمه فاكرمنها غاية الاكرام .

واما ما جرى لحسن وابو زيد وهم راجعين الى تونس فقد سبقهما ناس شاهدوا رمح دياب والمنادي ينادي باسم دياب ، والعبد خليل حين رأى الامير حسن والامير ابو زيد مقبلين توقف عن النداء ورجع شاور مولاه فقال له دياب : ارجع ونادي كما امرتك ، فرجع العبد وصار ينادي انلا سلطان الا دياب وكل من لا يدخل تحت رحمته يعدمه الحياة ، وحين سمع حسن هذا الكلام قال : كيف الرأي يا ابو زيد ندخل ام لا ؟ فقال ابو زيد : بل ندخل ، وان لم يرفع الرمح .. فما كان مـن عبد الامير حسن حين سمع هذا الكلام الا ان ضرب الرمح الذي نصبه دياب بسيفه فقطعه ، فما كان من عبد دياب الا ان قطع رأس عبد الامير حسن ..

وهجم حسن على الاثر نحو الديوان ، فوجد دياب جالسا على كرسي الزناتي وعرشه ، وحوله جماعة من بني زغبة ، والخدم والعبيد بين يديه والتاج على رأسه .. فلما شاهد الامير حسن هذا المنظر ، اشتد به الغضب ، وقال لدياب :

ــ اما كفاك انك جعلتني امر تحت رمحك حتى جئت تعزلني من منصبي وتسلبني ملكي الذي ورثته عن ابي وجدي ..

وتقدم حسن نحو دياب يريد حربه وقتاله فوقف في وجهه ابو زيد

والرجال الآخرون ، وقال ابو زيد :
ـ اذا اخطأ دياب فمنك السماح .. وقال دياب : اذا كنت تعد نفسك قويا فلماذا لم تقتل الزناتي ، وتطلب انت وابو زيد مني ان اقوم بهذا الواجب ..
قال حسن : انا لم افعل ..
قال دياب : كتبك عندي .
فقال حسن : هذا كذب واختلاق انا لم اكتب شيئا لك ، والذين طلبوك هم ابوك والنساء فاسأل من ارسل خلفك .. وقال ابو زيد :

يقول ابو زيد الهلالي سلامة	فمالك يا حسن سرحان وهايش
تريد تقتل دياب يا بو علي	هو حامي ظعننا من كل هايش
لانه جعل رمحه على باب تونس	فهذا ما هو ذنب يا امير طايش
حريمنا بعثوا براقيعهم لدياب	ليدعى ابو سعدا بدمه يشالش
جانا على خضرا جندل عدونا	واخذ بثأرنا في ماضيات الطرايش..

عندئذ تقدم دياب وقال :
ـ يا ابن العم .. العين لا تعلو على الحاجب .. تعال نضع حسن على الكرسي ، ونقسم البلاد .. فتقدم ابو زيد ، وامسك بحسن هو ودياب واجلسوه على الكرسي ..
عندئذ اعتذر الامير حسن وقال :
ـ لقد وقع الخطأ .. فلا لزوم للعودة اليه ..
والخضرا خذ عوضها مدينة تونس من غير حساب ، واقسم لك ثلث الغرب الذي تريده ، وانا مثلك وابو زيد مثلي .
فحضروا جميعهم الىالديوان وتقاسموا البلاد بالاسوة مندون تونس تركوها للامير دياب من غير حساب ، وانصرفوا على هذا الحال .
اما مرعي فانه اجتمع مع ابيه وسلم عليه وقامت الافراح وذهبت الاحزان وعملوا الولائم وذبحوا الاغنام الى الخاص والعام ونادوا بالامان في جميع البلدان ، وسلطنوا العلام على قيس ومكناس وتلك البلاد ، وبعد ذلك امر حسن ببناء قبة عظيمة على قبر الزناتي وامر باحضار الحفارين والنجارين والذهابين وجميع ارباب الصنائع ليبذلوا الجهود في تزيينتلك القبة على قبر الزناتي وان يكتبوا عليها اسماء الله الحسنى فزينوها

بالفضة والذهب وصنعوا له مشهدا ، ثم تقاسموا البلاد بينهم .

***

وأما ما كان من قوم الزناتي وهم الامراء وائل ومحمود ورائد وغيرهم من الحكام الذين يحكمون على سبعة تخوت بلاد الغرب والاربعة عشر قلعة لما سمعوا بتسلطن العلام وقتل الزناتي هاجوا وماجوا واجتمعت الجموع من جميع جزائر الغرب وأتوا الى ملكهم ناصر وهو اخر خليفة وكان يحكم على اربعة عشر قلعة وعلى سبع تخوت بلاد الغرب فدخلوا عليه وقبلوا الارض بين يديه وأخبروه عن بني هلال وعن قتل خليفة شقيقه .. فهاج وماج وصاح ... واسودت الدنيا في عينيه ، وحالا امر بتجهيز العساكر والابطال وارسلهم لعند العلام ليتهيأ الى حرب العربان .. فلما وصلوا اليه ودخلوا عليه وقبلوا الارض بين يديه ... وبكوا على مليكهم الزناتي وأظهروا له الحزن والهم والنكد والغم .. وقالوا : يا ذلنا من بعده ، والله لنأخذن بالثأر ونكشف عنا العار وترجع تونس بالسيف البتار لانه ارسلنا اليك ناصر اخو الزناتي حتى نتهيأ للحرب والقتال .

فكان جواب العلام : انني كليت من الحروب والاهوال وليس لي عزم على ملاقاة الابطال والرجال فافعلوا ما بدا لكم وأنا امدكم بالاموال..

ارسلوا يعلمون ناصر اخو الزناتي بجواب العلام ، فلما بلغه الجواب اخذ في تجهيز العساكر في الحال من الغرب وما مضت مدة من الزمان حتى تجهز عنده جيش كبير بين فارس وراجل فمضى بهذا العسكر الجرار الذي يشبه موج البحار وقصد بني هلال وما زال سائرا حتى وصل الى اطراف تونس .

***

وأما دياب فانه دخل يوما على قصر الزناتي فوجد سعدا تبكي

وتنوح من فؤاد مجروح على فقد ابيها وعلى فراق مرعي ويونس لما كان عندها لهم من الحب والهيام ومزيد الشوق والغرام ، فلما رآها الامير دياب على هذا الحال حياها بالسلام ومال اليها وزاد غرامه فيها ، وأراد ان يأخذها زوجة له ، فقال لها : طيبي نفسا وقري عينا حيث انك صرت في ملكي وتحت حكمي اريد ان آخذك زوجة مطيعة ولأوامري سميعة .

فلما فرغ من كلامه وسعدا تسمع نظامه اغتاظت غيظا شديدا ما عليه من مزيد وأشارت اليه تقول :

تقتلــه وتريدنــي لـــك حليلة	فهـذا منك يـا دياب ضـلال
فان اخذتني يا امير عميت نواظري	وتعجلت لروحي بشنــق حبال
ولا الناس يقولوا اخذت عدوهـــا	ولا انسبك لي يا دياب رحـال
ولا اريد الزغبي دياب بن غانـم	الا مقطع فوق رؤوس جبـــال

فلما فرغت سعدا من كلامها ودياب يسمع نظامها اسودت الدنيا في عينيه وقال لها : ما هذا الكلام يا بنت اللئام ؟

وامر عبيده بضربها وأن يشغلوها الاشغال الشاقة ويطحنوها الملح ويلبسوها الملابس الخشنة وتركها ومضى ... ففعلوا كما امرهم بــــه وبقيت على هذا الحال مدة عشرة ايام ، وفي اليوم الحادي عشر دخلت عليها ناقلة بنت دياب ، فلما رأتها على هذه الحال سألتها عن حالها وما جرى لها فأخبرتها سعدا بظلم الامير دياب لها ..

فما اتمت سعدا كلامها حتى رات دياب أمامها وكان قد سمع منهـــا جوابها لانه كان يقف خلف الباب، فأمر غلمانه ان يزيدوا عليها بالاشغال، ففعلوا كما امر وبقيت على هذا الحال ١٥ يوما وهي تبكي وتنوح وكان اكثر بكائها على مرعي لانه نسيها وما فكر فيها ، وكان عندها عبد تعرفه اسمه مرجان من عبيد ابيها فاستدعته اليها وقالت له :

ـ مرادي ان تأتيني بقلم وقرطاس ودواية من نحاس لان مرادي ان اكتب الى السلطان حسن .

فقال لها : على العين والرأس ... فأتاها بما طلبت فأشارت تكتب وتقول :

تقول فتاة الحي التي خاب ظنها ... سعدا اللي خانت ابوهـــا وراح
يا عاديا مني على متن ضامـــر ... اذا مشى يسبق هبوب ريـــاح
فحين وصولك للهلالي قــل له: ... يا كامــل المعروف والاصـــلاح
نسيت الصغيرة يا هلالي ابو علي ... ومعكم ترى ما فعلت قبـــاح
الا فاذكروا يوما اتونا اولادكـم ... الى العرب رادوهم برأي الفلاح
اراد الزناتي ان يشيل رؤوسهم ... ويريد يخطف منهـــم الارواح
تشفعت فيهم ثم حاروا نعمـــة ... ولولاي كانوا قد غدوا اشبـاح
قد قال مرعي آخذ لك حليلـة ... وحيات راسك جد غيـر مـزاح
نظرتم ابوي كيف باد جموعكـم ... وكان عليكـــم بالوغا نطـــاح
فحاربته بالقتل يا امير لاجلكـم ... وسري لكم يا امير صار مبـــاح
فأنا اللي ملكتكـــم ارض تونس ... وخنت ابوي الذي مــات وراح
فقال دياب آخــذك حليلـــة ... فأبيت امــره يا حسن وقبـــاح
فأخذني دياب وحطني في مذله ... وتضربني عبيده في مسا وصباح
وأحمل على ظهـــري الحطب ... واملأ جرار المـــاء بالاتـــراح
رميتوني يا بن سرحان يا بو علي ... فكيف تجارون المليح قبـــاح
نسيتموني والنبي ما نسيتكـــم ... وفيت بعهـــدي جد غير مزاح
مرادي اكون بقربكم يابو علـــي ... وأخدم لتختك مسا وصبـــاح

وسار الى حسن ففض الكتاب وقراه فاغتاظ مـــن دياب وأرسل وراء ابو زيد وعند وصوله اعلمه بما حصل مع سعدا من الاول الـــى الاخر ، فقال له ابو زيد :

ـ ما نقدر نجيب سعدا الا بعد قسمة البلاد .

وفي اليوم التالي ركب الامير حسن وأبو زيد مع جماعة من الفرسان وتوجهوا نحو دياب وما زالوا سائرين الى ان وصلوا اليه فطيبوا خاطره وسلموا عليه فتلقاهم بالترحاب والاكرام وأجلسهم بأعلى مقام .

فشكره الامارة على استقباله وبقوا في ضيافته ثلاثة ايام ، وفي اليوم الرابع قال حسن لدياب :

ـ مرادنا نقسم بلاد الغرب .

فقال دياب : الامر لابو زيد .

فقال ابو زيد : مرادكم قسمة بلاد الغرب ولكن قدامكـــم مصاعب

ومتاعب كثيرة فانكم ملكتم تونس وهي من جملة الممتلكات والباقي سبعة تخوت يجلس عليها سبعة ويحكمون على اربعة عشر قلعة . وبينما هم في الكلام اذ اقبل عليهم العبد مرجان ابن ابو القمصان مخضبا بالدماء ومهشم الاعضاء ، فسألوه : ما الخبر ؟

فقال لهم : ان الشباب قد هلكوا وقد نزل عليهم قوم الامير ناصر اخو الزناتي ، الذي تحت يده سلاطين سبعة تخوت بلاد الغرب فان لم تدركوهم بسرعة ذاقوا الوبال .

فلما سمع حسن هذا الحديث صار النور في عينيه ظلاما وكذلك ابو زيد ودياب واغتاظوا الغيظ الشديد ... وفي الحال دقت طبول الحرب واجتمع عند الامير حسن فرسان الضرب وأخبرهم بالخطر القريب .. وأعلمهم بما اجرته التقادير فهاجت الابطال واستعظمت تلك الاحوال وركبت جموع بني هلال للحرب والقتال ... وفي مقدمتهم العبد مرجان بن ابو القمصان وخلفه الامير دياب والامير ابو زيد ليث الغاب وما زالوا سائرين يقطعون البراري والقفار .

وأما ما كان من شباب بني هلال وهم موسى بن دياب وصبره بن دياب وصبره بن ابو زيد وأخوته شيبان ومخيمر فانهم كانوا خرجوا للصيد والقنص ومعهم عشرة من اولاد الامارة وبقوا مدة ثلاثين يوما يجولون في البراري والقفار والسهول والاوعار يقتنصون الوحوش والطيور، وبينما هم بالصيد اذ وصلوا الى اعالي عين توزر فنزلوا عن الخيول للراحة ... وجلسوا على شاطىء النهر فقام البعض منهم باشعال النار والبعض بذبح الغزلان، وبينما هم في أرغد عيش وأهنأ بال اذ بقوم الامير ناصر والعلام يقبلون عليهم وهم مثل الجراد المنتشر لا يعرف لهم اول من اخر .

***

كان السبب بقدوم ذلك العسكر الجرار ان الامير ناصر والجابلي بن مقرب اتوا ليأخذوا بثأر الزناتي وأخذوا معهم العلام بالحيلة لانه كان

يعرف تلك الاراضي، وتشاء التقادير ان يصادف طريقهم عين توزر فالتقوا بشباب بني هلال فأحاطوا بهم من اليمين والشمال فحينما رأى الامير صبره وموسى بن دياب ان الاعداء احاطت بهم من كل جانب ... صاحوا على رفاقهم : اركبوا ودونكم الخيل من امام قبل ما تدركنا الاعداء .

فحينئذ ركبت الامارة ظهور المهارة وتقلدوا بالسيوف والنصال وهجموا على الفرسان وقابلوهم بالذل والهوان ، ونزلوا عليهم بضربات قاطعات تهدم الجبال الراسيات ، وفرقوا الميامن والمياسر حتى ما كان الواحد منهم يعرف الاخر وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وبقوا على هذا الحال لحين الزوال فافترقوا عن بعضهم ..

والامارة جمعوا رجالهم فوجدوا صبرة مجروح وشيبان اخو صبرة مقتول ومرجان بن ابو القمصان مفقود وبقوا يحرسون بعضهم حتى اصبح الصباح ، فلما نهض صبرة من النوم وجد عساكر الاعداء تحيط بهم من كل جهة فصاروا يشجعون بعضهم البعض وركبوا ظهور الخيل وتقلدوا بالرماح والنصال .. وهجم عليهم جنود الامير ناصر فالتقوا الابطال والجنود كأنهم الاسود ، ولا زالوا في اخذ ورد وقرب وبعد وضرب شديد يشيب راس طفل الوليد .. ولا زالوا على هذا الحال عشرة ايام ، وفي اليوم الحادي عشر هجم شبان بني هلال على جيش الجابلي من كل جبهة ومكان وقابلوهم بالذل والهوان ونزلوا عليهم في طعنات قاطعات والضربات والحرب الشديد حتى ان الشباب قتلت من عساكر الامير ناصر كثيرا .

وفي اليوم الثاني كل الشبان وقل عزمهم واضمحلت قوتهم فطوقتهم عساكر الامير ناصر من كل مكان ونزلوا عليهم بضرب شديد وكانت وقعة عظيمة لان قوم الامير ناصر كانت تأتيهم النجدات من العلام ومن السبع تخوت ، وقتل بتلك الواقعة ثمانية من شبان بني هلال وقبضوا على الامير صبرة وقيدوه بالسلاسل والاغلال ، واحضروه قدام العلام فلما شاهده امر باطلاقه لانه كان مساعد الامير ابو زيد ، فلما لحظ الامير الجابلي فعل العلام قال : يا علام لماذا هذه المطاولة فخذه بثأر الزناتي لانه ابن عمك وهو من لحمك ودمك وقد قتلوا منكم كثيرا .

سحب الجابلي الخنجر بيده وضرب صبرة في صدره فطلع يلمع من ظهره ، وقال للفرسان الذين حوله : دونكم رفاقه الذين في الميدان ، وكـــان موسى ابن الامـــير دياب يقاتـــل والضرب عليه مثـــل رخ المطر وهو يدافع عن نفسه من حلاوة الروح ويقول : يا ابو زيد يـــا حامي الميدان لو كنت قريبا لاتيت ، يا دياب لو رأيتني لانقذتني من هؤلاء.

وبينما هو في ذلك الحال وهم لا بد يقتلوني ، واذا ببني هـــلال اقبلت والسيوف لمعت والعساكر تقدمت وفي اولهم الامير دياب في بني زغبة ، وخلفه الامير ابو زيد في بني زحلان .

وكان السبب في مجيئهم ان مرجان ابو القمصان اخبرهم وعند وصولهم ملأوا الارض بالطول والعرض فرجع الامير موسى بن الامير دياب يتكىء على خيله الردي ، فلما نظر دياب هذا الحال صاح على الابطـــال وهجم على اعدائهم من الميمنة وأبو زيد من الميسرة وبقية الرجال هجموا على الاعداء بقلوب قوية ... وتقدم الامير سرور بن القاضي فنشـــل الامير موسى من بين الاعداء وقبله بين عينيه وهنأه بالسلامة ، ثم اخبرهم عما حصل لهم من الاول الى الاخر وعن قتل صبرة وشيبان ثم ارتدوا على الفرسان بالسيف والسنان فما كنت ترى الا الخيل غابـــرة والرؤوس طائرة والدماء فائرة ، والفرسان بانفسهم حائرة ودار على قوم الامـــير الجابلي الدوائر ، وبقوا على ذلك الحال الى ان اقبل الزوال فبات بنـــو هلال في الارض يحرسون بعضهم الى ان اصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح وأشرقت الشمس على الروابي والبطاح فوجدوا الاعداء يطوقونهم من كل جهة ومرادهم ان يكسروهم لانه اتتهم النجدات من الغرب وتلـــك الجهات ، فسطوا على بني هلال من اليمين والشمال ونزلوا عليهم بطعنات قاضيات وضربات قاطعات ، وكثرت الاهوال على بني هلال وشتتوهم في تلك الروابي والجبال حتى تراجع بنو هلال سبعة مراحـــل الـــى الوراء، فلما امسى المساء اجتمع الفرسان عند الامير دياب وقالوا له :

ـ كيف الرأي امير دياب ؟

فقال لهم : الرأي عند الامير ابو زيد .

فحينئذ فكر ابو زيد بقتل ابنه صبرة فتحركت فيه نخوة العـــرب الجاهلية وصاح على الفرسان: ان شاء الله ننزل اليهم بالسيف البتـــار ونلحقهم بالدمار ونأخذ ثأر الامير صبرة. وصار يحثهم على قتل الابطال ويقـــول :

يقول ابو زيد الهلالي سلامة	بدمع جرى فوق الخدود سيال
الان وقت الطعن في سوق الفنا	بضرب الشواكر وسيوف نصال
الا فارجعوا ردوا الاعادي بعز	مكم بعز قـوي يهلك الابطال
هاجموا القوم بالسيف وبيدوا جمعهم	وخلوا دما الاعادي كسيل سال

فلما فرغ ابو زيد من كلامه ثارت في رؤوس الابطال نخوة الرجال.. وتحفزوا للحرب والقتال ..

***

وفي الصباح اصطف الجيشان والتقى العسكران فانحدر ابو زيد الى ساحة الميدان وطلب مبارزة الفرسان فسقط عليه الامير الجابلي كأنه قلة من القلل او قطعة فصلت من جبل وصدم ابو زيد صدمة تزعـــزع الجبال .

فلما فرغ ابو زيد من تهديده له انحدف عليه من غير رد جواب ... وسارا يتجاولان في الحرب والصدام مدة من الزمان ، حتى زاد الجابلي على ابو زيد في الحرب والصدام كما زاد كانون الشتاء في الرعد ، وكلما فتح ابو زيد بابا في الحرب سده الجابلي حتى سد عليه اثنين وسبعين بابا من ابواب الحرب ... وبقيا على هذا الحال الى وقت العصر ، فصاح الجابلي على ابو زيد وضربه بالرمح فراحت الضربة خائبة .. فثنى عليه بالسيف فأخذه بطارقة البولاد فانكسر السيف نصفين .. فحينئذ تعدل ابو زيد على ظهر الحمرا وقال له : خذها من يد الامير ابو زيــد صاحب المكر والكيد وفارس العرب والعجم والترك والديلم ... وضربه بالرمح فقلب الجابلي تحت بطن الجواد فراح الضرب خايب فثنى عليه بالسيف القرضاب فحكم على محام الرقاب فأخذ الرأس والخاصرة سويا وسقط السيف على الجواد فقطعه قطعتين .. فمال الابطال على الابطال والفرسان على الفرسان من اليمين والشمال حتى ضعف رجال الجابلي لما شاهدوا ملكهم قتيلا فحل بهم الدمار واسرعوا الى الهزيمة والفرار ولا زال بنو هلال يضربون فيهم بالسيف البتار ويطاردونهم في تلك البراري والقفار حتى

كادت تمحي منهم الآثار الى عند وصولهم الديار ... وكان قد ولى النهار واقبل الليل فبات الفريقان يحرس بعضهم البعض الى وقت الصباح ونزلوا للحرب والكفاح فنزل الامير دياب الى الميدان وعرض وبان بقلب اقوى من الصوان وطلب مبارزة الفرسان فانحدر اليه الامير ناصر وأخذا في الحرب والصدام الى نصف النهار .

اغار الامير دياب على الامير ناصر وضربه بالسيف فخلا منه فأتت على رأس الجواد فبرته كما يبري الكاتب القلم ... فوقع ناصر على الارض فانحدر العلام امام الامير دياب بقلب لا يهاب فنزل الامير ابو زيد الى العلام خوفا من ان يقتله الامير دياب لانه كان متعاهدا معه وصديقه .. فصار يتجاول واياه فضرب الامير ابو زيد رأس جواد العلام فأوقعه على الارض ، فأتى قومه وأركبوه جوادا اخر وصار يتبارز واياه الى وقت الغياب، وبقيا على هذا الحال عشرة ايام وكان كل يوم يقتل له فرسا ويرميه ارضا ، حتى ضجر العرب من قتالهما ، وحينما افترقا عن القتال اتت الجازية الى امارة بني هلال والامير ابو زيد وقالت له : لماذا هذه المطاولة ايها الامير وصبرة قد قتل منا الكثير ...

فلما فرغت الجازية من كلامها والامارة يسمعون نظامها انتبهوا الى ما كانوا عنه غافلون واجتمع عشرة من بني هلال وحزموا الرأي مع بعضهم انه في الغد اذا نزل ابو زيد للعلام اجتمع العشرة ليضربوا العلام بعشرة رماح معا حتى لا يقع اللوم من ابو زيد على احد من الامارة لانه متعاهد هو والعلام ...

وفي اليوم التالي نزل العلام الى الميدان فبرز اليه الامير ابو زيد ، فلما رأت الامارة من ابو زيد هذه الاحوال هجمت على العلام من اليمين والشمال وضربوه بالعشرة رماح فوقع على الارض ، فحزن الامير ابو زيد عليه وتقدم اليه وقبله بين عينيه ... ورجع الفرسان ، وكان قد اقبل الظلام ودقت طبول الانفصال فأخذه الى الخيام ورجع الامير ناصر وقومه حزنانين على فقد العلام وأما ابو زيد فانه حمل العلام الى الخيام مقدمة لدفنه .. ولما سمع العدو بمقتل العلام ولوا الادبار واركنوا الى الفرار فتبعهم بنو هلال مدة عشرة ايام حتى شتتوهم في البراري والقفار ، وبعد ذلك اجتمع ابو زيد مع دياب وبقية الامارة وعملوا مشورة في تلك الليلة، فقال ابو زيد لدياب : اننا صرنا في نصف بلاد الغرب وقد بعدنا عن حريمنا وأوطاننا وحولنا جزائر بلاد الغرب وقد كثر اعداؤنا وما لنا

الا المغاربة لاننا لسنا كثيرين في الديار ونخاف ان يعملوا علينا حيلة ويهلكوننا لاننا وجدنا بهذه الديار وأمامنا اربعة عشرة قلعة محصنة فماذا يكون عندك من التدبير ؟

فقال : الرأي عندي ان نخبر الامير حسن بهذا الشأن ونوصيه في المال والعيال .

فقال ابو زيد : لا بأس بذلك ايها الامير .

فحينئذ ارسل ابو زيد كتابا يعلم الامير حسن بقتل صبرا ورفاقه وعن قتل الجايلي وكيف ان العلام خان العهد والميثاق وكيف طغاه الامير ناصر اخو الزناتي وعن الحروب التي حصلت لهم ... وسلم ذلك الكتاب للنجاب فأخذه وسار حتى وصل الى حسن وسلمه الكتاب فقرأه وعرف معناه وقال : انا لله وانا اليه راجعون، واحضر قلما وقرطاسا وكتب يقول:

يقول حسن الهلالي ابو علي	والنار في قلبي تهب وتشتعل
حركت عندي يا هلال مركبا	واصبحت منهذا الكلام فيوجل
فان احتجت لدياب بالعجل	تلقيه بخيلك مثل قطعة من جبل
وان احتاج لك فروح له	في عسكر من فوق خيل بالعجل
وأنتم سيروا يا سلامة فانني	داعي لكم طول الزمان لم ازل
ان شاء الله اله العرش ينصركم	وينجيك بلطف وبلوغ الامل
الله يفعل ما يشاء بخلقه	ويجيب دعا عبد فقير اذا قال

فلما فرغ الامير حسن من تحرير هذا الكتاب ارسله الى ابو زيد ، وعند وصوله قرأه ابو زيد على رؤوس الامارة والفرسان ، ثم قال لدياب: انت توجه نحو كويج وتلك القلاع شرط ان يكون علمكم معي وعلمي معكم فان شاء الله وملكت قلعة لا ارحل الا ان ارسل اعلمك ويكون الاتفاق على هذه الحالة حتى نملك الاربعة عشر قلعة .

حينئذ قرأت الفواتح وأمر ابو زيد ودياب بدق الطبول ونفخ الزمور فركب الفرسان الخيول وتقلدوا بالرماح والنصول فركب ابو زيد بتسعين الف من بني زحلان وتوجه الى قابس ، وركب دياب في بني زغبة وساروا حتى وصلوا الى كويج فنصبوا الخيام ورفعوا الاعلام، واستدعى دياب بقلم وقرطاس ودواة فكتب الى الامير وائل حاكم كويج كتابا يشرح له فيه انتصاراته ويطلب استسلامه .. فتوجه النجاب نحو الامير وائل ، فلما وصل اليه ومثل بين يديه اعطاه الكتاب فأخذه الامير وائل وقرأه وعرف

مضمونه ومعناه ولكن اغتاظ غيظا شديدا ، وكتب الى الامير دياب كتابا واعطاه الى عبده (تلبيس) الذي توجه وسار وجدّ في قطع القفار حتى وصل لعند دياب فأعطاه الكتاب وطلب منه الرد ففتحه وقرأه وعـــرف رموزه ، ثم التفت نحو العبد وقال له :

ـ اخبر سيدك انه ليس عندنا جواب غير السيف البتار وغدا نلتقي في ميدان الحرب .

وفي الحال توجه العبد وأخبر سيده بما اجابه الامير دياب ، فلما سمع وائل ذلك الكلام صار الضياء في عينيه ظلاما وفي الحال امر بدق طبله وتحصين بلده بالسلاح والابطال ونشر رايته في الحال ولبس درعه المانع وتقلد بسيفه القاطع وعلا فوق ظهر الحصان كأنـــه فرخ جان او عفريت من عفاريت سيدنا سليمان .

***

وكذلك ركب الفرسان ظهور الخيول وتقلدوا بالرماح والنواصـــل وتأهب الابطال للحرب والقتال وكل على رفيقه صاح كأنه عزرائيل قابض الارواح ، وبعد ذلك انحدر الامير وائل الى الميدان وتبختــر وبان وطلب مبارزة الفرسان وهو يصول ويجول كأنه الغزال فبرز اليه دياب فانطبق عليه وائل كأنه فرخ جان وابتدآ في الطعن والضرب وقتال يشيب رؤوس الاطفال حتى تناصف النهار فتراجع دياب امامه والامير وائل ارتد الـى الوراء هو وقومه ، فتبعهم قوم وائل بالرماح وضرب السيوف والصفاح، وانطبقت الجيوش على بعضها البعض ونشب القتال والطعان من كل جهة ومكان حتى جرى الدم وسال وصار القتلى كالتلال ، فكانت وقعة مهولة لا يعرف الابن اباه ولا الاخ اخاه ، بحيث استطاعوا الظهور على جماعة الامير دياب .. ولما اقبل الليل واجتمع دياب الى رجاله اخذ يحمسهـم ويطلب منهم الثبات والجرأة في الطعن والضرب حتى النهاية ...

فهاجت عندئذ في نفوس الامارة روح المغامرة والنخوة ، فلما كان اليوم التالي نزلوا الى المعركة وقد اقسموا ان يموتوا ولا يتراجعوا ، وقد تمكنوا بسبب ثباتهم ان يقهروا جماعة الامير وائل ، حتى اضطروهم الى الهرب والفرار من امامهم ..

عاد وائل الى مدينته آسفا لفشله ومقتل الكثير من جنوده، فتقدم

اليه الوزير الاكبر وقال له :
ان شاء الله غدا انزل الى الميدان وابليهم بطعن السنان وأكفيك شر هؤلاء العربان بعون الواحد الديان .
وأما قوم دياب فدخلوا عليه وسألوه عن خصمه فقال لهم : انـــه فارس شديد وقرم عنيد ولكن غدا ان شاء الله انزل اليه وآخذ روحه من بين جنبيه ..
وفي اليوم التالي ولما اصبح الصباح تقلدت الجيوش الرماح ونزلوا الى مكان الكفاح فانحدر الوزير دهقان الى ساحة الميدان كأنه فرخ جان وطلب مبارزة الفرسان فنزل اليه امير من امارة بني هلال وكان اسمـــه المهاب ، فقال له دهقان :
ــ من انت من الفرسان وما اسمك ؟
فقال : اسمي المهاب وصنعي قطاع الرقاب ... فحينئذ انطبقـــا على بعضهما كالاسود بقلب كالجلمود يحاولان الظفر والنصر حتى كلت منهما الزنود وطلعت منهما ضربتان ماضيتان، وكان السابق المهاب فضرب دهقان بالسيف اخذها بطارقة البولاد فأتت على رقبة الجواد فبرتها كما يبري الكاتب القلم فأتاه دهقان على جواد اخر وسقط عليه بالسيف وضربه على رأسه شقه الى تكة لباسه ، فنزل اليه فارس اخر فقتله والثاني جندله والثالث محقه وما زال يجندل فارسا بعد فارس حتى جندل خمســين ساعة من الزمان حتى عرف دياب قوته فلاصقه وضايقه وضربه بالسيف على هامه رمى رأسه قدامه ، وحينئذ دقت طبول الانفصال ورجع الملك وائل في حالة الغم لفقد اخيه دهقان وحين وصوله الى الديار سألوه عن قومه وخصمه فأجابهم يقول : انه خصم عنيد وبطل صنديد ..
وأما ما كان من دياب فانه لما رجع الخيام وسألوه عن خصمه قال لهم : لله دره من بطل شديد وقرم عنيد .
فقال له قومه : هل يكون اشجع من الزناتي ؟
فقال لهم : ان الزناتي ما وجد على الارض فارس مثله ولكن الملـك وائل أقدر وأخبر وفي موضع الطعن اشطر وأجسر .
وما زالوا في هذا الحديث الى ان اصبح الصباح فدقت الطبـــول ونفخت الزمور وركب الفرسان وانحدروا الى ساحة الميدان طالبين الحرب والطعان . فلما وقعت العين على العين التقى دياب بوائل فانطلق البطلان كأنهما جبلين وحام عزرائيل فوق راسي الفريقين فتكسرت بأيديهما الرماح

وسحبا السيوف الصفاح ولعبا الوانا حيرت الشيوخ والشبـــاب الى ان زهقت الارواح فضربا بعضهما بالسيوف فطارت من ايديهما السيـــوف فسحبا الدبابيس فتكسرت بأيديهما من شدة الضرب ، وما زالا فـــي صيحات مرعبات وضربات هائلات فيا لهما من بطلين درغامين وأسدين كاسرين تعلمت منهما الفرسان ابواب الحرب والطعان ، وبعد ذلك خرج من الاثنين ضربتان قاطعتان فكان السابق وائل ضرب دياب بالرمح ففطس تحت بطن الشهبا فراحت الضربة خائبـــة ... وضرب دياب وائـــلا بالسيف على هامه حط رأسه قدامه فوقع وائل قتيلا . فلما رأى قوم وائل ملكهم قتيلا ولوا الادبار وركنوا الى الهزيمة والفرار ، فتبعهم قوم دياب وجردوا فيهم السيف القرضاب الى ان دخل دياب البلد وجمـــع الاكابر والعمد وجلس على كرسي المملكة ونادى بالامان في جميع المدن والبلدان .

وبعد ذلك استدعى بقلم وقرطاس وكتب الى السلطان حسن يخبره بما جرى وصار ، فلما وصل الخبر الى السلطان حسن وقرأ كتاب دياب على رؤوس الامارة والسادات فرحوا فرحا شديدا وعملوا عراضة عظيمة لها قدر وقيمة اكراما لدياب لانه ملك تخت كويج .

***

مضى دياب في سبيله بعد ظفره الى ان وصل ناحية برج الدمـــع وهناك امر العسكر بالنزول ونصب الخيام ورفع السناجق والاعـــلام وأحضر قلما ودواة من الذهب الخالص وكتب يهدد الامير بكار ملك الدمع بالاستسلام او الحرب .

وأما الامير بكار سلطان برج الدمع فكان جالسا في الديوان واذا بفرسان من كويج الذين سلموا من القتل دخلوا عليه وقبلوا يديه فقام لهم بكار على الاقدام وسلم عليهم وأكرمهم وسألهم عن سبب قدومهم اليـــه فأجابه احدهم وكان يسمى فايد بما جرى وكيف قتل الامير فايد وغلب بنو هلال على البلاد ..

ولما فرغ فايد من نظامه والامير بكار يسمعه حزن حزنا شديدا ما عليه من مزيد خصوصا على قتل الامير وائل ابن عمه ومن لحمه ودمه ، ولكنه استغاث بالله الجبار على قتل هذا الانسان القهار . وبينما هم في

هذا الحال* اقبل عليهم نجاب الامير دياب وبيده الكتاب فدخل وسلم بأفصح لسان تكلم وسلم الكتاب للامير بكار ففضه وقراه وفهم جميع ما حواه فكثر عليه الحزن وازدادت عليه نيران الغضب وأمر القواد والعساكر ان يكونوا تحت الطلب، واجاب على رسالة دياب باستعداده للحرب والقتال ..

ولما فرغ الملك بكار من كتابه ارسله مع نجاب الى عند دياب، فلما وصل النجاب اليه سلمه الكتاب ففضه وقراه واطلع على رموزه ومعناه فزاد به الحقد والغضب ، وعند الصباح امر بدق الطبول ونفخ المزمار ، وأمر الرجال بالتأهب للحرب والقتال فحضر الفرسان وركبوا ظهور الخيول وساروا قاصدين الميدان ومحل الضرب والطعان ..

اما ما كان من الملك بكار فانه جمع العساكر والقواد وسار بهم الى خارج البلد لمحاربة الاعداء . وبينما هم على هذا الحال اذ اقبلت عساكر دياب فلما وقعتالعين على العين نزل الملك بكار فصالوجال ونادى بأعلى صوته : هل من مبارز هل من متاجر لا يبرز لي كسلان ولا عاجز .

فما اتم كلامه حتى صار الامير دياب قدامه وهجم على الملك بكار وصدمه صدمة جبار فالتقاه الملك واصطدما صدام الابطال ، وتطاعنا بالرمح فانجرح دياب جرحا بليغا ووقع على الارض فجرد الملك بكار الحسام وأراد ان يكمل عليه فانقذه الامير محمود بن دياب وبقي في معركة القتال الى قرب الزوال فرجع محمود الى ابيه وسأله عما جرى له ...
فأجابه : استحضرنا الحكيم الهندي فأعطاني شربة تمر هندي واليوم الجرح خفيف بعون الاله اللطيف. فعند ذلك تولى الفريقان الحراسة الىان اصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح للميدان فنزل اليه دياب وبكار وما زالا معا في حرب من الصباح الى الزوال .

وفي الايام التي تلت نزلا للحرب والصدام وظلا على هذا مقدار سبعة ايام ... واخيرا اغتاظ محمود وقال :
ـ وحياة رأس ابي لازم اشيل راسه واخمد انفاسه بهذا النهار والحقه البوار .

فلما دقت طبول الحرب نزل الامير محمود والامير بكار الى ساحة الميدان فتطاعنا بالرمح وتضاربا بالسيوف الصفاح حتى زهقت منهما الارواح وما زالا في اخذ ورد وبعد وكر ونصر لقرب العصر حتى خرج

الاثنان من تحت الغبار فتطاولت لهما الاعناق وشخصت لهما الاحداق الى ان طلعت من الاثنين ضربتان قاطعتان ، فكان السابق الامير بكار ففطس الامير محمود تحت بطن الجواد فراحت الضربة خائبة ... فاعتدل الامير محمود على ظهر الجواد وضرب الامير بكار بالسيف على راسه فشقه نصفين والقاه على الارض قطعتين ... فصاح دياب : لا شلت يدك ولا شمتت بك اعداؤك يا محمود .

وهجم بنو زغبة على عساكر الاعداء من كل سبيل وأبلوهم الذل والويل ودخلوا البلد وجلس الامير دياب على الكرسي واستلم اموال القلعة ... فلما فرغ الامير دياب امر العساكر بدق الطبول وركب الخيول فركب الفرسان وودعهم وسار الى برنيجة وتلك الاقطار فما زال سائرا الى ان وصل تحت برنيجة فنصب الخيام واستدعى بقلم وقرطاس ودواية من الذهب الخاص وجعل يطلب عشر المال من الملك زايد .

***

وكان الملك في هذه الفترة قد رأى مناما مزعجا ، فطلب ضارب الرمل لتفسيره .. ففسره له بان هناك عدوا سوف يصل الى بلدهم ويستولي عليها .. ويملك قلعتنا واموالنا .. وان القادم هو الامير دياب البطل المعروف ..

فلما فرغ الرمال من كلامه توجه الملك الى الديوان وجمع الاكابر والاعيان ، واخبرهم بالمنام وعن الامير دياب وقال : كيف العمل مع هذا الفارس القادم علينا ، فنهض الينا اكبر وزرائه وكان فارسا مشهورا يقال له الوزير ماجد وقال له : يا ملك الزمان انا سمعت ان ذلك الفارس دياب قد قتل الامير وائل ملك تخت كويج وقتل الملك بكار حاكم برج الدمع وهو قاصد الينا فالاوفق ان نسلم له المال والخيل والجمال حتى لا يبيد عساكرنا ويهلك ابطالنا لان معه تسعين الف فارس من بني زغبة . فلما سمع الملك زايد هذا الكلام قلبت الدنيا في وجهه ظلاما وقال : ويلك يا كسلان تخوفني من رجال وفرسان هي عندي تشبه النسوان ، فوحق ذمة العرب وشهر رجبما اترك احدا ينزل الى حربهم وقتالهم... بل انا انزل اليهم وأضرب الامير دياب على هامه احط رأسه امامه ..

فشكروه على شجاعته وسطوته . وبينما هم في ذلك الحديث واذا بنجاب الامير دياب يدخل عليهم ومعه كتاب ... وناوله للملك فلما فضه

وقراه اغتاظ غيظا شديدا وقال للرسول : اذهب الى مولاك وقل له : لا يوجد عندي جواب سوى السيف البتار ولو لم يكن عار قتل النجـاب لقطعت راسك .

فذهب الرسول واخبر مولاه دياب فاغتـــاظ وغضب وأمر بدق الطبول فاستعد الفرسان الى الحرب والنزال وساروا قاصدين الميدان ، وأما الملك زيد فانه بعد ان ارسل الكتاب الى الامير دياب تجهز للحرب والطعان وسار الى خارج البلد فبينما هم في ذلك واذا بفرسان الامـــير دياب تقبل كأنها اسود الغاب ، فلما التقت العين بالعين ، نزل الامير زايد الى الميدان فصال وجال وطلب براز الفرسان فانحدر الامير دياب كأنــه ليث الغاب .

فقال الملك زايد : من تكون من العربان يا أنذل الفرسان ؟

فقال دياب : سوف ترى من اكون !

وبدأت المعركة بين الفارسين ، فما زالا في هزل وجد واخذ ورد الى وقت الظلام ودقت طبول الانفصال ... وفي اليوم التالي نزل الامير دياب الى الميدان فبرز له الامير زايد والتقى البطلان كأنهما جبلان وكان الملك زايد قد استظهر على الامير دياب فجذب الحسام في يمينه حتى حـك الركاب بالركاب وشد على ظهر الجواد واراد ان يضربه بالسيف فتلقاهزايد بالعمد .. واطلق عليه العامود فخلا دياب من الضربة فأتت في قصعة السرج من خلف فأطارتها ووقع العامود من زايد فقال دياب : خذها من يد الامير دياب قطاع الرقاب .

واطلق عليه الضربة فأتتعلى راسه وطيرت جميع اضراسه واخمدت نفاسه والقاه على الارض قتيلا ، ثم صاح بقومه وهجموا على الاعداء ، وبينما هم في قتال شديد يفتك الزرد النضيد ، التقى الامير دياب بوزير الملك زايد وكان اسمه (نافع) فتجاولا بساحة الميدان وتطاعنا بالسنان الى ان ضايقه الامير دياب ولاصقه وسد عليه طراقه وضرب يده بجليات درعه فاقتلعه من سرجه كأنه العصفور في يد الباشق الجسور، وضربه بالارض فأدخل طوله بالعرض وأوقعه قتيلا وحمل على بقية العساكر ، فلما رأى قوم الملك زايد هذه الاحوال ولوا الادبار فتبعهم قوم الامير دياب وفتكوا بهم فتك الديب بالاغنام ودخل الامير دياب الى البلد واحضر الاكابر والعمد واستلم الاموال والذخائر وجلس على كرسي المملكة ، وبعد جلوسه كتب الى الامير حسن بالفتح والظفر ..

ولما فرغ الامير دياب من انتصاره طوى الكتاب واعطاه الى النجاب فأخذه وراح حتى وصل الى الاوطان فدخل على صيوان السلطان حسن وسلمه الكتاب ففضه وقرأه على رؤوس الامارة والسادات فشكروا دياب على اعماله ودعوا له بالنصر ... وأما الامير حسن فاستدعى الامير رضوان وخلع عليه وقلده وظيفة القائم على قلعة (برنيجة) فأخذ الامير رضوان مائة امير من عشيرته للمسير بصحبته، ولما اصبح الصباح ودع الامير حسن وقبل يديه وطلب منه الرضا ، فقال له : مرادي ارسل الى دياب كتابا وأخذ يكتب اليه ما يلي :

نعم ايها الغادي على متن ضامر	كفرخ حمام في البراري فريدها
سلم على الزغبي دياب وقل له	يا فارس الفرسان يوم طريدها
والله ينصرك دوما على العدا	بحرمة خير البرايا وسيدها

ولما فرغ الامير حسن من كلامه طوى الكتاب واعطاه للامير رضوان، فعند ذلك ركب وتوجه الى ناحية برنيجة وما زال سائرا الى ان وصل اليها فدخل على الامير دياب فاستقبله وأكرمه غاية الاكرام ، وأجلسه على كرسي المملكة وأمر المنادي ان ينادي في البلد باسم الامير رضوان الحاكم عليها ... ثم امر بدق طبل الرحيل وودع اهالي البلد وتوجه الى ان وصل الى قلعة اخرى فضرب هناك الخيام وركز الاعلام واستدعى بقلم وقرطاس ودواة من النحاس وراح يكتب الى الملك حمودة يطلب منه عشر الاموال ..

فلما وصل الكتاب الى الملك محمود غضب والتفت الى الرسول وقال له : اذهب الى مولاك وقل له ان لا جواب له الا السيف ورمي الرقاب .. فسار العبد حتى وصل لعند مولاه الامير دياب واخبره بما قاله محمود فاغتاظ من هذا الجواب .

ولما اصبح الصباح ضربت طبول الحرب والكفاح على الفريقين ، ولما وقعت العين بالعين حملت الطائفتان على بعضهما وقامت الحرب على قدم وساق ، وشابت اللمم وجار ملك الموت وحكم ، وجرى الدم وانسجم وصار وجود القوم عدم وجرى للقوم وقعة عظيمة تشيب الاطفال وتقصر الاعمار الطوال وما زالوا على هذا الحال مدى خمسة عشر يوما وكان قد هلك من الفريقين عساكر كثيرة حتى دارت على قوم محمود الدائرة

فدخلوا البلد واقفلوا الابواب والامير دياب وقومه يحاصرونهم من خارج السور، وعند المساء جمع الملك محمود اكابر الديوان وقال لهم : كيف العمل مع هؤلاء العربان الذين كأنهم مردة الجان فأنا مرادي اطلب الامان، فقالوا له : الراي رأيك، نحن سامعين مطيعين لاوامرك . فحالا استدعى بقلم وقرطاس وكتب الى الامير دياب يطلب منه الصلح والسلام ..

فلما قرأ الامير دياب الكتاب وعرف رموزه ومعناه امر بالامان ، واجتمع اليه الاكابر والعمد وسلم محمود لدياب ما عنده ، وبعد ان استلم دياب الخزائن والقصور ، ولى حمودا على تخت القلعة شرط ان يدفع الجزية في كل عام .. وأرسل دياب الى الامير حسن ابن سرحان بما حصل ، فرد عليه حسن وقال : افعل ما تريد . فحينئذ ودع دياب الملك محمود وسار قاصدا قلعة طنجة حتى اشرف عليها .. فأمر بنصب الخيام ، وجلسوا للراحة وأرسل دياب من يكشف له خبرها -طنجة- وقعد في اكل وشرب مدة ثلاثة ايام الى ان رجع الجاسوس فقال له دياب: ما معك من الاخبار؟ فقال : اعلم ان ملك طنجة يقال له نايل وهو فارس شجاع وأما اسوار المدينة فهي عالية متينة وعساكره لا تعد ولا تحصى وقد علم بوصولنا من الرعيان وقد جهز عساكره للقتال والحرب والنزال . فلما سمع دياب هذا الكلام دق الطبول وركب الفرسان الى ساحة الميدان ونظر الملك نايل الى جنود الامير دياب وأمر بدق طبوله فاجتمع في الحال عنده آلاف من الابطال فخرج بالعساكر الى خارج الصور الى ان التقت العين على العين فنزل الامير درغام وطلب براز الفرسان ، فما اتم كلامه حتى صار الملك نايل امامه وقال له : من تكون من الفرسان ؟

قال له : انا الامير درغام بن الامير زيدان وأنت من تكون من الفرسان؟

فقال : انا فارس القبائل وملك الجحافل حاكم مدينة طنجة الملك نايل . ثم التقى البطلان كأنهما اسدان وقامت الحرب وزاد الضرب الى منتصف النهار فرجح نايل على خصمه ولاصقه وضايقه وسد عليه طرقه وطرايقه وضرب يده لجلباب درعه فاقتلعه من بحر سرجه والقاه الى الوراء فأخذه قوم نايل اسيرا وقيدوه بالاغلال والجنازير ، فبرز الامير زيدان فتلقاه الملك نايل وأخذا في ضرب الصفاح وطعن الرماح حتى زهقت الارواح فضربه بعقب الرمح فقلبه وسلمه لقومه اسيرا وقادوه ذليلا حقيرا فبرز اليه اخر ارداه وثان اعدمه الحياة وثالث بدد امعاءه ورابع

اغرقه بدماه وما زال يقتل حتى قتل عشرين وأسر ثلاثين حتى اقبل الظلام ودقت طبول الانفصال ...

عاد الامير دياب الى مضاربه وهو غائب عن الصواب من عظم ما جرى له من اسر فرسانه وعلى من قتل منهم ثم شجع الفرسان على الحرب والطعان وتخليص الاسرى من الذل والهوان ، فلما اصبح الصباح ضربوا طبول الحرب والكفاح فبرز الامير نايل الى ساحة الميدان ونادى : هل من مبارز هل من مناجز لا يبرز للميدان لا كسلان ولا عاجز ، فما اتم كلامه حتى صار الامير دياب بن غانم قدامه وقال له :

ــ ابشر بالهلاك فقد اتاك الامير دياب فتشاتما بالكلام ودار في اياديهما الحسام وانطلقا كما ينطلق الغمام وكان السابق الى خصمه الامير دياب فوقعت الضربة في صدر الامير نايل فوقع قتيلا ، فلما شاهد قومه مقتله ولوا هاربين والى النجاة طالبين ... فدخل الامير دياب البلد وخلص الاسرى وجلس على كرسي الامارة وامر ان ينادى في البلد بالامان، وجمع الاكابر واستلم الاموال والذخائر واستولى على الملك واستدعى بالامير عقل وأجلسه نائبا على البلد وخرج قاصدا مدينة طنجة وما زال سائرا الى ان وصل الى سهل واسع الجنبات فسرح بنو هلال فيه الاغنام ونصبوا الاعلام عدة ايام ..

***

هذا ما كان من امرهم وأما ما كان من امر الملك مزيد ملك قلعة طنجة فانه قد تواردت عليه الاخبار بما فعل الامير دياب من الحروب والاهوال فاستدعى وزيره الاكبر وكان اسمه عمر ، وكان الوزير عاقلا خبيرا وصاحب رأي وتدبير ، فقص عليه ما فعل الامير دياب .. وسأل عما يريد عمله ، فأجابه :

ــ سوف احاربهم وانكل بهم كل تنكيل ..

ولكن الحساب جاء على خلاف ما ظنه وتوقعه الامير مزيد صاحب طنجة ، لان الامير دياب تمكن منه وقضى عليه في الجولة الاولى ..

وبعد ان استولى الامير دياب على طنجه ، توجه الى قلعتها وكان يحكمها ملك يدعى سليمان ، اخذ بالاستعداد لما بلغته اخبار بني هلال

وعلى رأسهم الامير دياب ، فلما التقى الجمعان ، وبرز لواجهـــة دياب ، وجد نفسه من الخائبين الفاشلين ، اذ تمكن منه دياب وقتله واستولى على قلعته وبذلك تم للامير دياب الاستيلاء على القلاع السبع التي كانت في المغرب ..

- ١٢ -

أبو زيد الهلالي ومعاركه ومغامراته في بلاد المغرب ..

كان على ابي زيد ان يقوم بدوره الاخير في هذه المسيرة ..

وان يقتحم الارض التي طلعت من قسمته .. فلما استقر الراي بين الامير حسن وابو زيد ودياب على اقتسام الارض كما قدمنا ، وسار دياب في سبيله ليستولي على ارضه الجديدة ، تحرك ابو زيد بدوره ليبدأ مسيرته الاخيرة ..

وكان اول ما توجه له ، ونصب همته لاقتحامه ، مدينة (صيس) فقد وافاها عند منتصف الليل ونصب خيامه حولها ، واحاط بها ، فلما افاق سكان البلدة في الصباح وشاهدوا مضارب بني هلال وخيامهم اخذوا يضربون كفا بكف وهم لا يدرون ما يفعلون ..

وكان ملكهم الملك فياض شديد اليأس قوي المراس ، فلما شاهد بني هلال قرر حربهم وقتالهم ، فنزل له ابو زيد وقتله فولى جنوده الادبار ، وملك ابو زيد البلد ، واحضر اميرا من بني زحلان اسمه الامير صخرة ولاه ادارة هذا البلد ..

وبعد ان اقام اياما للراحة والاستجمام توجه الى قلعة (سوت) وكان يحكمها امير ذو جند واعوان يقال له البهلوان .. فلما عرف بما وقع للامير فياض قبله ، تأهب لملاقاة ابي زيد بما عنده من الفرسان ..

وتمت الملاقاة .. ووقعت المفاجأة ، فهوى البهلوان في وسط الميدان من الضربة الاولى واستولى ابو زيد ورجاله على القلعة وما فيها من الذخائر والاموال ...

وبعد ان استراح اياما وضع على هذه القلعة اميرا اسمه مهران ،

وكتب الى الملك حسن بالنصر ، ثم توجه الى قلعة مغواره ..

وكان المنهزمون من قوم الامير البهلوان قد توجهوا الى مغواره بعد فشلهم ، واخبروه بما حدث لهم ، وكيف استولى بنو هلال على قلعتهم ..

وكانت اخبار بني هلال قد وصلت الى امير مغواره ، فقرر مغادرة بلده لانها لم تكن حصينة ولا قوية لتحميه ، والتوجه الى مدينة القيروان لعند الملك زهير ، فلما وصلوا الى عند الملك زهير واخبروه بقصتهم قال :

ــ الافضل ان نترك بلدنا ايضا فهي ليست حصينة ، ونذهب الى قلعة الاندلس لعند الامير حماد ، الذي استقبلهم احسن استقبال ، وانزلهم في خير منزل ومقام ..

***

وأما ابو زيد فلما وصل الى مغواره خرج اهلها لاستقباله وقد عقدوا محارم الامان ، واخبروه ان ملكهم تركهم وذهب الى قلعة الاندلس لما عرف بقدومه ..

فضبط امور البلدة ، واقام عليها حاكما من رجاله ثم توجه الى القيروان ، فاستقبله اهلها بالترحاب والسلام واخبروه ان ملكهم رحل عنهم الى قلعة الاندلس ..

وبعد ان ضبط امور البلدين ، توجه ابو زيد الى قلعة الاندلس ، فلما بلغها ، وجد اهلها قد استعدوا للقائه ومحاربته .. فنصب خيامه ، ورتب فصائله لان وقت وصوله كان ليلا ، ولما اصبح الصباح خرج الجميع للقتال ، وبرز الامير حماد يطلب البراز والحرب .. ولكن حمادا هذا لم يقف امام ابي زيد غير ساعة واحدة ، تمكن منه ابو زيد في نهايتها وقضى عليه ، فهرب جنوده فسبقهم رجال ابي زيد واستولوا على البلد بعد معركة في الشوارع ذهب ضحيتها خلق كثير ..

ثم توجه ابو زيد ورجاله الى مدينة مراكش فلما وصلها نزل حولها، ونشر اعلامه ، وبلغ ملكها ويدعى (مالك) قدوم بني هلال فجمعاكابر دولته وسألهم عن سبب قدومهم .

فقال احدهم : انهم من قوم بني هلال الذين قتلوا الزناتي خليفة

والعلام ، وملكوا جميع البلاد وهم رفاق الذين يملكون السبعة قلاع ناحية الشرق ، وقد وصلوا الى ارضنا الان ..

وبينما هم في الحديث واذا برسول مقبل عليهم فدخل وسلم وقال للملك : ان سيدي الامير ابو زيد يقرؤك السلام ويقول لك ، ان تسلم البلد حتى لا يحل بك ما حل بغيرك من ملوك البلاد .

فلما سمع الملك من الرسول هذا الكلام خاف خوفا شديدا والتفت الى اكابر البلدان وقال لهم : ما عندكم من الرأي ؟

فقالوا له : الراي عندنا ان نصالحهم ونسلمهم البلد .

فالتفت الملك للعبيد وقال لهم : خذوا الرسول الى بيت الضيافة وتجهزوا واخرجوا الى لقاء الامير ابو زيد والامارة والوزراء واضربوا طبول الملاقات .

فلما رأى بنو هلال انهم بدون سلاح عرفوا انهم سلموا البلاد فلاقوهم احسن ملاقاة وأضافهم قوم مالك وقاموا بواجبهم احسن قيام مدة ثلاثة ايام .

وفي اليوم الرابع دخل ابو زيد البلد فحالا قدموا لهالدفاتر والاموال وأجلس ابو زيد مالكا على كرسيه بشرط ان يدفع الجزية في كل عام .. وبعد ذلك ودعوهم وساروا وما زالوا سائرين اول يوم والثاني والثالث حتى وصلوا الى مدينة مليئة بالخيرات فيها انهار وأطيار تسبح الملك القهار... وشاهدوا في خارج البلد خياما منصوبة وراياتوسرادق مضروبة وأسمها قلعة زوارة وكان يحكمها ملك عظيم الشأن ذو جند وعربان يدعى الامير كامل .. وكانت قوافل المنهزمين قد اقبلوا عليه في عشرة وعشرين وأخبروه بما جرى عليهم من الاهوال فحالا امر بتجهيز العساكر والمهمات والذخائر ، وان يستعد الابطال لملاقاة بني هلال ومحاربتهم وقتالهم وكتب الى ابي زيد باستعداده للحرب والقتال .

فلما فرغ كامل من كتابه ارسل الكتاب صحبة النجاب فلما وصل لعند الامير ابو زيد فضه وقرأه وعرف ما حواه امر بدق طبول الحرب ونزل الفرسان لساحة الطعن والضرب، فلما سمع كامل صوت الطبول امر بدق طبوله وخرج فرسانه الى ساحة الميدان فلما وقعت العين على العين ، برز كامل الى الميدان فبرز اليه ابو زيد ، وتقاتلا حتى كلت منهما الزنود وقدحت لهما الاعيان وتعلمت منهما الفرسان ابواب الحرب والطعان ، وما زالا في عراك شديد يفك الزرد النضيد ويشيب الطفل

الوليد مدة عشرة ايام حتى ضجر الابطال من هذا الحرب والقتال .
وفي اليوم الحادي عشر برز ابو زيد الى الميدان فصال وجال وطلب براز الابطال فبرز اليه كامل وابتدآ بضرب السيوف وطعن يرعب كل قلب ملهوف حتى تحير من قتالهم الفرسان وتعلموا منهم الحرب والطعان، وما زالا على هذا الحال الى ان قرب الزوال فضربه ابو زيد بسيفه فأرداه ..

عندئذ هجم رجال ابي زيد على العدو وما زالوا يطاردونه حتى دخلوا البلد معه وجلس ابو زيد على كرسي المملكة وضبط الاموال واستلم جميع الاموال وأحضر الامير (هادي) ووضعه حاكما على قلعة زوارة وبعد ذلك جهز ابو زيد الاموال وحملها على الجمال وأمر بدق طبل الرحيل وسارت الجيوش والمراكب والفرسان والكتائب ومعهم الاغنام والمكاسب، وما زالوا سائرين يقطعون الفيافي والقفار حتى وصلوا الى (عين توزر) وهي بنصف الطريق فجلس للراحة وأمر بذبح الاغنام وشرب المدام .

***

وبينما هم على هذا الحال اذا طلعت عساكر دياب من ناحية الغرب الجنوبي فلما التقى ابو زيد بالامير دياب هنؤوا بعضهم بالسلامة واخبروا بعضهم بما قاسوا من الحروب والاهوال ، وجلسوا ثلاثة ايام ثم قاموا وجدوا بالمسير حتى وصلوا الى تونس ... فلما علم حسن بقدومهم خرج لملتقاهم بالنساء والرجال وجميع الذين كانوا معه وعند اللقاء هنأهم بالسلامة ، ودخلوا بموكب عظيم ودارت البشائر في نجوع بني هلال وفرحت في قدومهم النساء والرجال وبعد ما استراحوا سألهم الامير حسن عن الاحوال التي جرت لهم فخبروه بما قاسوا من الحروب والاهوال في تملك سبعة تخوت بلاد الغرب ، وحينئذ امر حسن بعمل وليمة كبيرة وبذبح الاغنام دعى اليها الخاص والعام وبعد مدة من الزمان قسموا بلاد الغرب بينهم بالسوية بين ابو زيد وحسن ودياب كل واحد الثلث فكانت تونس لدياب من غير حساب عوض الخضرا ، ثم رحل حسن الى القيروان وجعلها عاصمته ، وابو زيد جعل الاندلس عاصمته وهكذا جلس كل واحد بمملكته واستقر فيها ..

بعد ان استقرت الامور وهدات ، كتبت سعدا الى الامير حسن

تشكو همها وكيف انها مظلومة عند الامير دياب ، فبعث حسن الى أبي زيد واعطاه الكتاب واتفق الاثنان على الذهاب الى تونس واخذ سعدا من القصر التي هي فيه ..

ولكن الامير دياب غضب لما عرضوا له القضية ، واخبرهما انه لم يطلب الزواج بها كما تدعي ، وانها امرأة خائنة والتي تخون والدها لا امان لها .. ولما حاول حسن اخذها رفض دياب ، وكادا يشتبكان فتدخل ابو زيد واوقفهما ..

عرض عندئذ دياب على الرجلين ان يضعا سعدا في اخر الميدان ومن سبق اليها كانت له ، فرضيا ، وتم السباق وسبق دياب ، ولما وصل الى سعدا ضربها بالسيف فماتت ... وجن مرعي لما علم بموتها ومزق ثيابه ، اسى وحسرة ...

- ١٣ -

سجن الأمير دياب وذهاب أبو زيد الى نجد

لقد انتهت قصة بني هلال ، فاقتسم الامراء الثلاثة المغرب واستقروا فيه ، وازالوا الامراء السابقين .. وحلوا محلهم .. وراح كل واحد منهم يتصرف في حصته من الارض تصرف الحاكم المالك ..

ولكن زعيمة اخت الزناتي لم يرضهـا هذا الحـال ولا قبلت بالامر الواقع ..

كان همها ان تنتقم لشقيقها ومن مات مـن اهله وانسبائه .. وان ترى الفتنة تشتعل بين الامير دياب والامير حسن ، ولهذا جمعت عشيرتها واخوها (العلام) ــ وهو غير العلام السابق ــ وقالت لهم :

يا قوم لقد فقدنا اخي الزناتي والعلام والجابلي بن مقرب وفتح بنو هلال الفتوحات وملكوا السبعة تخوت بعد الغرب ، وما تركوا ملجأ نسكن فيه .. لقد احزنني موت سعدا ابنة اخي وكسرت ظهري ، وكانت كـل املي فيها ان تعزنا وتكون ملجأنا ، فالان مرادي اتوجه الى بـلاد بني هلال وارمي بينهم الفتن .

فقال لها اخو العلام : يا ست زعيمة نخاف عليك من ابو زيد لانـه حيال مكار ومكره غلب مكر المغارب .

فقالت : لا تخف عليّ .

وودعت قومها وسارت الى عند بني هـلال بصفة شاعرة لكي ترمي الفتنة بينهم فما زالت سائرة حتى وصلت الى تونس الخضراء ، فدخلت على الامير دياب فباست يديه وسلمت عليه وقالت له :

يا امير دياب قد سرتني سلامتك وفرحت بقتل الزناتي لانه كان من

اكبر اعدائي وقتل اهلي ويتم اولادي واخذ مالي ونواي وعشت حزينة غريبة في اقصى البلاد ، فلما علمت انـه مات ركبت ناقتي وقصدتك فانا عندي في هذه الارض والبلاد عين سلوان وغيظ المهرجان وانا قررت ان اقسم لك هذه الارض ويكون الغيظ من قسمتك .

فقال لها : ما يكون هذا الغيظ وفي اي بلاد ؟

فقالت له : غدا صباحا نتوجه اليه واريك اياه.. وظلا يتحدثان عن الغيظ الى ان اصبح الصباح ، فركب الامير دياب في جماعته مع العجوز وجدوا بقطع القفار الى ان وصلوا الى الغيظ فانبسط الامير دياب وانشرح لما نظر الى تلك الغدران التي تدهش البصر وتلك القصور العامرة والاشجار الفاخرة ، وصار الامير دياب في غيظ البرجان وعين سلوان يجني الاثمار ويقطف الازهار ..

واما العجوز فقالت للامير دياب : ارجوك ان تسمح الي ان اذهب الى عند اولادي واخذ لهم حملا من الفواكه .

فقال لها : افعلي ما بدا لك ولكن لا يطول علينا غيابك يا اماه .

اخذت ست العرب كمية من افخر اثمار الغيظ وذهبت الىعند الامير حسن والامير ابو زيد وجدت في المسير حتى وصلت اليهما وسلمت عليهما وقبلت ايديهما وقدمت لهما الهدايـة واشارت تروي وتصف لهما الغيظ والبهرجان .

فلما فرغت العجوز من كلامها والامير حسن والامير ابو زيد يسمعان شعرها وقع الحسد في قلوبهما من الامير دياب ، ثم انعموا على العجوز وصرفوها في حال سبيلها .

وقال الامير حسن : والله يا امير ابو زيد لقد حاز الامير دياب على افخر ارض الغرب ومرادنا ان نذهب مع الابطال وننظر هذا الروض العجيب وفي اليوم التالي ركب هو والامير ابو زيد وما زالوا سائرين الى ان وصلوا عند دياب ودخلوا غيظ البهرجان وعين سلوان ... ولما نظر الامير حسن وابو زيد هذا المنظر وعلو القصر وجميع ما ذكرت عنه العجوز تعجبوا غاية العجب .

ولما علم الامير دياب بحضورهم اسرع للقدوم عليهم وقـال له الامير ابو زيد : يا امير دياب نحن ماسكين البقرة من ذنبها وانت تحلبها .

فقال الامير دياب : الله اعطى فمن يمنع ... واذا منـع من يعطي

فقال الامير ابو زيد : فان شئت يا امير دياب تعطي هذا الغيط الى الامير

حسن .. فرفض دياب فهجم عندئذ جماعة ابو زيد فهدموا الاسوار وردموا الآبار وكسروا الاشجار .

ولما نظر دياب الى هذه الفعال غضب في الحال وجمع بني زغبه وفي نصف الليل واحضر ثلاثمائة ثعلب ودهنهم بالزفت والكبريت واشعل النار في اذنابها واطلقها بين مزارع بني هلال وكان ايام الحصاد فاشتعل الزرع ولعب في بعضه البعض ، فوصل الخبر الى الامير حسن فخرج هو وقومه لاطفاء الحريق ولكن بعد ان احترق اكثره وما بقي الا القليـل ، ففضب حسن وعرف ان هذا فعل دياب فجمع قومه وراح يستشيرهم على حرب دياب فقال الجميع: الاحسن ان نرسل وراه فان اطاع السلطان يحرم قتاله.

ورفض دياب الحضور ، ففضب الجميع لذلك .

وقالوا كلهم : الحق على دياب فهو غدار وما علاج الغدار الا ضرب البتار .

كل هذا وابو زيد ساكت فقال له حسن :

لماذا يا ابو زيد انت ساكت ؟

فقال ابو زيد : انا لا ارى من الموافق ان تقتلوا دياب لانه منا وفينا ولا احب ان نفنى بعضنا ونحن طول عمرنا عايشين ودايما انا وهو نتعاون على الخير والشر ، فاذا حاربته فاما ان اقتله او ان يقتلني ، ومن قتل منا تخسره بنو هلال ، والراي عندي ان نصلح بينكم ويذهب كل شيء الى حال سبيله .

فقال حسن : لا بد عن قتاله لانه ما كفاه ان خرج عن طاعتي ووضع رمحه فوق تونس لنمر من تحته بـل لانه استخف بنا جدا وقتل سعدا خطيبة مرعي امامي ، وهي صارت من حريمنا وقد طمع فينا واراد ان يأخذها .

فقال ابو زيد : انا اروح معكم ولكن لا اقاتل بل اصلح .

ثم انهم جمعوا قومهم وذهبوا الى قتال دياب فلما وصلوا اليه وعلم بهم خرج بقومه لقتالهم .. فلما التقوا برز حسن الى الميـدان .. فبرز اليه دياب ، وبعد قليل طلعت مـن الاثنين ضربتان قاطعتان كـان السابق بالضربة الاولى الامير دياب فوقعت على فرس حسن ونزلت على جواده كالعدم فادركه ابو زيد وخلصه .

واما مرعي فلما وقع حسن اراد ان يهجم على دياب فزجه بالحربة فاصابت لبة فخذه فرماه الى الارض ثم لوى عنان جواده ورجع قاصدا بلاده

وما احد تبعه ثم اجتمع بقومه وقال لهم : عرفتم ما قد صار بيننا وبين حسن فما الرأي عندكم ؟

قالوا : الرأي عندنا ان تسافر وتغيب لك مدة من الزمان حتى تصلح الاحوال ويروق البال لانك تعديت على حسن وعلى اخيه مرعي ، وقد يؤيدهما الامير ابو زيد فتقع بيننا الحروب والاهوال ونفني بعضنا ونشمت الاعادي فينا .

فقال لهم الامير دياب : لا ارحل من هذه البلاد ما لم اقتل حسن وما قدره الله يصير ..

***

فهذا ما كان منه واما حسن فقد وجد انه مجروح فحمله قومه واخذوه الى القيروان وصار الامير ابو زيد يلوم حسن ويقول له : انت تعديت على دياب وكان مرادك تقتله ومن الحكمة ان تصغوا لقولي وترفعوا الحقد من بينكم .

ثم ان ابو زيد اصلح بين حسن ودياب ولكن بقيت البغضاء كامنة في قلوبهم الى يوم من الايام جمع حسن قومه وسادات عشيرته وقال : مرادي ازف ابني مرعي على عطر بنت ابو زيد فنادوا في جميع العربان مدة العرس شهر تمام لا احد يأكل ولا يشرب الا من عند حسن ، فذبح حسن الذبائح وعمل الولايم ثم استدعى عشرين فارسا من اولاد عمه وقال :

مرادي ان ارسلكم الى تونس لتعزموا دياب .

وكتب له كتابا يدعوه فيه للحضور وسلمه الى امير من اولاد عمه وقال لهم : لا ترجعوا الي الا ودياب معكم .

فاخذوا المكتوب وساروا يقطعون الروابي والهضاب قاصدين دياب واما دياب فحلم في تلك المدة حلما هائلا فاستدعى ابن عمه مسلم فلما حضر بين يديه سأله عن معناه ففسره له بانه اضغاث احلام ..

وبعد ايام اقبل عليه عشرون اميرا من عند حسن فدخلوا وسلموا عليه واعلموه بدعوة حسن واعطوه الكتاب فلما قرأه عرف رموزه ومعناه انسر وانشرح جدا وسألهم عن صحة الامير حسن وابو زيد وعن اخته نافلة وعن بقية نجمع بني هلال فقالوا : الجميع بخير يهدوك السلام والتحية .

فقال لهم : انني بعد ثلاثة ايام ان شاء الله اكون هناك فسلموا على

الامير حسن واهدوه مني جزيل السلام .

ولما تأكدوا مجيئه رجعوا واخبروا الامير حسن فذبح حسن الذبايح واولم الولائم واجتمعت القبائل عنده وهم في بسط وانشراح الى ان كان اليوم الثالث فثار الغبار من جهة تونس فخرج حسن للقا القادمين .. ولما وقعت العين على العين سلموا على بعضهم البعض ، وكان دياب كالشيخ الجليل يلبس جبة من الحرير الاخضر وشالح على كتفه برنس احمر وعلى رأسه عمامة من البرفيل والارجوان ... ثم دخلوا على الامير حسن فترحب بهم غاية الترحيب وجلس دياب على كرسي من العاج وقومه من حواليه ، ثم امر الامير حسن باحضار القهوة والكاسات والشراب واحضر مائدة من الطعام مصحوبة بالف فارس ضرغام جلسوا على المائدة فوجدوا المناسف مغطاة ، فرفع الامير دياب الغطا عن المنسف فوجده فارغا من الطعام وفيه قيود من الحديد ، فقال الامير دياب :

ما هذا يا حسن ؟

فقالوا : الواجب ان تتقيدوا مع السلطان بالطاعة ولو ساعة . فعندئذ وضع الامير القيد برجله وفعل باقي الامارة مثله .

وبينما هم كذلك هجمت فرسان دريد لداخل المكان وبيدهم الخناجر والسيوف .. وبسبب ذلك صار دياب كالملهوف فعندها امر الامير حسن بنصب المشانق والحبال وقال :

اشنقوا جميع هؤلاء الرجال .

فذبحوا ستين اميرا من آل غانم .

ففعلوا ذلك ولم يستطع دياب شيئا لا هو ولا امير غانم والده ..

ثم قرر الامير حسن شنق دياب ايضا، فتدخل قاضي العرب وقال له:

ـ الشفاعة بدياب ..

فرفض الامير حسن شفاعته لان دياب قتل سعدا وحرق الزرع ، وعصى السلطان ، وقطع الطريق ..

واعترف دياب امام القاضي بانه فعل كل ذلك ، وعندئذ حكم القاضي عليه بالسجن مدة من الزمن .. وأمر حسن بسجنه ، وبعث الف فارس من رجاله الى تونس حملوا اليه كل ما كان في قصر دياب من السلاح والمال والجواهر ..

***

لما سمع ابو زيد بهذه الاخبار وهو في الاندلس اسرع الى القيروان ليبحث الامر مع الامير حسن ..

ولما اجتمعا سأله عما فعل بدياب فقال :

فقال له الامير حسن : ما عملت مع دياب الا اني سجنته... فانكنت قتلت اولاده واخوته فهو قتل اخي وخطيبة مرعي وجرح مرعي وجرح قلبي عليهما فقابلته بمثل ما قابلني وجرحت قلبه عليهم .

وفي ذات يوم اجتمع حسن وابو زيد في الديوان ... وحولهم السادات والاعيان وامامهم الفرسان فدخل عليهم نجاب وسأل عن الامير ابو زيد فاهدوه عليه فتقدم وتمثل بين يديه فسأله ابو زيد : من اين يا وجه العرب فقال :

ـ انا قادم من نجد احمل كتابا اليك من عند الست عليا بنت حسن الجعبري .. وهي تهديك التحية والاكرام ..

ومنذ فارقتها والخطاب يطلبونها ، والان هي مخطوبة من الامير نوفل ولكن عليا لا تريده ... فكتب نوفل كتابا عن لسانك بانه «ليس لك في عليا غرض ولا مأرب» ولما بلغ عليا هذا الخبر ، ضاق صدرها واصبحت في حزن ونكد عظيمين .. وهذا كتابها اليك ..

تناول ابو زيد الكتاب وقراه ، ثم بكى على اثره وقرر الذهاب الى نجد لمشاهدة عليا ، كما كتب كتابا لها ارسله مع العبد ضمنه عواطفه نحوها ، وكتب لها اولادها مثل كتابها ..

وقد سرّت عليا بهذه الكتب وهدأت وانشرح صدرها ..

وبعد شهر من الزمن قرر ابو زيد الذهاب الى نجد لزيارة عليا وسأل اصحابه مرافقته ، فرفضوا وقالوا :

ـ نحن ما صدقنا ان وصلنا الى الغرب واسترحنا حتى نعود للضرب والقتال والكفاح ..

فغضب ابو زيد لهذا الجواب ، فقام ابن اخت له يدعى عزيز وهو بطل صنديد وان كان في السابعة عشرة من العمر واعلن عن استعداده لمرافقته، وكذلك يونس قال مثل ذلك ، فسرّ ابو زيد واخذ يتهيأ للسفر..

وفي اليوم التالي ودعوا اهلهم وجدوا في قطع الصحاري والآكام مدى ثلاثة اشهر .

وفي اليوم الحادي والتسعون اصبحوا في صحراء وارض قفرا خالية من الماء فحرقهم الظمأ من شدة الحر في ذلك البر ... وفي اليوم الثاني

شاهدوا من بعيد بئر ماء له علامة بتلك البيد ، فقصده يونس ووجد فيه دلوا وحبلا على جنب البير فحاول استعماله فانقطع الحبل بوسط البير فهم عزيز بالنزول فمنعه ابو زيد وقال له :

ــ هذا بير ملىء بالحشرات المؤذية فدعونا نسير الى ان يفرجها الله تعالى .

قال يونس وحيات رأسكم لا بد من النزول الى البير لاني صرت على حافة التلف من كثرة العطش .

فقال ابو زيد : ان الروح ما هي حشيش والحشرات المؤذية لا يعرفون اميرا ولا سلطان .

فقال يونس : دعك من هذا الكلام ما احد ينزل الا انا ولو شربت كاس الحمام .

فقال ابو زيد : افعل مرادك .

فحينئذ اخذ الحبل ونزل الى البير فلاجل القضاء والقدر لذعه ثعبان وهو في البئر فقتله ، وحزن عليه ابو زيد حزنا شديدا هو ومن معه ، ودفنوه في مكانه من الصحراء ، وذبحوا على قبره ناقة ، ثم مضوا نحو نجد حتى بلغوها بعد ايام ، فشاهدوا الزينات فيها تعم البلد والاغاني ترج الارض ..

سأل ابو زيد عجوزا شاهدها في الطريق عن السبب فقالت :

ــ اليوم زفاف الامير نوفل على السيدة عليا .. التي كانت زوجة ابو زيد الذي هجرنا ولم يعد يسأل عنا ..

فقال لها : هل لك للسر موضع ؟

قالت : طبعا لا تخف وتكلم ..

فقال : انا ابو زيد .. ولكن كيف الاجتماع الى عليا دون ان يشعر احد ..

قالت : اترك هذا الامر لي فآتي بها بعد الفرح الى بيتي حيث يتم الاجتماع ..

وكان من تدبيرها ان ذهبت لعند عليا ، واعلمتها بقدوم ابي زيد واخذت معها الامير عزيز وكان من الجمال في الطبقة الاولى ولا يزيد عمره عن سبعة عشر عاما وقالت العجوز لعليا :

ــ عليك ان تنزعي ثيابك ، ليلبسها عزيز ويجلس مكانك ، فانه بمثل

حسنك وجمالك .. فلا يفطن لسره احد ..
« واما انت وانا فنذهب للاجتماع الى ابي زيد الذي قطع كل هذه البراري والصحاري لرؤيتك » ..

وتم كل شيء كما وعدت العجوز ان يكـــون ، ولبس عزيز ثوب العروس ، وجلس مكانها .. ومضت العجوز وعليا الى حيث كان ابو زيد بانتظارهما ، فلما شاهد الامير عليا هاجت بلابله ، وشكر الله علـى هذا اللقاء ..

***

هذا ما كان من هؤلاء .. واما عزيز فانه اخذ ينتظر قدوم العريس الامير نوفل .. الذي اقبل اخيرا وجلس الى جانبه ..

ولما حاول نوفل ان يمد يده الى (عزيز) نفر هذا منه وقال له :

ــ ليس هذا من افعال العرب ، يا قليل الادب ..

فقال نوفل : ما السبب حتى تبادرني بهذا الكلام يا بنت الكرام ؟.

فقال عزيز : اعلم ان العروس لها على العريس شروط ، وانا يوم اخذني ابو زيد اعطاني الف دينار ، وانت امير وابن امير فما هذا البخل واين الهدية ..!

فلما سمع من عزيز هذا الكلام صار الضياء في وجهه كالظلام وقفز واقفا على الاقدام واراد ان يضربها بالحسام ، فقامت العروس وامسكت العريس وضربت به الارض فكادت تدخل طوله بالعرض ثم اوثقته بالحبال وربطته بالعمود ليذوق العذاب الاليم الىان اصبح الصباح فاطلقت سبيله، ودام الامر علىهذه الحال يأتي العريس في الظلام طمعا بالوصال فيلاقي النكد والوبال وظل على ذلك الى اليوم الرابع وبينما هو خارج مـــن الدار لقي الخدار ، وكان رجلا كبيرا عليه سمة الوقار فحياه بالسلام فرد عليه سلامه وبالغ في اكرامه وقال : مبارك يا عريس ان شاء الله تكـون نلت مبتغاك وقهرت مبغضك واعداك .

فتنهد نوفل من فؤاد حزين وصاح يا اجواد يا كرام .

فصاح به عمه وقال له: ما بك.. ومن بشره دهاك؟ فقال له : اعلم يا عم يا كاشف الهم .. انا كل يوم اذهب الى العروس ابنة الحرام طمعا ببلوغ المرام فتوثقني بالحبال والقيود وتربطني على العمود وها قد اطلعتك

على سري ... وركنت امري اليك .

فأجابه الشيخ : ومن يقدر عليك بالقوة ؟ فقال العريس : لا يوجد احـــد يقدر عليّ الا عزيز القوم وهو الان فـــي المغرب . فأجابـــه الشيخ : ايها الامير ان اردت تكشف عنك هذا الغم وتزيل عنك هذا الهم اصنع لك شيشين احدهما من دم والآخر مـــن سم وحين تذهب وتطلب منها الوصال وتريد ان تكشف الخبال فأضربها بشيش الـدم فان كانت انثى تدل وتنفر .. وان كانت ذكرا يهوش ويتقدم فاذا رأيتها بادرت اليك اضربها بشيش السم فيسقط ويقع بالندم فاربطه بالعامود وقيده بالسلاسل والقيود ..

فشكره على ذلك فذهب للبيت ومعه الشيشين فلما نظرته العروس قالت له : هل احضرت الفلوس ؟

قال لها : ما عندنا مال يا ابنة الانذال .

وعندما تقدمت اليه لتكتفه ضربها بشيش الدم فهاجت فلما نظرها بهذا الحال ثنى عليها بالثاني فحينئذ تقدمت اليـــه وربطته من حـــلاوة الروح وحينئذ غير عزيز لباسه وتركه بحاله وذهب لعند ابو زيد حيث اطلع على ما جرى له ، واخبره ان نوفلا قد ضربه بشيش السم وهو الان في حالة النزع ...

- ١٤ -

مقتل الامير حسن وهرب دياب وجماعته من وجه بني هلال

عندما اصيب الامير عزيز بالسم امام الامير ابو زيد اغمي على الفارس الاسمر فاسرعوا يرشونه بالماء حتى افاق وهو في اشد حالات الغضب والحزن معا ..

والتفت عندئذ ابو زيد الى عليا وقال لها :

ـ ان موت عزيز يفرض عليّ ان لا آخذك معي ، لان الطريق صعب وطويل ..

فقالت له : لا بد لي من الذهاب معك .. وان مت اموت ولا ادع اعداءك تشمت بك ..

ففكر الاسمر قليلا ثم قرر اخذ عليا .. مهما كان الامر ..

وبعد ساعات عاد عزيز لوعيه ، وطلب من ابي زيد ان يستعد للسفر ، لانه يشعر ان باستطاعته السفر معهم ، فوافق ابو زيد وركب هو وعزيز وعليا على الخيول ، وغادروا البلد دون ان يشعر بهم احد .. بعد ان ودعوا العجوز واعطوها هدية ثمينة ..

طالت الرحلة وتقطعت ثلاثة اشهر قبل ان يصلوا الى حدود تونس وهنا مات عزيز في الطريق بعد ان وصل السم الى قلبه ، فبكاه ابو زيد وعليا بدموع غزار ، وشق الاسمر عليه ثيابه ، ثم دفنه وذبح ناقة على

قبره ، واقام مع عليا اياما ينامون حول القبر ويبكون ..

***

في هذه الاثناء كان ابو زيد لا يزال في سجنه وقد كتب الى الامير حسن يسترضيه ، فلم يوفق ، فكتب الى شبل الدريدي يرجوه ان يتشفع له عند حسن ، فذهب هذا الى حسن ورجاه العفو عن دياب فاعتذر ، وسرد له ما فعله دياب معه ، وعندئذ ادرك دياب ان لا احد يستطيع نفعه وانقاذه مما هو فيه غير الامير ابو زيد الذي عاد من نجد منذ ايام قليلة ..

وكتب دياب لابي زيد يرجو الشفاعة له عند حسن ، فوعد الاسمر رسوله خيرا .. وفي وقت قريب .. وعندما يستقر في ارضه ..

وفي ذات يوم وفي عيد العربان بالذات اجتمع الامراء عند الامير حسن في الديوان واخذوا يذكرون الوقائع المشهورة والفوارس المذكورة وصاروا يمدحون فروسية دياب وكيف انه ملكهم بحد السيف وحمى المواشي من الاعداء وقتل الزناتي في ساحة الميدان ويستحق ان يذكر فضله مع الفرسان .

وكان في الديوان اولاد الامارة والشبان الذين لم يسمعوا بذكر دياب الا باللسان فتشوقوا الى مشاهدته وهاموا لرؤيا طلعته ولو ساعة ، فرجوا السلطان وساعدهم الامارة والنسوان فقبل السلطان رجاهم وامر ان يأتوا بدياب مكبلا بالقيود والحديد .

وفي الحال احضروه وامام السلطان اوقفوه ، اذا هو اصفر اللون كالموتى فصاروا اولاد الامارة يضحكون عليه واوصلوا الاذية اليه .

فقال السلطان حسن : كيف ترى امورك الان بالذل والهوان ؟

فقال : اني بخير ما دمت راض عليّ ... وبعد مداولة طويلة اراد الامارة اعادته الى السجن فقال دياب :

ــ انا لا شيء يهزني ولا قمح يكدني بغربالك فان كان الذئب يصفى للغنم انت تصفالي وانا اصفالك .

فصاح حسن : ويلكم دياب امسكوه والى السجن ودوه .

فعند ذلك اخذ دياب يرتجف مظهرا الخوف الشديد ووقع على الارض مغشيا عليه كمن قارب الموت فعند ذلك استعطف الامارة الامير حسن وقالوا له: ان دياب في حالة النزع... فأمر بادخاله الى دار الحريم لعند

اخته نوفلة ... فما اتم كلامه الا وحضر الرجال ورفعوا دياب بكل اكرام الى بيت اخته فلما نظرته على هذا الحال وهو محمول على ايادي الرجال صرخت وبدات بالبكاء واشتكت ومزقت ثيابها .

وما زالت نوفلة تردد الاشعار وتسكب العبرات حتى فتتت الاكباد واحلت الاجسام فبكى معها كل من حضر وهم يقولون : يحق ان تعمل اكثر من ذلك لان الامير دياب فارس مشهور وبطل غضنفر ، واخذوا يطيبون خاطرها وبسلامة دياب يطمنونها ، فما زالت دموعها ولا زالت تسكبها وما خفت مصيبتها بل اسرعت ومدت الى اخيها فراشا من ريش النعام واخذت ترش عليه من ماء العيون وهو ينتفض ويرتعش ، وبقي على هذا الحال ثلاثة ايام لا يذوق طعاما ولا يقابل انسانا وهو يرقب الفرص حتى تناصف ليل اليوم الثالث فدخل على حسن وهو غارق في نومه وسحب المدية التي كانت معه مدة حبسه فانطرح على حسن وذبحه من الوريد وتركه يتخبط بدمه وسار يجد السير تحت ظلام الليل الى ان وصل الى قومه وعشيرته وعند الصباح فرحوا به كثيرا وسروا لرؤيته واخذوا يسألونه عن قصته وكيف خرج من سجن حسن فاخذ يقص عليهم القصة العجيبة الغريبة ، والايام العصيبة التي قضاها في سجنه وكيف كانت النهاية بمقتل حسن وموته ..

فلما سمع القوم منه كيف قتل الامير حسن انقلبت افراحهم الى اتراح ، واظلم في وجوههم النهار ، وما منهم الا من اظهر الحزن والاسف وقالوا :

والله يا دياب لقد فعلت فعلا منكرا وركبت طريقا ضيق الجنابات وسديت في وجوهنا الابواب بقتل الامير حسن ابن عمنا فكيف تجاسرت على هذا العمل ، وهو صهرك وامير بني هلال وكاشف ضرك والان قد اصبحنا عبرة عند العرب الذين يحفظون الزمام ، فسوف يصير بنا كما صار مع جساس بن مرة والامير كليب ، ومن الان نشبت عداوة كبيرة بين عشائر بني هلال وسوف يصلون الينا .

وما زالوا بمثل هذا الكلام للامير دياب حتى كرهت نفسه الحياة وقال: يا ابناء العم ورافعي همي وغمي لقد صار ما صار وسبق السيف العزل والندم لا ينفع الان .. والاوفق لنا ان نرحل من هذا المكان ونوسع في البر قبل ان تدركنا جموع بني هلال وتقوم بيننا وبينهم السيوف .

فلما سمعوا كلامه وفهموا مرامه قالوا : ان هذا هو الاحسن لنا لئلا

تدركنا جيوش بني هلال ويتسابق بيننا الفناء ، وحالا هدموا الاطنــــاب وأودعوها ظهور الجمال وأركبوا النساء والاطفال وساروا بعاجل الحـال وكانوا يجدون بقطع الروابي والبطاح ويوسعون بالبر ما استطاعوا سبيلا..

واما ما كان من زوجة حسن فحين شاهدت الامير حسن قتيلا بدمه صاحت ومزقت ثيابها وناحت وولولت بما يذيب الاكباد ويفتت حجـــر الجماد فتراكضت جموع بني هلال على بكاهــا واسرعوا لينظروا ما قد دهاها فوجدوا الامير حسن مطروحا على الارض قتيلا ... فعلت منهــم الاصوات وسكبوا العبرات واكثروا مــن التنهدات ... فسمع ابو زيد الصراخ فوثب في الحال وخرج يستقصي الخبر فنظر جمـوع بني هلال مزدحمة على صيوان الامير حسن فصاح صياح البكاء ومزق ثيابه ورمى شاشه عن رأسه ووضع عليه التراب وتقدم الى الامير حسن فوقع مغشيا عليه من عظم مــا اعتراه فتراكض النــاس واخذوا يرشونه بماء الزهر ويطيبوا خاطره بالكلام وهو يئن من قلب جريح وينــوح ويصيح وما زال على مثل هذا الحال حتى جرح القلب فوق جرحهــا ، فتقدم اليه اولاد الامارة واخرجــوه الى خارج الصيوان واخــذوا بخاطره من هذا الشأن وقالوا له :

يا امير ابو زيد ان بقيت على هذا الحال تفقد حياتك لا محالة فيكون فقدك نهاية .

وبمثل هذا الكلام كانــوا يخاطبونه حتى سكن روعــه فالتفت الى النافلة وقال لها : يا نافلة اين كنت لما فعل اخوك هذه الفعال ، وحين قتل سيد الابطال ، فزادت في النحيب والعويــل واقبلت اخته الجازية وهي تصيح من قلب وتبكي ... وتنتف شعرها وتمـــزق ثيابها وتضرب برأسها وهي تئن انات الحزانى وتندب اخاها الامير حسن ، وتقاسي لاجله المحن وتقدمت ووقعت عليه تقبل قدميــه ومن عظم مــا اعتراها وقعت على الارض كالاموات حتى ظن انها فارقت الحيــاة ، فتراكضت النساء ورشوها بالماء واقاموها عن الارض وهي تولول وتصيح حتى احزنت وابكت كل قلب جريح ، عند ذلك طافت الارض مما سال عليها مــن الدمــوع واجتمعت اصوات سائر عربان تلك النواحي على الحزن والاسى العظيمين..



ولقد ظل الجميع في البكاء طيلة ايام ثلاثة ..

وقد اجتمع الجميع من نساء ورجال حول جثة الامير حسن يرثونها بالاشعار ، ويقصفون الرماح والسيوف على الجثة .

وفي اليوم الرابع اجتمع مشايخ زحلان ودريد وتقدموا الى الامير ابو زيد وقالوا له :

اعلم ايها الامير كفى بكاء وان بقي الناس على هذا الحال لا شك يموتون ... فالاحسن رفع جثة الامير حسن ودفنها لان كرامة الميت دفنه وبذلك امر رب الارباب .

فاجابهم ابو زيد الى ما طلبوا ووافقهم على ما رغبوا وتقدم الامارة بكل احترام فرفعوا جثة الامير وغسلوها وبروائح المسك والطيب رشوها وتحت التراب وضعوها وذبحوا على قبره من الجزور والاغنام الشيء الكثير ثم اقاموا قبة على القبر وزينوها بكل زينة وكتبوا بماء الذهب اسم الله الاعظم وتحته اسم الامير حسن ثم رجعوا وعملوا مناحة لم يجر مثلها في سالف الزمان ..

وكانوايندبون اميرهم ليلا ونهارا ويقدمون المراثي اشعارا وكنت ترى العربان تأتيهم من كل مكان يعزونهم بفقد الامير حسن ، ولما انقضت ايام المناحة وسكن روع الناس اجتمعوا في صيوان الامير ابو زيد وقالوا :

يا امير بني هلال ماذا تأمر ان يصير باخذ ثأر الامير حسن فاننا والله لا نرتاح ولا نكف عن البكاء والنواح ولا تبرد قلوبنا الجراح ، ولا يجتمع نساؤنا بنا في الاطناب... الا ان نأخذ لهم بالثأر ونرفع عنهم المذلةوالعار ونقتل دياب ابن غانم ومن معه ونجعل آل غانم مشتتين في كل الاقطار لا يقر لهم قرار ونذبح فيهم الكبار والصغار حتى لا يبقى منهم احد ونجعلهم عبرة لمن اعتبر ..

فاجابهم ابو زيد الى ما طلبوه ووافقهم على ما رغبوه وقال لهم :

وحق الركن والحجر والبيت المطهر ... لو علمتم ما بقلبي لرثيتم لكربي فانا اول من يتقدم لاخذ الثأر وكشف العار واني والله سوف اورد آل غانم الفناء ولا ابقي منهم احدا . وسوف اصلب دياب على رؤوس الجبال وأبقيه باصعب حال واجعله عبرة لمن اعتبر بين سائر البشر ، ولا تحسبون سكوتي ترددا ولكن كنت صابر لتأخذوا راحتكم من البكاء والتحسر ، والان صار الاولى بنا ان نستعد للرحيل في اثر آل غانم ونوقع بهم المأتم .

هذه الليلة داروا بين البيوت واخبروا البنات والنسوان ان يستعدوا للرحيل ويبادروا للسفر بعد ثلاث ايام ليتبعوا آل غانم الى ايـن ساروا ولو طاروا .

وعند ذلك طافت الرجال بـين الاطناب واخبروا القـوم بهذا الامر وما مضت الثلاث ايام الا وكنت ترى النساء على ظهور الجمال والاطفال يركبون فوق الجمال والرجال على الخيول والسوابق يعتقلون الرمـاح الطوال والسيوف الرواشق ، وفي مقدمـة الجيش الامير ابو زيد حامي جيوش بني هلال وهو امامهم كالاسد الريبال وتحته اشهب، وعليه سرج مرصع بالذهب وهو فوقه كانه قلة من الظلام او قطعة فصلت مـن جبل بيده رمح ماضي السنان وعلى جنبه سيف يمان ، وقد افرغ على صدره درعا مـن البولاد محبـوك بالزرد كما انتشرت البيارق والرايـات ودقت الطبول فسمع لها رجات واخذت الخيـل تتسابق والركاب مـع النساء والاولاد تتلاحق وكانوا جمعا كبيرا وعددا غفيرا وابو زيد يحميهم بشعره وكلامه . .

ولما فرغ ابو زيد من كلامه وجموع بني هـلال تسمع مقاله صاحوا بلسان واحد : والله يا ابو زيد اننا نفديك بأرواحنا لانـك مضمد جراحنا وما فينا احد الا وقلبه نار وجميعنا نشتاق لاخذ الثأر وكشف العار .

وساروا من ساعتهم الى طلب بغيتهم وما زالوا سائرين ليلا ونهارا حتى دخلوا تونس والغرب وتلك الديار فلاقتهم اهل تونس وقدموا لهـم الخضوع والطاعة وما كان في تونس الا القليل من آل زغبي فأتوا لاستقبالهم عاصبين على اعناقهم المحارم ، واظهروا للامير ابو زيد الحزن والاسف على فقد حسن ، وما منهم الا وكان يلعن دياب بالشفة واللسان فسألهم ابو زيد عن دياب فأجابوه : من مدة ايام رحل الى بـلاد الحبش هو وبعض قومه فلما سمع ابو زيد هذا الكلام صار النور لديه ظلام وامر الجيش ان يبقوا على ظهور الخيل فاندفعوا في ذلك البر كالسيل ، وكانوا يعدون مائـة الف فارس وكل منهم بالحديد غاطس فجدوا في السير في اثر دياب ، وما زالوا خلفه الى ان ضاق بهم الحال ولم يعلموا اين رحل فكادوا يهلكون من الجوع والعطش في ذلك البر المقفر فرجعوا على اعقابهم وقلوبهم من دياب ملتهبة حانقة . . .

ولما وصلوا الى الاطلال نصبوا ابو زيد سلطانا عليهم وعلى جميع بلاد الغرب .

واما ما كان من امر دياب فما زال يقطع الروابي والقفار واوغل في الاحراش والاوعار الى ان وصل الى بلاد الحبش وتلك الاقطار فسمع به ملك تلك البلاد فخرج لملاقاته وكان يركب جوادا اشهب عليه سرج مرصع بالجواهر والذهب ومعه الحشم والاعوان والعبيد والغلمان والنساء بالدفوف والمزامير ، وفي اياديهم من خاص الخناجر المملوءة بالمسك الزافر.

فلما التقت الرجال بالرجال نزل الملك عن جواده وترجل هو وكل من معه وحيوا (دياب) تحيات الاصحاب وقالوا لهم انتم اعز الاحباب فتقدمت الاحباب واخذوا يرشون عليهم الطيوب التي تشفي الكروب ..

وعند ذلك ارسل بهم الملك الى المضارب والخيام وذبح لهم الجزور والاغنام واعطاهم احسن مجلس ومقام وقال لهم انتم السادات ونحن العبيد وكلما تأمرون به عندنا لا يخيب .

هذا ما كان من جوهر صاحب التاج المجوهر ، واما دياب فانه شكره على ما بداه وزاد في مدحه عن كل ما اداه وقال له :

اعلم يا ملك جوهر اننا قد اتينا ضيوفا لنقيم عندك مدة من الزمن وبعد ذلك نرحل .

فقال : اهلا وسهلا بكم .

ثم انزل دياب في احد قصوره وفرض لهم مكانا واسعا واعد لهم محلا يرعون فيه المواشي ، وبقي دياب مع جوهر في عز واكرام وبسط وانشراح مدة من الزمان ...

***

واما ابو زيد فانه بينما كان ذات يوم يجلس وحده في بيته تذكر ارض نجد وعزها وما لاقى فيها من الهناء والراحة ايام الصبا ، ثم تذكر الاهوال التي لاقوها في الطريق حتى وصلوا الى بلاد الغرب وتذكر زيدان والخفاجي عامر والقاضي بدير ونصر وبدر بن غانم فجعل يبكي عليهم وعلى اولاده واولاد الامير حسن الذين قتلوا ... مضى يبكي وينوح ، ثم تشوق الى رؤية دياب وقال :

هذا رفيق عمري وحامل الشدائد معي ... وحسن قد قتل بيومه ثم خطر بباله ان يرسل يستعطف بخاطر دياب ويطلب منه ان يرجع الى بلاده فكتب له جوابا بهذا المعنى وختمه بختمه وارسله الى دياب مع

النجاب ، فأخذه وسار يطوي الفيافي والقفار حتى وصل الى بلاد الحبش وتلك الديار فسأل عن المكان الذي نزل فيه دياب فاهتدى عليه ، وسار اليه وقبل الارض بين يديه واعطاه الكتاب فاخذه منه وفضه وقرأه وعرف رموزه ومعناه وبعد ذلك اخذ قلما وقرطاسا ودواة من الذهب الخاص .

وبعد ان شكر ابو زيد على عواطفه ، طلب تأكيدا لاقواله ان يرسل له بعض الامراء ليشخص معهم اليه ..

فلما قرأ ابو زيد الكتاب استدعى بعشرة من الامراء مـن اولاد عمه وأولاد عم الامير حسن ، وارسلهـم ليصالحوا الامير دياب ، وما زالـوا يجدون السير الى ان وصلوا لعند دياب ودخلوا عليه فلاقاهم وسلموا على بعض وسألهم عن ابو زيد فقالوا ارسلنا لنعقد الصلح بينكم وتعودوا كما كنتم في الحال القديم فعند ذلك سار الامير دياب الى الملك جوهر وودعه وركب بقومه ورجاله والعشرة الامارة معه الى ان دخلوا بلاد الغرب فخرج الامير ابو زيد ولاقاهم وتصالحوا ورجعوا الى الاوطان وعمل ابو زيد وليمة فاخرة وذبح الذبائح فأطعم الغادي والرائح .

ولكن ابو زيد لم يعد للامير دياب ملكه وبقي هو الحاكم ، فما هان على الامير دياب وصار يقول متى يعيدوا لي البلاد التي اخذوها مني ، وأبو زيد واضع يده عليها فاغتاظ الامير دياب واضمر الشر لابي زيد وقال في نفسه : انا صنعت دبوسا وسكينا للامـيـر حسن ، فخلصنا مـن واحد وبقي علينا الآخر ، وصار من ذلك الوقت يحمل الدبوس وكان بسبع فراشات تحت العبائة ، حتى لا يلحظه ابـو زيد الى ان خرجـوا ذات يوم للصيد والقنص وكان مع الامير ابو زيد جماعة من قومه ، ومـع الامير دياب جماعة من قومه ، فوصلوا الى البر وخرجت الفهود فوقف وتفرق الفرسان يطاردون الغزلان وبقي الامير دياب وابو زيد فيجهة وصار الامير دياب يطارد الشهبا ويلعب كانه في الميدان فصار يعمل مثله ابو زيد فدار نصف ساعة ثم ان دياب ترك ابو زيد سائرا امامه وصاح فيـه : خذها من يد دياب، فالتفت ابو زيد مرعوبا فوجد في يد الامير دياب سنبلة قمح ولما اعاد دياب الكرة لم يلتفت ابو زيد وفكر انها ضحكة مثل العادة فعند ذلك لكم الشهبا طلعت كالريح حتى قربت من ابو زيد وصارت جنبه فسحب الدبوس وضربه على رأسه فطلع من مخه ... فوقع ابو زيـد على الارض ... فوقف الامير دياب وقد اخذته الشفقة ، فوقـف امامه يبكي ويلعن الحمق مدة من الزمان ولما فتح ابو زيد عينيه وجد دياب واقفا

فقال له : ما كان ظني فيك يا دياب ان تتركني على الارض دون ما عناية ولا تضميد ...

ركب دياب جواده بعد ان قتل ابي زيد واسرع يعدو الى جماعته فاخبرهم بقتله لابي زيد ، وانه قد خلا لهم الميدان ، ولم يبق عليهم الا ان يستولوا على تونس ويحكمونها ..

وتوجه قومه معه الى تونس ودخل الى ديوانها ونادى باسمه ، واخبر الشعب الذي التف ليرى ما الخبر بانه قتل الامير ابو زيد ، وانه اليوم صاحب الامر والنهي في تونس ..

واشتد دياب على الشعب وجماعة بني هلال وصار يقتل كل من يعانده ويعارضه .. ومن يوافقه ويطيعه ينعم عليه ..

***

وفي هذه الاثناء كان بنو هلال في حالة هياج عظيم .. فقد وصل جماعة ابو زيد الى مكانه ووجدوه ممددا على الارض لا يعي ولا يتحرك .. فصاحوا وناحوا وحملوه وهو تارة يغشى عليه وتارة يعي حتى وصلوا الى القبر، واخبر الرجال الحريم فصاحوا وخرجوا بلا براقعوهم يمزقون ثيابهم ويضعون التراب على رؤوسهم ، وكان يوما شنيعا على بني هلال ما نظروا مثله مدى الاجيال واجتمعت العربان من كل ناحية ومكان ، واما الجازية فعملت اكثر من الجميع وارخت شعورها ونتفت خدودها ومزقت ثيابها واشارت تقول :

تقول فتاة الحي ام محمد	ودمع جرى فوق الخدود يسيل
ايا ليتني قد مت من عام اولي	ولا شفت الامير ابو زيد قتيل
ضربت سلامة يا دياب بضربة	وهدمت ركنا من هلال طويل
فلا سالما منها الامير سلامة	فتبكي عيوني والدموع تسيل
دعوني املي العين منه بنظرة	من قبل بعدي بالجود جديل
ايا هل ترى الايام تخلف كلامه	اذا مضى جيلا بعد جيل
يا حسرتي يا كسرتي بعد حيلتي	ما اظن ان له بالانام مثيل
محمد وحمدان قدنسيت فراقهم	جاني حسن زاد الفؤاد شعيل
وقد زاد بي حزن الهلالي سلامة	فيا ليت عمري لا يكون طويل

فلما فرغت الجازية من كلامها اغمي عليها برهة من الزمن ثم تقدمت بعدها عليا وهي تنتف شعرها وتمزق ثيابها وقد زادت بكاها وانتحابها ثم تقدمت اليه وقبلته بين عينيه وقالت له : سلامتك يا ابا الابطال يا زينة الرجال .

واخيرا افاق ابو زيد من غشيته ونظر الى من حوله، ثم شهق شهقة واحدة فاضت روحه بعدها .. فكثر البكاء والنواح وصار كل واحد يأتي ويقبل يديه مرة ثانية فاشارت الجازية بدفنه بجوار الامير حسن وكان امرها مقضيا ... وأما ما كان من دياب فانه لما بلغه ان الامير ابو زيد مات وشرب كأس الآفات ودفنوه ، جمع ستين الفا من قومه وسار الى بلاد القيروان ليجري حكمه عليها ويعمل كما يعمل الحكام فلما سمع بنو زحلان ودريد بهذا الخبر اجتمعوا وتشاوروا مع بعضهم فاتفقوا ان يطيعوا دياب وينادوا باسمه اذ ليس لهم على حربه طاقة .. وغضبت الجازية لما عرفت بذلك وشتمتهم .. ولما دخل الامير دياب وجلس على كرسي الامير حسن، صارت تأتي اليه الامارة واحدا بعد واحد يهنئونه ويدعون له بطول العمر.

واما الجازية والنافلة والحريم والاولاد فانهم اختفوا وعند الليل ركبوا وساروا وسبقهم كثير من قومهم ، وتسلطن دياب على كل بلاد الغرب وامر ان ينادي باسمه وانه هو الملك والحاكم الوحيد وسيد فرسان الطعن والضرب ، وصارت تأتيه الهدايا والتحف من كل مكان .

ولما هدأ باله سأل عن اولاد حسن وأبو زيد فأخبروه ان الجازية هربت بهم مع بقية النسوان وتبعهم ثلاثون الف نفس من بني دريد وزحلان.. فتكدر خاطره وقال : لقد ظنوا بي السوء... وما آمنوا بي فأنا لا بد لي ان اذلهم واقهرهم لانه كان بفكري ان ارتب لهم معاشا واقوم بوصية الامير ابو زيد ...

ثم ركب وتبعهم فما لحقهم فرجع وهو غاضب ناقم ..

وكانت بلاد الكوع يحكمها سلطان اسمه شمعون ، وكان له وزير اسمه ابو الجود فلما قتل الزناتي وملك بنو هلال بلاد الغرب اجتمع بوزيره وقال له : ما الذي عندك ان بني هلال وصلوا الى نواحي بلادنا وهم فرسان لا يوجد مثلهم في هذا الزمان سيما وفيهم فارس اسمه ابو زيد من الابطال العظام، وفارس اسمه دياب بن غانم وكل من يحاول الاعتداء على بني هلال يقتله ، وانا اخاف ان يصل شرهم الينا فما العمل ؟

فقال الوزير : الرأي عندي ان تأخذ هدية من بلادك وتسير الى الامير

حسن تقدمها له وتهنئه بالنصر ويصير بينك وبينه مودة وصحبة .
فاستحسن شمعون هذا الراي ، وحمل الهدايا على الجمال وسار بالف فارس من اعيان قومه واكابرهم الى القيروان ودخل على الامير حسن وقدم له الهدية وسلم عليه فرحب به واولم له .. وبادله حسن الجوار والمودة ، ثم عاد الى بلاده وبقي في امان الى ان قتل الامير حسن فقلق ولما بلغه خبر مقتل ابو زيد عظم الامر عليه ..
وقال للوزير :
ـ لقد فسد امر بني هلال ، والافضل ان نكون بقرب حدودهم فلعلنا اذا اختلفوا فيما بينهم ان نستولي على البلاد التي استولوا عليها .. خصوصا اذا استطعنا قتل الامير دياب الذي اصبح شيخا عجوزا ..
وحشد شمعون قوة وسار الى حدود بني هلال ، فشاهد غبارا من بعيد، ثم انكشف عن ثلاثين الف فارس ومعهم نساء واولاد فسأل فاخبروه ان هؤلاء هم نساء الامير حسن والامير ابو زيد واولادهم اليتامى هاربين من وجه دياب خوفا من شره ..
فاستدعاهم فحضرت اليه الجازية فسألها عن الامر فاخبرته بما فعل دياب بكل اصحابه ، وكيف غدر بالجميع ، ونصحته ان يعود ادراجه، لان دياب قوي ولست انت من رجاله ..

- ١٥ -

نهاية دياب

استمع شمعون لنصح الجازية ، وعاد الى بلاده ، وأخذ معه اولاد الامراء والجازية فعين لهم ارضا صاروا يزرعونها ويرعون ماشيتهم فيها واستقاموا عند شمعون حتى عرف بخبرهم دياب فكتب الى شمعون يهدده ، ويطلب منه قتلهم ومناه بهدية عظيمة ان هو فعل ..

استلم وزيره الكتاب وقرأه ، وكان من المسلمين فارسل خلف الاولاد وانبأهم بما في الكتاب وقال لهم :

ـ لا عليكم سأرتب الامر مع الملك ، عليك الان ان تدعو لي الجازية.. لاتفاهم معها ..

وجاءت الجازية اليه تسعى فاخبرها بالكتاب فغضبت وقالت :

ـ ايلاحقنا دياب الى هنا ولا يترك الاولاد وشأنهم .. ثم التفتت الى الوزير وقالت :

ـ انت مسلم وعليك ان تساعدني مع هذا اليهودي ..

فقال : صدقت وسترين كيف افعل .. انتم معكم ثلاثين الف فارس وانا عندي اكثر من اثنتي عشر الف ، فالجملة اثنين واربعين الفا ، وهم الان جميعا مستعدين للحرب ... فابعثي باولاد اخيك الى السلطان يقولون له تريد ان نزوجك عمتنا فيفرح بذلك ... لانه وقع في هواك فمتى دخلت عليه يدخل شيبان عليه ويذبحه ونسقط جميعا على اليهود فنقتل الاكابر ونملك البلاد ونقيم حاكما من اولاد اخيك وانا اتزوج بك وتصير البلاد في يدنا .

فاتفقوا على ذلك وذهبوا باولاد السلطان حسن الى قصر الملك شمعون وعرضوا عليه ما اتفقوا عليه ففرح وقام فقبلهم وقال لهم مهما شئتم فاطلبوا فقالوا له : لا نريد شيئا غير سلامتك ، وبعد تمام الفرح دخلت الجارية على شمعون فوجدته ينتظرها في قاعة النوم وعليه الملابس الخفيفة ودخل معها شيبان ابن ابو زيد وبيده الخنجر فضربه فرماه قتيلا وقطع رأسه ووقف في القصر وقال : قد قضى الامر .

وكانت الامارة والوزير منتظرين تحت القصر فغاروا على اليهود وقتلوا اعيانهم واهلكوا رؤساء العساكر وما اصبح الصباح حتى انتهوا من تطهير البلد من المخالفين ودخلوا سراية الحكومة واجلسوا الامير (بريقع) ابن السلطان حسن ملكا على بلاد الكوع ... وصارت المناداة باسمه وفرق العساكر في جميع الجهات ، وراق له الحال وما قام في البلاد مخاصم فهذا ما كان منه .

واما ما كان من رسول دياب بن نبهان فلما شاهد ما وقع خاف على نفسه فسار يجد حتى وصل الى عند سيده فأخبره بالخبر فقال له احد الامارة انت قتلت الحية وتركت راسها ... هؤلاء الاولاد لا بد من ان يأتوا ويأخذوا منك بثأرهم فضحك دياب واخذ يكتب لليتامى ويقول :

هبت بوارقها وطاب هواها	ولاح ما بين النجوم سناها
وعرفت ملوك الشرق والغرب	انني مبيد رجال العرب عند رعاها
قتلت انا حسن الهلالي ابو علي	وابو زيد الفتى كان اعلاها
وملكت كل البلاد بهمتي	وانا ابن غانم اعلى الناس جاها
طاعت لحكمي سائر العرب	وضربات سيفي بالعلا لقاها
وما عادلي بعد في الانام مخاصما	الا اليتامى خاف من دهاها
فلا بد ما القي اليتامى جميعهم	والحقهم في ابو زيد تاها
الا يا يتامى ارحلوا نحو ربعنا	وحيوا لرجلي وبوسوا يداها
عليكم سلام الله اكراما لابيكم	حسن وابو زيد بما اوصاها
وان لا تسمعوا ارحل اليكم اذلكم	وانتم تعرفوا عزمي بسوء وغاها
مقال الفتى الزغبي دياب بن غانم	والنار في قلبي تزيد لظاها

فلما فرغ دياب من كلامه طوى الكتاب وبعثه الى اليتامى فلما وصل اليهم عرفوه واعطوه للجارية فقالت لهم : ان دياب قلبه دليله والذي له عدو لا ينام الليل ثم كتبت الى دياب تهدده وتقول له سوف ترى كيف تكون آخرتك ..

فلما فرغت الجازية من كلامها طوت الكتاب واعطته للرسول فاخذه وسار يقطع القيافي والقفار حتى وصل الى عنـــد دياب فناوله الكتاب ففضه وقرأه وعرف رموزه ومعناه فقـــال في باله : لا بـــد لي ان اركب وادهمهم في بلادهم، وفي ذات الايام اتى بعض الشعراء الى الغرب ومدحوا السلطان دياب ووصفوا له بنت الامير الهدهد فسأل دياب عنها فاخبروه بانه لا يوجد مثلها بالدنيا فقال احد الامارة الحاضرين : هـــذه خاطبها السلطان حسن لابنه بريقع وكان مراده ان يزفه عليها .

فعند ذلك قال دياب والله نحن احق بها من الغير ثم كتب الى الامير ماجد يطلب بنته وبعث التحرير مع الامير عرندس فاخذه وسار حتى دخل على الامير ماجد واعطاه الكتاب ففضه وقراه وترحب بعرندس ... ثم جمع الامارة واعيان قومه واطلعهم عليه فقالوا: ابعث قل له بنتي مخطوبة الى الامير بريقع ولا يليق بي ان افسخ الخطبة والامير بريقع سيزف عليها قريبا وهو ابن عمك وارسل المكتوب مع عرندس ثم استدعى قومه واعلمهم بما كتب الى دياب وقال لهم : هلموا بنا الى نجع الامير لئلا يأتي ديـــاب فيقتلنا ويقتل اولادنا .

فهدموا خيامهم وحملوا حريمهم وساروا يقطعون الفيافي والقفـــار قاصدين بلاد الكوع ..

ولما وصل الجواب الى دياب وقراه وعرف رموزه ومعناه غضب غضبا شديدا ومن ساعته ركب في الفرسان والابطال قاصدا ماجد ، وما زال سائر حتى وصل الى بلاده فوجـــد الارض خالية خاوية ولم يقـــف على خبر اصحابها فغضب ورجع وارسل الجواسيس تفتش عليه الى اين سار، عاد هو ومن معه الى بلاده والاوطان وكان عند دياب بنت اخته بنت الامير حسن وكان اسمها امينة وكانت لما هربت الجازية واخوتها بقيت فأخذها دياب الى عنده ، وكانت بنت دياب تشتم لها اخوتها واولاد ابو زيد وتقول لها : ابي لا بد ما يقتلهم ... فذات يوم كانـــوا مجتمعين فقالت لها بنت دياب : انا سمعت ان ابي امر ان يجيب اخوتك ويخدمهم عنده واذا مـــا قبلوا يسير اليهم .

فقالت : ان اخوتي صاروا ملوكا ولا بد ما يأتوا ويأخذوا بالثأر مـــن ابيـــك .

فغضبت منها وقامت اليها وضربتها فعند ذلك تركتها وراحت الى قبر ابيها وصارت تبكي عليه واذا برجلين يقبلان عليها واحد ابيض والثاني

عبد ... فوصلوا الى قبر الامير حسن وابو زيد واخذا يبكيان فالتفتت اليهما وقالت : من تكونا وعلى من تبكيان ؟

فقال لها الابيض : نبكي على موالينا واسيادنا ، انـا بدر بن قاشع وهذا عبد اخوك ... كنا عائشين بنعمتكم حتى غدر بنا الزمان ورحنا مع اخوتك وصرنا نسافر مثل المغاربة من بلد الى بلد .

فقالت لهما : والان الى اين تذهبون ؟

فقالا : الى بلاد الكوع فان كان لـك غرض او وصية نوصلها لـك فقالت احضرا الي دواة وقرطاسا فأحضرا لها ما طلبت فكتبت الـى اخوتها تخبرهم بان دياب يفكر في حربهم والغدر بهم ..

فلما فرغت امينة من كلامها طوت الكتاب واعطته الى بدر فأخذه وسار هو والعبد اياما وليالي حتى وصل الى بلاد الكوع ودخل على الامير بريقع وقبل الارض بين يديه فقال : ما معك من الاخبار ؟

قال : معي كتاب من اختك امينة وهي تقاسي العذاب الاليم مع بني زغبة وبنت خالك في كل صباح تشتمها وتهددها .

فقال له : اين الكتاب ؟ قال له : اوصتني ان لا اعطيك الكتاب الا بوجود عمتك الجازية .

فلما حضرت اعطاها الكتاب وخصلة شعر من شعر امينة ... فلما نظروا الشعر وقرؤوا المكتوب هاجوا وماجوا وضجوا وصاحوا ووقع فيهم البكاء والنحيب واجتمعت عليهم النساء والاولاد والرجال وكان لهم ساعة يا لها من ساعة وجددوا عزاء ابو زيد والامير حسن .

فعند ذلك نهض شيبان وقال لهم : ما لنا ولهذا البكاء قوموا حتى نركب ونسير الى حرب دياب فاما ان نموت او ان نأخـذ ثأرنا ونخلص حريمنا ورجالنا من ذل دياب .

فقال بريقع : هذا هو الصواب .

ثم انهم امروا بالركوب فاشتدت العساكر وامتدت وركبت معهـم الجازية وساروا بستين الف فارس ما بين مدرع ولابس ... واليتامى امام الجميع... وعندما امسى المساء نزلوا يرتادون تلكالنواحي ليرتاحوا وما استقر بهم النزول حتى سمعوا اصوات عرب نازلين بالقرب منهم ثم شاهدوا نيرانهم فاجتمع اليتامى وقالوا : من يـا ترى النازلين في هذا المكان .

فقال بريقع : اظن هـذا دياب اتى ليقتلنا فما الرأي عندكـم واذا

وقعنا نحن وهو في هذه الارض سوف يمسحنا لاننا نحن ملثمين ولا يعرفنا اولاد عمنا الباقين في بني هلال ولهذا لن يساعدوننا ودياب لا يجلب معه الا اولاد عمه وكلهم ابطال وبقوا في حساب وامور صعاب .

فقال الامير بريقع : ما لنا الا ان نرسل من يكشف لنا الخبر .

فقالت الجازية : انا اسير واكشف لكم الخبر .

ثم خلعت ثياب النساء ولبست ملابس الرجال وتقلدت بالسلاح واخذت معها شيبان وبريقع واوصت ان لا احد يشعل نارا او يبدي حركة قبل ان يحضروا ... ثم ساروا تحت الظلام حتى قربوا من المكان فسمعوا بكاء الاطفال وصريخ النساء ونبيح الكلاب فعلموا انهم عرب راحلين بعيالهم قاصدين النقلة .

فقالت الجازية للامارة : ان صدقني حذري هؤلاء عربنا هاربين من وجه دياب وقاصدين بلادنا فقالوا يلزمنا نكشف خبرهم ، فقالت الجازية: سيروا لنقصد النار الاكثر اضطراما لان هناك يكون اميرهم .

ثم تقدموا بين العرب فشاهدهم بعض الافراد فذهب لعند الامير ماجد واخبره اني نظرت ثلاث خيالة غرباء دخلوا في القبيلة واظنهم من بني هلال، وشرح له صفاتهم وبينما هم في الكلام دخل الامارة والجازية عليه فقام لهم واقفا على الاقدام وترحب بهم واجلسهم وقدم لهم الطعام فأكلوا ثم قدموا لهم القهوة فشربوا وبعد ذلك قالت له الجازية : كثر الله خيرك يا ابن عمي ماجد . فقال : اراك عرفتني ايها الشاب الطريف وانا لم اعرفك فمن تكون ؟

فقالت له : صدق المثل الذي يقول من غاب عن العين سلاه القلب .

فقال : بالله عليكم اخبروني من انتم ؟

فقالت له الجازية : انا اخت السلطان اتينا نأخذ بثأرنا من دياب... فوصلنا الى هذا البر في هذه الساعة فسمعناكم وتقدمنا نكشف امركم .

فلما سمع ماجد كلامها صفق على يديه من الفرح وقال : اهلا وسهلا بصهري .

ثم قام واقفا على الاقدام وصار يقبل الامارة وهو لا يصدق من عظم فرحه ... ثم حكى لهم قصته مع دياب وكيف بعث يطلب بنته مع عرندس وكيف اغلظ عليه الجواب وقال :

ان بنتي مخطوبة الى بريقع .

ثم شاع الخبر فاخذت تزورهم امارة ماجد وتسلم عليهم وبقوا مدة

حتى قال ماجد: الحمد لله الذي جمعنا ببعضنا في هذا المكان فما عاد لنا الا المسير لاخذ الثأر ، وانا بلغني ان دياب صار خرفان وما عاد عزمه كالاول وهو عمال يظلم في الرعية من قلة عقله وصار الكل يكرهونه .

فقالت الجازية : في غد ان شاء الله نكتب مكتوبا الى بني دريد وندعوهم ليقوموا معنا ويساعدونا لاخذ الثأر ، فقالوا هذا هو الصواب.

ثم ودعوا الامير ماجد وساروا واخبروا بقية الامارة ففرح الجميع وعند الصباح ركب ماجد وأتى الى الامارة وسلم عليهم جميعا فرحبوا به وقدموا له كل الاكرام ، ثم كتبت الجازية الى الامير طوى تحمس قومه على الاخذ بالثأر ..

ثم ارسلت الكتاب مع النجاب فلما وصل الكتاب الى الامير طوى واخذه وقراه فرح فرحا لا يوصف وعرضه على بقية امارة بني دريد ففرحوا جميعا وارسلوا يقولون انهم على استعداد للقتال معهم ..

فأخذ الرسول الكتاب وسار يقطع القيافي والقفار حتى وصل لعند الجازية فاعطاها الكتاب فقرأته بحضور الامارة ثم قالت والله العظيم ان قلبي يقول ان دياب لا بد ان يعلم باستعدادنا ، ثم كتبت مكتوبا الى طوى ابن مالك تقول له: خذوا حذركم ونهار غد العيد اذا دعاكم دياب فالبسوا دروعكم واسلحتكم تحت ثيابكم ، ونحن نصل لعندكم قريبا ويوم العيد فانقسموا فرقتين النصف يجلسون على المائدة والنصف يبقوا راكبين خيولهم .

فسار الرسول حتى وصل الى مقر طوى ابن مالك فقرأ الرسالة وقال : هذا هو الصواب فأهدهم مني السلام والفكر الذي افتكرته الجازية حق لان بني زغبة اخذوا الخبر وأخذوا ينظرون الى بني دريد شذرا وهم دائما في اجتماعات واسرار واخبروا دياب واطلعوه على حالهم فقال لهم : ان الراي عندي ان نعمل وليمة على العيد وعندما تجتمعون ادهموهم واقتلوهم ولا تدعوا من اكابرهم احدا .

وكان ثاني يوم عيد الضحية فعمل دياب الوليمة ومد السماط وكان كل شيء يدهش العقول ، وعزم بني دريد واكابرهم فحضروا ودخل نصفهم وجلسوا على الطعام وبقي النصف الآخر على ظهور الخيل .

وفي تلك الساعة ارتفع الصياح وعلا من كل ناحية ووقع الصوت في بني هلال وارتجت الارض من كل مكان ووقعت الضجة الهائلة واذا بطبول دقت والرايات ظهرت وانتشرت والرماح انكشفت والاصوات ارتفعت

والنساء زلغطت فعند ذلك سأل عن الخبر فاخبروه بما جرى من اليتامى وانهم نهبوا المواشي وقتلوا الرعيان واحاطوا على البلد من كل مكان فارسل دياب الى ابن اخيه بريقع كتابا يهدده بالقتل وبعثه مع نجاب فاخذه وصار الى بريقع فأعطاه الكتاب ففضه وقرأه وقال الله يعلـم ان خالي خرفان يطلب ان ارد له المواشي ونحن لا نريد القطيع وانما نريد اخذ روحـــه العزيزة عليه .

***

واخيرا تحرك الامير بريقع وذهب فـي جنوده الى تونس لمحاربـة دياب ، وانضم اليه بنو زحلان وبنو دريد ، ولما اجتمـع الجيشان نزلت الجازية غصبا عن الجميع الى الميدان لمحاربة فارس اسمه الدهام فظفرت به الجازية وقتلته فنزل لها فارس آخر اسمه ابو الحمرة فضربته بالرمح طلع من ظهره ، فهاج دياب عندئذ وماج وخرج الى الميدان لمقاتلة الجازية ، وهو يظنها من الرجال ...

ولما عرف دياب ان الجازية امامه رفض حربها ولكنهـا اصرت عليه فاضطر الى محاربتها وتمكن مـن قتلهـا ، فهاجت بنـو هلال ، وثارت واجتمعوا عند ماجد فنصحهم بمحاربته جماعة لا فرادي ولا بالمبارزة ..

فلما كان صباح اليوم التالي خرج بريقع الى الميدان فبرز له دياب دون درع وعلى كدش اعرج استخفافا بهم ، فما كـان مـن بريقع الا ان صدمه ، وهجم عليه بقية الامراء اليتامى فقتلوه وقطعوا رأسه بالسكين التي قطع بها رأس الامير حسن والد بريقع ..

وبعد ان قتل دياب بكاه قومه بنو زغبي ومزقوا ثيابهم وناحوا ، ثم دفنوه ، واجلسوا الامير بريقع على كرسي الملك في الغرب ، وعين شيبان ورزق وزرين ودانت له الامور واستقامت ..

واما نسرين زوجة الامير دياب فانها هربت بعد مقتل زوجها مع ابنها نصر الدين الى غدير ماء خارج المدينة حيث تعرفت علـى فتاة جميلـة كانت تستقي منه ، وعرفت انها ابنة احد الامراء القريبين . وسألتهـا ان تسأل والدها اذا كان على استعداد لقبولهم ضيوفا عنده ..

فلما عرف الامير صالح بهذا الخبر ، وعرف ان الولد هو ابن دياب ، وكان مديونا لدياب الذي خدمه ودافع عنـه في الماضي اسرع الى حيث

كانت نسرين وولدها ، فاستقبلها استقبالا كريما ورحب بها وبابنها ...
وامر العبيد ان ينصبوا صيوان الحريم امام صيوانه .. وركب في مائة فارس وسار الى الغدير وتقدم اليه الامير نصر الدين وقبل يديه وقبله صالح .. وقال : اهلا وسهلا يا ابن الامير دياب وصاحب المعروف وفارس الارض الذي صوته يرعب الاطفال في المهود .

وكانت الشمس قد قاربت على المغيب فرفعوا نصر الدين على هودج وسار بين الامارة ، والامير صالح لا يرفع عينيه منه ، لانه رآه جميلا جدا ورأى قطعته كقطعة الفيل وعلامة الفروسية تشهد له لا تشهد عليه .

ولما وصلوا الى الصيوان الذي نصبوه ودخلوا اليه وجدوه مفروشا بالحرير ومزركشا بالالوان الجميلة ولما استقروا للراحة ، حملوا لهم الطعام والمدام فباتوا تلك الليلة منشرحين مسرورين .. وفي ثاني يوم اجتمع الامراء والاعيان عند الامير صالح فأتى بهم الى صيوان نصر الدين فقام لهم على الاقدام ولاقاهم بالترحيب والاكرام ... وبعد ان جلسوا اخبرهم نصر الدين بقصة والده فبكى الامير صالح عليه ، وجمع رجال قومه وتأسفوا عليه وصاروا يعزون نصر الدين وقال له الامير صالح : لا تحزن يا ولدي فمن خلف مثلك ما مات واصبر على حكم الله لانه قادر على ان ينولك مرادك والان حيث كبرت وما عاد لي اقتدار فمرادي انصبك مكاني حاكما على العشيرة .. وقد زوجتك ابنتي بلا مهر ولا صداق .

فتعجب الامير نصر الدين من كرم الامير صالح ووثب وقبل يديه وشكره على معروفه ...

اخذ الامير صالح يهيء لوازم العرس ، وارسل الى جميع القبائل يدعوهم الى عرس ابنته فتوارد العربان من كل مكان واقاموا الافراح والليالي الملاح ودقت الطبول ونفخت الزمور وصارت الارض تموج مثل ايام يأجوج ومأجوج . وعين الامير صالح مدة العرس اربعين يوما فنحروا النوق والاغنام ودارت ليالي الافراح ونهار الاربعين بنوا صيوانا للامير نصر الدين والبسوه حلة من الحرير ، واجلسوه على كرسي من العاج وصارت الفرسان تتوارد اليه وتجلس حواليه وقام الى الميدان ولعب الجريد بين الابطال ، وعند المساء اخرجوا العروس من عند ابيها وهي كالشمس المنيرة ، وعليها من الجوهر ما يهيج الانظار ، وركبوها على هودج عالي من الحرير المقصب ، وبعد ان طافوا بها ادخلوها على صيوان نصر الدين ، واتى القاضي والشهود فحرروا العقد ثم انصرف الجميع وبات العريس

مع العروسة في هناء وسرور ، واصبح ثاني يوم منشرح الصدر مسرور الخاطر ، وبقوا مدة ثلاث ايام في مثل هذه الحال وبعد ذلك جلس نصر الدين حاكما على القبيلة عوضا عن الامير صالح وباركت له في ذلك الامراء والاعيان وصار يصدر الاحكام ويعدل في الرعية ويهب ويعطي الشعراء والفقراء حتى احبه القريب والبعيد وصارت تنقل ذكره الشعراء من مكان الىمكان ويصفوا جوده وكرمه، وصار هو ايضا يركبالى الغاباتويصطاد. الاسود والفهود ويسطو على كل عاص ونمرود حتى طاعت لحكمه كل القبائل وصار له اسم وهيبة عظيمين .

***

هذا ما كان من نصر الدين واما ما كان من الامير بريقع ملك تونس فانه بعد قتل الامير دياب كثر ظلمه وطغى وبغى وتكبر ولم يعد يفرق بين الامير والفقير واكثر جوره على بني زغبة ، وعكف على معاشرة النسوان واللهو واللعب حتى كرهه الغريب والقريب وكل بني زغبة ، ولما اعياهم الامر اجتمعوا عند الامير خطير اكبر امرائهم وقالوا له : اتينا لتشترك في امورنا لانه ما عاد لنا طاقة على ظلم اعدائنا وهم دائما يتسلطون على اموالنا وحريمنا .

فلما سمع كلامهم الامير خطار اطرق رأسه الى الارض برهة ثم رفع رأسه وقال :

يا قوم انتم عملتم بحالكم هذا العمل لانكم تهاونتم وما احد منكم شهر سيفه في وجه اليتامى ، وقتل الامير دياب وانتهيتم لقتله ولكن انتم تعرفون ان لا يخرجكم من هذا الضيق الا الامير نصر الدين لانه فارس مغوار فالاوفق ان نعرف مكانه ونرسل نستدعيه ليتسلم قيادة الفرسان فقالوا : افعل ... فنحن لا نعرف تدبير هذا الامر الا منك .

فعند ذلك ارسل الامير خطار واستدعى رجل شاعرا خبيرا بالبلاد والقبائل فسأله عن ذلك الامير .

فقال : اعطوني رفيقين فأعطوه واحدا اسمه حامد والثاني منصور فلبسوا ثياب الشعار ووضعوا الرباب على اكتافهم وصاروا يطوفون البلدان ويمدحون العباد وبقوا على هذا الحال مدة شهرين حتى وصلوا الى غدير ماء في بلاد الفاس والمكناس فجلسوا على الغدير ليرتاحوا فوجدوا جماعة

من الرعيان فسلموا على كبيرهم وسألوه عن بلادهم اذا كان موجود عندهم كبير يمدحوه فقال لهم الرعيان اذا كـان قصدكم العطا فاقصدوا البحر الغزير والفارس الخطير والسيد الشهير نصر الدين .

فقال ناصر : من يكون هذا الامير ؟

قال : هو امير حجازي اتى الى بلادنا لان قومه بنو هلال قتلوا اباه وتزوج بنت اميرنا وصار الان حاكما على بلاد الفاس والمكناس ولا اظـن يوجد افرس منه على وجه الارض ، وقد سمعنا منه ان اباه كان فارسا مشهورا وبطلا صنديدا قهر الملوك والابطال واسمه الامير دياب .

فلما سمع الشاعر ناصر هذا الكلام كاد يطير من الفرح وقال له :

بالله عليك يا ابن العم دلنا على هذا الامير فنحن من عربه ويصير لك عنده المقام الاكبر لانه سيسر بنا ويحب ان يرانا ومعنا له اخبار عن اهله.

فسـار كبير الرعيان امامهم حتى وصلوا اليه فوجدوا المجلس محبوكا فجلسوا في الخارج ، فالتفت نصر الدين فشاهد الشعار خارج البـاب فقال لهم : تفضلوا يا شعراء شرفونا ، فدخلوا فامر ان يأتوا بالزاد فأكلوا واحضر لهم القهوة وبعد ذلك قال لهم الامير نصر الدين : هاتوا اسمعونا يا شعار ما عندكم من الاشعار فعند ذلك وقف ناصر ومضى يمدح الامير.

ثم وقف الشعراء على أقدامهم وكشفوا اللثامعن وجوههم وقالوا له: والله نحن اولاد عمك وقد اتينا بصفة شعراء نبحث عنك في البلدان حتى تجيء وتخلصنا من ظلم بني هلال والحمد لله وجدناك في هذا المكان .

فلما عرفهم نصر الدين وثب اليهم وقبلهم وسلم عليهم وسألهم عن الامارة واحدا بعد الاخر .

وقال لهم: يجب ان تبقوا عندنا ثلاثة ايام وبعد ذلكتروحوا وتبشروا قومي اني بعد شهر اركب من هنا بقومي وبعد سبعين يوم اكون عندهـم وافرّج عنهم العار ويعود لهم الزمان كما كان .

فأقاموا عنده ثلاثة ايام وأمر بان تخلع على كل منهم خلعة ملوكية وان تساق أمامهم الانعام ، وساروا يقطعون البراري والقفار حتى وصلوا الى بيوتهم واخذوا لانفسهم فترة من الراحة، فعرف بني زغبي بقدومهم فأتوا وسلموا عليهم ومعهم الامير خطار . وبعد ان شربوا القهوة قال لهم الامير خطار : هاتوا اخبرونا بالذي رأيتموه، فاخبرهم ناصر بما رأى وسمع وما قاله ناصر الدين ..

فطار المجتمعون من شدة الفرح وما احد الا وتقدم الى ناصر وقدموا له الشكر الجزيل ودارت الافراح في الحي وأخذوا منذلك الوقت يهيئون حالهم للقاء القريب .

***

وفي اليوم المعين خرج الامارة الى خارج البلد وطلعوا الى تل عال ونظروا الى البر ساعة فرأوا غبارا فصبروا عليه فانجلى عن فارس يركب شقرا كأنها البرق ، ولما وصل اليهم قالوا له : من اي موضع قادم ، قال: من عند سيدي الملك حاكم الفاس والمكناس الامير نصر الدين ، وسبب قدومي لابشر بني زغبي بتشريفه في هذا النهار ، فعند ذلك طرحـــوا الخبر لجميع بني زغبي فخرجوا بسلاحهم وراياتهم ، ولما تكامل خروج الفرسان مشوا مقدار ساعتين حتى وصلوا الى مكان جميل يدعى (عين برشان) فنزلوا هناك واخذوا لانفسهم بعض الراحة .. وبعد ساعة من الزمن شاهدوا الغبار من بعيد ، ثم انكشف عن جيش الملك نصر الدين ، فاستقبله بنو زغبة استقبال الفاتحين وهتفوا بحياته اجمعين .. وبنـــوا له صيوانا عظيما يسع المئات من الزائرين ..

وكان الملك بريقع في هذه الاثناء قد اجتمع الى وزيره شيبـــــان وسأله عن سبب خروج بني زغبي الى خارج البلد ، فقال الوزير :

— لست ادري ..

وفي هذه اللحظة دخل عليه احد خدمه واخبره ان الفرسان قــد ملأوا الدنيا خارج البلد وانهم قد اجتمعوا في (عين برشام) ..

فلما سمع بريقع هذا الكلام اشتد غضبه وعظم ، وطلب من شيبان وزيره ان يرسل من يكشف له خبر القوم وما يفعلون ..

فأرسلوا جاسوسا فسار ودخل بين بني زغبي وعــــرف السر والخبر .. وعاد فاخبر بريقع فصرخ قائلا :

— وحق منخلق السماء ورفعها منغير عمد وبسط الارض سأجعلهم عبرة لمن اعتبر، وحق من كوّن الاكوانسادع سنان رمحي فيصدر اميرهم وسيفي في عنقه .

وأمر بدق الطبول ونادى على الفرسان لتعتلي خيولهـا .. واعتلت الفرسان وركب الشجعان .

واما بريقع فلبس درع ابيه وتقلد السلاح وركب بنت الخضرا وشيبان

عمل مثله وخرجوا من تونس في ١٨٠ الف فارس اسود عوابس ..

ولما وصلوا الى عين برشام ووقعت العين على العين اصطف الجنود، واما الملك نصر الدين فلم يتحرك من مكانه ، ولما دق طبل البراز بـــرز شيبان بن ابو زيد الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان وقال : لا ينزل لي كسلان ولا بليد الا السادات الاماجد .

فلما رآه نصر الدين قال : من هذا الفارس . قالوا : هو شيبان ابن ابو زيد .

فعزم ان ينزل اليه فسبقه الامير المجازم بن اخو الامير صالـــح وصدمه صدمة جبار فتلقاه شيبان بقوة فتلاطما وجالا فكان السابق في الضربة الامير محازم فطعنه بين البزين طلع الرمح بين اللوحين فوقع على الارض يتخبط ببعضه .

فلما رأى بريقع مقتل شيبان نزل الى الميدان وطلب مبارزة الابطال وقال : لا اريد ان ينزل الى حربي غير اميركم . فما اتم كلامه حتى صار نصر الدين امامه وقال له :

ــ اسكت يا رديء لو كان فيكم فارس ينزل الى حربي لكنت اول النازلين .

وصار الامير نصر الدين يدور حول بريقع في الشهبا مثل حجـــر الطاحون ، وأما بريقع فوجد نفسه مع خصمه في خطر وصار يحـــاول اغتنام الفرصة ليفر من امامه ولكن نصر الدين لم يمكنه من ذلك وهجم عليه وصرخ وقال : اليّ يا كلب العرب ، وجذب سيفه الماضي وقال : الله اكبر، ونزل به على بريقع فقسمه مع الجواد الى اربع قطع وأشار بيده الى قومه فانطبقوا على بني زحلان من القضاء المنزل فما كنت ترى الا رؤوسا طائرة ودماء ثائرة وفرسانا غائرة والغبار غطى الميدان بحيث لم يسلم من تلك الموقعة غير اربعين من آل زحلان .

وبعد انتهاء المعركة دخل نصر الدين الـــى تونس وجلس علـــى كرسي ابيه ..

وبذلك انتهت حروب بني هلال ، وتم هذا الكتاب .

. . .

ــ انتهى ــ

دار عمر أبو النصر وشركاه
للطباعة والنشر والتوزيع والصحافة
بيروت - لبنان
تلفون : ٢٤٧٢٨٠

٧ ـ **صوني جمالك يا سيدتي**

كتاب يبحث في الجمال ، وكيف تكون المحافظة على الجمال، خصوصا جمال المرأة ، وهو مأخوذ عن عدد كبير من الكتب الاوروبية والاميركية ، وفيه من النصائح ما لا مثيل له في اي كتاب اخر .

الموجود عندنا من الكتب التي صدرت قبلا

الكتب التي صدرت عن مكتب عمر ابو النصر طوال السنتين الماضيتين ، قد نفدت جميعها ، ولم يبق منها الا عشرات او مئات . والى القارىء بعض الكتب التي نستطيع تقديمها عند الطلب ، وهي التي صدرت قريبا ..

ـ **الثورات الثلاث**

قصة الثورات التحريريةالتي وقعت فيمصر وليبيا والسودان.

ـ **ابو نواس**

كتاب يصف حياته العامة والخاصة ، ويؤرخ له كما لم يؤرخ له كاتب اخر ..
يصف عبثه ولهوه ومجونه وحياته الجنسية فياسلوب طريف جذّاب .

ـ **اسرار المؤامرة**

مؤامرة المشير الراحل على السيد الرئيس عبد الناصر .

ـ **قلعة الموت**

حياة الفدائيين الاسماعليين في قلاعهم التي اقاموها في ايران وجبالها ، في العهد العباسي من تاريخ العرب والاسلام .

ـ **ايلي كوهين**

قصة الجاسوس الاسرائيلي الذي أعدم في دمشق .

ـ **اشهر شهداء الاسلام**

مقتل الامام علي بن ابي طالب .

ـ **الخوارج في الاسلام**

قصة الجماعة التي قاتلت الامام وحاربت الامويين حتى سقطت في مختلف المعارك .

ـ الحرب الاهلية في الاسلام

وصف لمعركة الجمل التي وقعت بين الامام علي والسيدة عائشة ، في فجر الاسلام ...

ـ اشهر قصص المغامرات

ـ الموسوعة الجنسية

مؤلفة من ثلاثة كتب ، لا يجب ان يستغني عن قراءتها شاب ولا عائلة ولا زوج . كل كتاب في ٣٠٠ صفحة . وقد نفدت الكتاب الاول والثاني ولم يبق عندنا سوى الاخير.. وكل كتاب مستقل عن الاخر .

ـ الله اكبر

قصة شهداء العرب في اسرائيل

ـ معاوية بن ابي سفيان

وصف جديد لمؤسس الدولة الاموية في فجر الاسلام .

مجلد واحد وعلى ورق ابيض ٣٠٠ ق ل

ـ عباقرة الفكر في الاسلام

امثال ابن سينا وابن رشد والغزالي وابو حنيفة وابن خلدون وغيرهم ممن اثّروا في الحضارة الاوروبية .

ـ ايام في القادسية

قصة معركة القادسية التي قضت على الامبراطورية الفارسية..

مجموعة ارسين لوبين

صدر من هذه السلسلة حتى الان

١ اللصة الحسناء
٢ الاسطوانة السرية
٣ الرجل المجهول
٤ المؤامرة المذهلة
٥ الرهان القاتل
٦ القاتل المقنع
٧ سر الخزانة الحديدية
٨ القبضة الفولاذية
٩ انتقام لوبين
١٠ لوبين وشرلوك هولمز
١١ اللص الظريف
١٢ الجريمة المحيرة
١٣ كنز من ذهب
١٤ عصابة الكهف
١٥ الحسناء السرية
١٦ اصوات في الليل
١٧ سر القصر
١٨ عصابة التهريب
١٩ الدبوس الماسي
٢٠ صانع الذهب
٢١ غضبة لوبين
٢٢ جرائم ارسين لوبين
٢٣ الميراث الدموي
٢٤ بريء في السجن

صدر حديثا

الملك سيف الاول
الملك سيف الثاني
قصة العرب قبل الاسلام
العظماء
اللزوميات الطبعة ٣
صوني جمالك يا سيدتي
كيف تطرد المرض من بيتك
اعظم قصة في التاريخ
تاريخ الجبرتي ١ــ٣
مغامرات بارdليان ١ــ٤
تغريبة بني هلال
القصص العربية المختارة
جواهر البخاري
شروق مبدأ الناصرية

اشهر المغامرات

الانتقام العادل
اشهر الروايات الغرامية
(الخناقون)
اليتيمة الحسناء
الجنس
سكاراموش
الاربعة العادلون
الشبح الاسود
معركة فوق السفينة
الكونت دي مونت كريستو
البطل المجهول (شين)
وادي الموت
المرآة المكسورة

الموسوعة الاسلامية
سلسلة تاريخ الاسلام

- **معاوية بن ابي سفيان**
- **عبد الملك بن مروان**
- **الايام الاخيرة للدولة الاموية**
- **سيوف امية**

عندنا بقايا قليلة من هذه الكتب وثمن النسخة الواحدة المجلدة ٣ ليرات لبنانية .

- **مع الجيش العربي**

هذا الكتاب يصف الايام الاولى من الفتوحات العربية .

. . .

- **الجنس الثالث**

العلاقات الجنسية بين النساء .

- **اسرار الجنس**

. . .

هذه بعض الكتب التي نستطيع تقديمها الان . واما الكتب الباقية والتي صدرت في السنتين السابقتين ١٩٦٩ – ١٩٧٠ فقد نفدت جميعها ، الا من بقايا قليلة .. ونحن ندرس الان اعادة طبعها من جديد فلينتظرها القراء .

كما سيصدر قريبا

– سيرة علي الزيبق

الشرطي الماكر الذي عاش في العهد العباسي وفاق جميع الاقران في مغامراته والاعيبه ، حتى ضجت بغداد في مقالبه، واصبح حديث الناس في كل مكان ..

– سيرة بني هلال

قصة بني هلال القبيلة العربية القوية التي ملأت حوادثها الدنيا في عهدها ، واثارت المشاكل والغزوات في جزيرة العرب ..

– قصة الزير

يكتب القصتان باسلوبه ، ويشرف على تقسيمهما وتبويبهما عمر ابو النصر .

ابو ليلى المهلهل

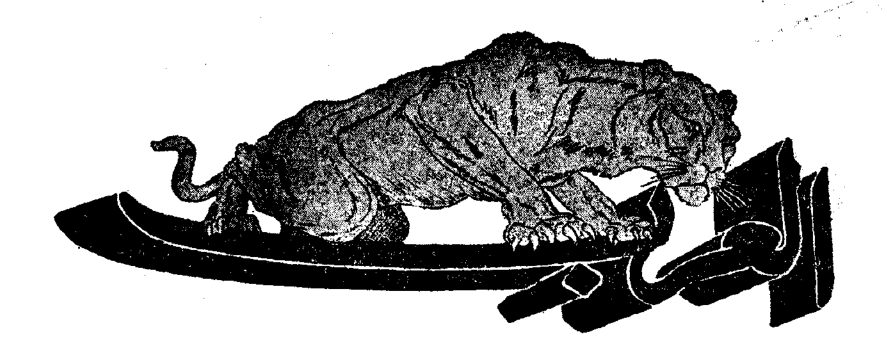
وغيرها من القصص العربية المثيرة الطريفة الجميلة المليئة بالمغامرات والمعارك والحب والمكايد والمتاعب .. والانتصارات وغيرها من القصص العجيبة ، والروايات الغريبة ...

فلينتظرها القراء ، وليبادروا الى طلب الكمية التي يريدونها من كل كتاب ..

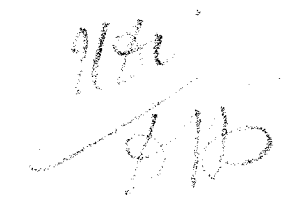
الى دار عمر ابو النصر وشركاه

مفهوم التاريخ عبد الله العروي
الفكر السياسي العربي
ابن رشد

التراث العربي الشعبي



سوف تنشر (دار عمر ابو النصر وشركاه) كل الآثار الشعبية القديمة، تباعا .. باخراج جديد ، وتبويب لطيف ، واسلوب مثير ، يسر القارىء ويجنبه الملل ، ويبعث فيه حب القراءة والمطالعة ، والاستمتاع بالتراث العربي القديم الى ابعد الحدود والغايات .



هذا الكتاب

تغريبة بني هلال

هذا هو الكتاب الثالث من سلسلة الآثار العربية الادبية القديمة ، التي قدمت منها قصة عنتر في مجلدين .. وقصة الملك سيف بن ذي يزن ، في مجلدين أيضاً .. وقصة تغريبة بني هلال في مجلد واحد .. وهو هذا الكتاب . وتغريبة بني هلال عبارة عن قصة قبيلة بني هلال التي كانت تقيم في نجد فلما اجدبت ارضهم غادروها الى تونس والمغرب ، حيث الماء ، والأرض المخضوضرة الخصبة ..

وما جرى لهم في طريقهم الى تونس من الأهوال والمغامرات والمعارك والهوى والغرام ، والمكايد والحيل والفروسية والجرأة والتضحية ، هذبتها ما استطعت ، وتركت فيها بعض جملها البدوية الجميلة ، كما تركت بين فصل وآخر شيئاً من الشعر الذي قيل ، والذي لم يكن يعرف وزناً ، ولا معنى طريفاً كما يبدو .. والذي كان اشبه بالكلام المنثور منه بالشعر المنظوم ..

والقصة جميلة ما في ذلك شك .. ولكن بعد تهذيبها إذ اصبح باستطاعة كل انسان قراءتها بعد ان كانت خاصة او تكاد تكون خاصة بالطبقة الشعبية التي لم تعرف مدرسة ولا كتّاباً ..

وشكراً جزيلا لهؤلاء الكرام من القراء الذين ايدوني وشجعوني على كتابة قصة عنتر ، ثم الملك سيف ، ثم هذه القصة ، والقصص التي سوف تلي .

عمر ابو النصر

٥٠٠ غ.ل.س. او ما يعادلها